القاهرة غداً
إن شاء الله

obeikandl.com

هذه الترجمة الكاملة

لـرواية

القاهرة غداً إن شاء الله

تأليف: يونى فيكان

إشراف ترجمة / خالد طوبار

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من النرويج
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع: ٢٠١٥/١١٤٦٧
ISBN:

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥

www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2015

obeikandl.com

يوني فيكان

القاهرة غداً

إن شاء الله

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف بالكاتب

"يونى فيكان" هي أستاذة في قسم ومتحف العلوم الاجتماعية بجامعة "أوسلو"، عملت كمحاضر منتدب فى جامعة "هارفارد" و"جون هوبكينز".
قامت جامعة "شيكاغو" بنشر أعمال سابقة لها مثل: "وراء الحجاب في شبه الجزيرة العربية"، "النساء فى عُمان"، " قلوب مُضطربة" و"الخلطة السرية للحياة في بالي".

obeikandl.com

تقدير وعرفان:

كل الشكر والعرفان إلى أصدقائى بالقاهرة، في مقدمتهم "أم على"، "مصطفى"، وأبنائهم. وكم أتمنى أن أشطر كل شخص رحب بي في حياته وأتاح لي شرف صداقته على حِدا، لكن حقا تعجز الكلمات عن وصف كم أنا مدينه لهم.

بتغير بعض الجوانب الشخصية واستخدام أسماء مستعارة، وُلِدت شخصيات شديدة الواقعية ولكنها ليست حقيقة، وذلك احتراما لمن وثقوا بي وسمحوا لى بالتجول بحرية داخل جنبات حياتهم الشخصية وعالمهم الخاص، وفي حالة فشلى فى ذلك أرجو المعذرة والتأكد ان خيانة تلك الثقة الغالية هى أبعد ما يكون عن المقصود.

غالبا ما تكون العلاقة بين الفقر المدقع والكرامة الإنسانية عكسية، ولكن السحر الموجود في حياة هؤلاء الأشخاص والإصرار على الكفاح برغم معاناتهم من الإضطهاد ينفى تلك القاعدة تماماً، ويؤكد أن إغفال الحكومة لكل هذة الإمكانات الها ئلة هو خطأ لا يغتفر، فتقديم يد العون لمثل هؤلاء والإجتراء على استيعاب طمحوحاتهم سيظهر فعليا كم الأنجازات التى يمكن تحقيقها _ بأيديهم-.

أجد صعوبة في استخدام كلمة "فقراء" لوصف حالهم _صحيح هكذا يسمون أنفسهم_ ولكنى أشعر أن الكلموة ضمناً تعنى "فقر الروح" أيضاً وهذا أبعد ما يكون عن الناس الذين أعرفهم.

*بعيداً عن الشارع الخلفى، هناك العديد ممن أعارنى

الدعم وشجعنى على الإقدام على تلك الخطوة، عميق شكرى إلى الدكتورة "ليلى شكرى الحمامصى" _رئيسة مركز البحوث الإجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة_ بدون إيمانها بى ودعمها لى لم أكن لأنتج مثل هذا العمل، خالص الشكر والعرفان أيضا للدكتور "كريس ثورون" رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرةز

أيضاً مَدينة بالشكر للسلطات المصرية لسماحهم لى بالعمل على ذلك البحث، ووزارة التعليم العالى على سخائهم معى وتوفير كل ما يتطلبه البحث من معارف.

الدعم المادى الكامل لأبحاثى ودراساتى منذ عام ١٩٧٥ تكرم به "المعهد النرويجى لبحوث العلوم والإنسانيات" كما تم تزويدى بكامل المراجع و المواد البحثية لتوفير بيئة هادئة مناسبة للإبداع. كل التقدير والإمتنان لهذا الدعم.

هذا الكتاب هو إعادة كتابة لنسخة من كتب نُشِر بالنرويجية عام ١٩٨٣ . خالص الشكر ل"سوزان بالم"_لأقتراحها فى البداية بإعادة تقديم الكتاب بالإنجليزية، وأيضاً ل "ليندا سيفينسيد" لجهدها فى ترجمة بعض الفصول.

إلى "أرثر كلينمان" حيث التشجيع والنصح لعمل الكتاب فى أفضل إنجليزية ممكنه بدلاً من ترجمة النسخة الأصلية وحسب. أيضا وجب الشكر ل" سارة و روبرت ليفين" على تشجيعهم، و ل" ديفيد برينيت" _ رئيس قسم التحرير بجامعة شيكاغو للصحافة _ لدعمة السخى، ول"جين اس جوتليب" للتنقيح النهائى المتميز للكتاب.

لا تسعنى الكلمات لشكر " آن فون دير ليب"

لقدومك معى الى القاهرة ومشاركتى عالمى الخاص، تخصصها فى على النفس الإنمائى والتحليلى جعل من تجربة العمل المشترك على مستقبل الأطفال تجربة مثمرة.

أشكر أيضاً إبنى"كيم" على قدومة معى مرتين الى القاهرو ومشاركته لجزء هام من حياتى.

كعادته،زوجى، "فريدريك بارث" لعب دور هام وحاسم فى عملى، ترجم جزء كبير من النص النرويجى الأصلى، قرأ وعلق على المسودات الأولى للكتاب على مراحل متعددة، ولم يبخل على بنصائحة الثمينة. وعلى الرغم من عدم مشاركته الفعليه فى عملى إلا أن إعجابة وتأثره البالغ بهؤلاء الناس _الذى لم يلتق بهم إلا مرة وحيدة_ عمق إحساسى تجاههم بالتميز الفائق.

أهدى هذا الكتاب ل "أم على"، و لذكرى "توف ستانج داهل" صديقة عمرى وزميلتى ،"توف" بذلت ما لم يبذله أحد من تشجيع ومساندة الى أن أصبح أن رأى هذا المشروع النور ليصل بين أيديكم الأن. عكفنا سوياص على مشروع أتى بنا الى القاهرة فى مرة الى المرات الى أن أثمر عن كتابها "العائلة المسلمة: دراسة عن حقوق المرأة فى الإسلام" الذى نشر عام ١٩٩٢ قُبيل رحيلها. كناشطة وعالمة عالمية فى حقوق المرأة، إستحوذت "توف على إعجاب وتقدير وحب الناس، اما مشاعرها هى فكانت أكثر مما يمكن أن توصف ،فهى مشاعر أكبر من أن تكون متبادلة. أهدى هذا الكتاب لذكراها.

الشخصيات:

عائلة "أم على" (الأعمار المذكورة فى عام ١٩٨٢)

أم على ٤٧
مصطفى ٥٦
على إبن ٣١
أمين إبن (مات فى عمر ال ١٩ عام ١٩٧٢)
هدى إبنة ٢٧
منى إبنة ٢٤
علياء إبنة (ماتت فى عمر الرابعة عام ١٩٦٤)
عفاف إبنة ١٧
أنور إبن ١٥
نوسة إبنة ١٠

شخصيات أخرى فى حياة " أم على "

عبده زوج أختها فايزة
عادل زوج أختها شادية
احمد اخ
أمينه أخت مصطفى
أميرة زوجة اخيها أحمد
فريدة أخت كُبرى، ترتيبها الثالثة فى الأسرة.
فايزة الأخت الكبرى
حمدى زوج منى
كريمه إبنة عم مصطفى، وتربيا سوياً
خديجة أخت كبرى، ترتيبها الثانية فى الأسرة
خالد خطيب هدى السابق
نفيسه زوجة إبنها على

obeikandl.com

سيد زوج أختها فريده
شادية أختها الصُغرى
.زينب إسم أم على الحقيقى
أم فتحى صديقة أم على
أم جمال جارة مسيحية
أم مجدى صديقة سابقة

obeikandl.com

مقدمة

فى الوقت الذى ينظر العالم الغربى للإسلام على أنه العدو الجديد، كتاب كهذا يحمل أهمية خاصة بالتأكيد، فهو يدعك تقابل وتتعرف على بر ليس بشىء أحب عليهم من العيش فى عالم يتمتع بالسلام، الحرية لمواصلة السعى لتحقيق أهدافهم، وضمان مستقبل أفضل لأطفالهم ،عالم يسوده العدل والأحترام المتبادل بين أفراده، عالى يحترم الكرامة الإنسانية، عالم بتقابل فيه الناس من مختلف الثقافات لبتعارفوا،يتراحموا، و يتحدثوا "تؤتى الحكمة بالكلام" هذا هو أحد الأقوال المأثورة لأم على ، الشخصية الرئيسة فى الكتاب، وتقصد بها المعنى العميق لا السطحى، هى وعائلتها يستطيعون سحبك الى عالمهم الخاص _كما فعلت بى_ فقط اذا استقبلتهم بالقليل من الكياسه واللطف، فمن البدايات تجد أن البشر كالسندات، من الممكن أن تكون مزروه لترى عالم جميل لكن مزيف.ولهذا أردت أن أوضح ذلك قبل أن أضع هذا الكتاب بين يديك. سوف تسمع أصوات أناس يعيشون فى مدينة خارقة رحيمة من مدن العالم الثالث، يخبرونك كيف يكون الإنسان فى عالمهم . هو سرد لحياة وظروف معيشة تُروى من منظور حقيقى ،من شخصيات القليل منها حقيقى، والكثير من كلماتهم الحقيقية ، رواية أم على ودائرة شواغلهم، إهتمامتهم، صراعاتهم، أحلامهم ، وواقعهم.

لا أرى طريقة أخرى لتوصيلك بهؤلاء الناس غير ذكر وسرد الكثير من تفاصيل الحياة اليومية، العلاقات المتجدده،

والشواغل الدائمة على نحو خاص لحياة بأكملها لقطاعات رئيسية، من المستحيل تركيزها فى نص او استخلاصها فى إحصائيات مجردة من الرسائل الإنسانية العميقة التى تحتويها، فلنشاهد حياة" أم على" وعائلتها وجيرانها التى تتشابه مع ظروف حياة الملايين فى هذه المدينة .

لكن بمجرد انسحاب مشاعر الألم تبدأ جوانب أكثر أهمية فى قصص حياة هؤلاء الناس وشخصياتهم فى الظهور ،والتى تنشأ مع التجمع والتلاحم، بالنسبة لشخص، من ستدرك باللاحظة كيف يحتفظ هؤلاء الناس بأدميتهم وإنسانيتهم برغم كل التجارب والصراعات اللانهائية التى يختبرها كل شخص تقريبا فى كل وقت ومع ذلك يظلوا مثابرين،حتى لا يقضى على قيمهم ولا تكبت أمانيهم.

فى الواقع_ كما ستتبن القصص_ الناس هنا لا يزالوا قادرين على التسامح والعفو عن بعضهم بعضا والبدأ من جديد دائماً.

بالنسبة لشوارع القاهرة الخلفية، بروائحها، قبحها وكل صراعاتها ، رويدا رويدا تبدأ فى إدراك الإختلاف بين سكان الحضر غى المدن الكبرى من العالم وبين سكان تلك الشوارع، يظل سكان شوارع القاهرة الخلفية بعيدون عن الجرائم الوحشية، سيطرة عصابات المافيا، أطفال الشوارع وسكان الأرصفة، فالناس هنا تنحدر من عائلات مستقرة الى حد كبير. بالأمل والمثابرة ينتصر هؤلاء على مرارة الواقع لينبشق من هذه البيئة أطفال متحملى المسؤلية وآباء مستقبليين .

هذا يقترح قراءة أخرى لقصص الكفاح، التعب والإحباطات : قراءة بناءا على حاصل جمع كل جهود هولاء الناس، صراعاتهم، شوافلهم وطموحاتهم، لتجد المحصلة الأخيرة هى مجتمع مدنى كبير يحافظ على انسانية وكرامة أفراده لا يدمرها كما هو الحال فى العديد من مُدن أوروبا وأمريكا الشمالية والعديد مدن العالم الكبرى.

أسئلة، وألغاز، ورسائل للعالم

قصة أم على والدائة المحيطة بها تثير فى الذهن العديد من التساؤلات والألغاز:

١ ما الرابط بين الحالات الموضوعية للفقر وتفسيرة كجزء من حياة البشر؟ ماهى التجربة الحية للعيش كجزء من هذا العالم؟

٢ لو استخدمنا روايات وتقييم هؤلاء الناس كشواهد لدراسة الحالة، هل سنقع فى خطأ التضليل الناتج عن اهمال الرسائل الغير منطوقة وما وراء الكلام ومقارنتها بأفعالهم مع العلم ببراعة اسلوبهم فى الخطاب وبلاغتهم

فى الشكوى؟

٣ بصفتى باحثة إجتماعية (أنثروبولجى)، كيف لى أن أدرس تلك التجربة الحية لمعاناة الناس فى ظل تلك الظروف القصوى ؟ وكيف لى أن أعدل تقييمى بمقارنة أقوالهم بأفعالهم وما يصلوا اليه على المدى البعيد؟

٤ وأخيرا بصفتى كاتبة، ما هى الطريقة المُثلى للتواصل مع القراء بحيث أشاركهم أفكارى وانطباعاتى بطريقة تمكنهم من تقييم صلاحية خطابى ما كتبته فضلا عن استيعاب الخطابه القاهرية وإدراك كم التشعبات والعلاقات المتشابكة لأصحاب الروايات ؟

أتمنى ان انقل أحاديث وأحداث حياة أم على الرتيبة لكنها قديرة بالسرد لنتمكن من الإجابة على بعض الأسئلة أو للوصول الى بعض حلول لتلك الألغاز ونمضى قدما محاولة الإستيعاب أو الفهم الكامل لتلك الحياة . عموما أنا لا أحاول تحليل القوى الخارجيه التى حددت عدم المساوة الإقتصادية والأجتماعية مُخلفة فقر شديد.ولكن فقط احاول اظهار صور الفقر والمعاناة التى يختبرها هؤلاء الناس وكيف تعاملوا مع تلك الظروف وحولها بطريقتهم الى جزء طبيعى من حياتهم .

في عام ١٩٦٩ عندما قمت بأول دخول إلى منطقة من القاهرة التي يسكنها الناس الذين يسمون أنفسهم "، نحن الفقراء" لم استطع تصور كيف كان لهذا ان يغير حياتي إلى الأبد. بعد ٢٥ عاما ما زلت أعود كل عام ولكن ينتابنى شعوريين بأن هذا الامر إنني افي أعمق مشاعر الصداقة و الامتنان لها .

هى رحلة كان من المقرر أن تتم لمجرد جمع لجميع الموادعن أطروحة في الأنثروبولوجيا في التزام مدى الحياة و تحولت من ذلك إلى الناس وطريقة الحياة التي اكن لهم عميق امتناني.

كيف بدأ كل شيء؟ بالصدفة والتقلبات من المصير. كنت في القاهرة بعد أن أنجزت دراسة لمدة عام للغة العربية، وكنت على استعداد للذهاب المنزل عندما وصلتني رسالة من ادارتي تفيد بالمضي قدما في مجال العمل الميدانى لم اكن مؤهلا فعلا، وأنا قد خططت للمواصله عام اضافيا من الدراسة قبل المغامرة في الميدان بين the Bedouins العربية كنت أعيش مفلسا من القروض من الحكومة وكان ادارتي مهتمه بتوفير الوقت والمال لى حتى انتهى الأمر في ما بعد .

لماذا الشوارع الخلفية للقاهرة؟ لأن في ذلك الوقت جميع المناطق الواقعة خارج حدود القاهرة والاسكندرية المحدوده للأجانب. وكان هذا في عام ١٩٦٩. بعد عامين من الحرب مع اسرائيل. حاولت اقناعهم لدراسة القرية ، لكنه كان عبثا. هذا سمح لاستقرارى في شبرا الخيمة من قبل شركة قرويه مقرها هناك. ولكن سرعان ما

اقمت صداقات وجئت للاتصال مع علي أم .عن طريق صديق لصديق .كانت تعيش عمته في جانب الفقراء في القاهرة .امرأة هائلة من 34 وأم لستة أطفال .وصلت إلى مع هذا الدفء والضيافة ..واقترحت بأن انتقل للعيش مع عائلتها ، وينبغي لنا أن نقول إن جئت من الاقرباء في الخارج حاملة التحية لعائلتي" فقط لمواجهة كلام الناس" .

كانت المشكلة الأكثر إلحاحا النوم في الليل كنت .اتقاسم السرير الضيق مع هدى ومنى محشورة في وسطهم بينما الشعور بالاختناق من الزحام والحرارة ..كنا ننام ثمانية أشخاص في غرفة صغيرة من دون تهوية.
تدوين الملاحظات كان صعبا ، لم يكن هناك مكان للانسحاب . و لا يوجد اى مكان في أي وقت أن يجلس المرء في سلام .غادرت الشقة، وكان علي ان اجد مكان آخر) مع الوضع في الاعتبار أنه يجب أن لا تعيش الفتاة الغير متزوجه وحدها .(كنت ارجع كل يوم عن طريق الحافلات العامة المقبلة في مجال العمل الميداني فى حوالى التاسعة أو العاشرة في الصباح .منذ بدء الحياة في وقت لاحق ، والخروج في منتصف الليل أو اثنين في الصباح كان امرا ضروريا.
لحسن الحظ ، كانت القاهرة، ولا تزال، مكان آمن .أنا لم اخشى السرقة أو الاغتصاب في هذه المدينة حتى في عام ١٩٦٩ عندما كان عدد السكان حوالي ستة فقط الملايين أو عندما نقف الآن لمدة أربعة عشر مليونا.

كيف اقدم سببا أن أكون مع الناس؟ أولا من اهتمامي الحقيقي في حياتهم ، ورغبتي في فهم وتوثيق معاناتهم. الثانية حاجتي لكتابة أطروحة لكسب العيش
والثالثة حاجتي لتحسين لغتي العربية. كان ذلك عندما اقترحت علي أم على وذلك بسبب اشتباه الأجانب عامة متبادلة التى سادت في البلاد في ذلك الوقت ذاته كانت خائفة من الكيفية التي يمكن أن يساء تفسيرها في نيتي، وذلك لاجل السلامة، يجب أن نؤكد فقط على اهتمامي

باللغة العربية. شعرت بالارتياح في نصيحتها كما شعرت عنة العداء بعد الحرب التي وصفتها في أماكن أخرى مسارات وأنا في طريقي من المنطقة الى الباص كل يوم (ويكان ١٩٨٠) كان علي ان امرعلى شوارع سوق مزدحمة حيث كنت حالة شاذة، وانا أميركية، وكان الكثير من مسيؤا التفكير يهاجموننى ، كنت هدفا للطماطم الفاسدة والمياه المتسخه من اعلى.و ألاطفال كانوا يرمون الحجارة في وجهي. كان امرا مخزيا ولكن ليس خطيرا. في لنهاية وصلنا للسلام مع بعضها البعض ز

داخل حي أم علي، كانت أيضا ردود فعل متباينة. ذهب معظم الناس عن طريقى بعد أن دعوني اذهب المنزل ، ولكنى حافظت على المسافة بيننا. مع مرور الوقت، أصبحت المشكلة الأكثر إلحاحا لدي حفظ المسافة بيننا لأن الناس كانت تتنافس مع بعضها البعض ليكونو اصدقاء لى. شعرت كما لو كنت في اغرق فى الصداقة والضيافة منهم ، لم يكن لهم سيطرة على حياتي الخاصة و تحركاتى. وكان غضب الناس أيضا مضايق لي . و لكنى أصررت على حقي أن يكون لدي أصدقاء حتى لو كانوا أعداء لبعض أصدقائي. وأصررت أنا على حريتي لاتى و اذهب من دون أن احبس في المنزل يوم كامل لمجرد أننى فتاه. "اوبى" طورت تفسيرا مقبولا لسلوكياتى الغريبة "" كما تعلمون ، هي مسيحية.المسيحيين يحبون لناس "" التي يستخدمونها لشرح وفقا لعلاقتهما الخاصة ، تمكنوا من نمط لتحراكتى المنحرفة. في عالمهم الخاص لم يكن يسمع عن الخروج من المنزل بعيدا كما كنت افعل. وكانت تقتصر

صداقاتهم على العلاقات القليلة اثنين أو ثلاثة اقرباء فقط.

وكان المأزق لي أنه لو اتبعت طريقهم فيما يتعلق الصداقة بينهما، وأنا لا يمكننى القيام بدراسة سليمة. و استند أطروحة على عائلاتين او ثلاث؟ وكانت أم على واسعه الأفق.. بقدر ما أستطاعت ، شجعتنى وساعدتني في كل شيء. الطرافة كنت كنقطة انطلاق بانسبه لى ، أنشأت شبكة صداقة. وكانت بعض صديقاتها أو الأقارب. كان عائقا لي لكى أتمكن من زيارة البعض ، إلا أنني لن اطلق العنان لغضبهم و شكاويهم عندما جئت لهم.. الناس يريدون مني بطبيعة الحال أن يكون ألافضل وعدم اضاعة وقتي على أي شيءغير مهم، عرف معظم الناس أننى كنت أكتب أطروحة في العلوم الاجتماعية. على الرغم من انهم لا يمكن ان يعرفوا ماذا يعني ذلك، كان لديهم فكرة من الإذاعة المصرية التى اعتادت على بث برامج تثقيفية حول العلوم الاجتماعية وعلم النفس التي حظيت بشعبية كبيرة بين بعض من عائلتي.. وبالتالي، كان أصدقائي ،عندما لاحظت الشرطة السرية تحركاتي،غضبت منى احدى صديقاتى. و قالت احداهم للشرطة "هي أحد الأصدقاء، انها ليست أجنبيه، لا يمكن أن تشاهد، انها تهتم بنا أكثر من أن الحكومة " "ثم اختفت الشرطة.

مشكلتي الأكثر إلحاحا هو العثور على مجتمع للدراسة. لا توجد الحدود الفاصلة الطبيعية ، لا توجد أي معالم مرئية لتطويق المجتمع.

وكما قلت دراسة جر نفسي الدرج صعودا وهبوطا، قصف

على الأبواب. ، كانت الأمور مختلفة افي بذلك. عندما كان اليأس يمتلكنى ، حظي سيئا على التقوقع في مناطق حضرية والغباء في اختيار بلدي للأنثروبولوجيا ، أم علي وغيرها من أنقذني من هذا الاحساس. عن طريق إلقاء المحاضرات. وفلسفة حياتها التي قالت انها يجب أن تتقاسم خبرتها مع بعضهم البعض بحيث أنها سوف تأتي الى الأفضل أن نفهم بعضنا البعض. حتى انها كانت وأنا في "المشروع" نفسه. وقالت انها مستمرة أيضا فى إعطائي الشعور المبهج بأنه مهم بالنسبة لى. مهما كان الفشل، وهكذا ظللت مستمرة.

ما وراء عالم الفقراء ، كان هناك أيضا مصدرا حيويا للدعم. سادت الدكتورة ليلى شكرى الحمامصى فى مركز البحوث الاجتماعية في الجامعة الأميركية في القاهرة خصوصا ، على الرغم من أنني لم أراها بعد الآن. تذكرت لحظة واحدة على وجه الخصوص عندما أنقذتني. كنت قد ظهرت على عتبة بابها بعد غياب طويل. شعرت الفشل الذريع باعتبارها عاله الأنثروبولوجيا وكإنسانه وكما قلت لا يمكن أن تتحمل مساوئى البدنية والعقلية

وكإنسانه وكما قلت لا يمكن أن تتحمل احوالى البدنية والنفسية المحيطة : القذارة والرائحة النتنة و الماساه . والآن البقايا الأخيره من الأمل ، وقوة الإرادة فشلت أيضا.

حاضرتنى ليلى على التفكير الأخرق لكى أتمكن من القيام بذلك .انتقد معلمتي لغرس هذا الأمل الزائف في .لا يمكن لأي أجنبي مواجهته .و لا حتى المصرية .في الآونة الأخيرة كان هناك رجل من الطبقة الوسطى ، الذي حاول

أن يعيش بين الفقراء، ولكن حتى استسلم لليأس .منذ ذلك الحين شعرت بإحساس الإنجاز بدلا من العذاب .ولذا فإنني أستمريت في ذلك.
كما قدم العديد لي الشجاعة والأمل .بواسطة دفئهم، والنكتة والكرم .ولذا فإننى صبحت ملزمة مع بعضنا البعض .أشعر بالسعادة عندما أسمع الناس يقولون، كما لو كان شاهدا، "نطلب فقط (أوني)، كنا اصدقاء لمدة عشرين عاما" "في ثقافتهم كما في ثقافتى مثل هذه الصداقة طويلة الأمد أمر غير مألوفه .وأنا ه على الأقل لقد جلبت شيئا مقابل كل ما قدموه لي.
أنا لم ادفع أي شيء حتى طعامي بسبب كرم الضيافة منهم كان يمكن أن يكون إهانة لو كنت عرضت .حتى المشاركه فى المصاريف ، في بعض الأحيان، كنت أعطي الأطفال أو الكبار الناس الملابس التي جمعت من الناس في القاهرة أو في النرويج .ولكن على العموم، وبمناسبة أنني ساعدت بطريقة بسيطة .ولكن من حسن الضيافة المصرية . استمروا في طريقهم إلى إعطائى الهدايا ، عندما كنت ذاهبا للطائرة كنت اذهب محمله ب "كفتة(" كرات اللحم) الطازجه.
أرسلت خصيصا لعائلتي ، أو (الكعك) إذا تزامنت إقامتي في العيد بعد رمضان
"او النعناع المجفف "خصوصا لي بعد أن عرفوا أنني أحب الشاي بالنعناع .بشكل واضح ، لقد كنت عبئا على مواردهم الشحيحة مع مجيئي استمرارى طيلة السنة . وجعلونى دائما أشعر أنني لا يمكن أن أتي في كثير من

الأحيان أو حتى البقاء لفترة كافية. العلاقات معهم كانت عميقه ، بحيث عند عودتي إلى النرويج بعد لقائي الاول الميداني، وجدت أنني لا يمكن المضي قدما في المشروع خلال دراستي الأكاديمية . الانتقال من منطقة فقيرة إلى قاعات أكاديمية التحليل حيث النظام وهياكله كانت فتره صعبه أكثر من أتمكن من التعامل معها .كتبت أطروحة في على الرغم من حياتي ، وأني غصب عنى"كما يقول المصريينلا يمكننى سوى الانسحاب بعد ذلك .يعني أنه لم يكن لدي أي درجة .ولكن الأول ان اكون وفيا لنفسي .وقد كتبت الرسالة ونشرت في كتاب (ويكان ١٩٨٠) وردود الافعال من الناس أقنعتني كنت قد فعلت الشيء الصحيح .كما هو الحال الآن، واعتقد أن علم الإنسان هو المساعدة في بناء عالم أفضل .يجب أن نعمل في هذا العالم معا من خلال الوصول إلى جمهور اكبرومعالجة قضايا اجتماعية خطيرة .اليوم أنا سعيدة حيث انضممت الى صفوف الأنثروبولوجيا مرة أخرى .ولكن يمكن أن أفعل ذلك فقط بسبب وجود حرية موسعه لعالم الانثروبولوجيا لمعالجة هموم الانسان في الصوت الذي يسلط الضوء على خبرته التي عاش الناس لها لذلك من لها صدى في عالمنا.

....وتؤتى الحكمة .. بالكلام

"أنا بحب أتكلم مع الناس" هكذا بدأت أم على حديثها، "كل ما نتكلم مع بعض كل ما نعرف أكتر، إحنا اتخلقنا مش فاهمين حاجه، إبه خلانا نفهم الدنيا غير كلامنا مع بعض، وكمان الكلام بيخلينا نخرج همومنا، زى أنا

وانتى كده ما بنتكلم، تقول حاسين إيه ، بنفكر فى إيه ، وإيه اللى مضايقنا! أمال إيه ؟"

واستطردت، " عارفة عفاف بنتى؟، كل اللى فيها ده من قلة الكلام، أه بس لو تتكلم وتخرج اللى جواها، مكانتش تتعب كده "

مثلها مثل معظم سكان المناطق الشعبية _ أو العشوائيات_ لا تُفوت أم على فرصة للكلام والحديث عن أى شىء وكل شىء حتى تفاهات الحياة الشخصية للجيران.

للرجال والنساء هنا على حدٍ سواء نفس الحماسة للتعبير عما بداخلهم، تصل الى حد إجبار الأخرين على مشاركتهم حتى لو بالجلوس كُرها للإستماع لهم. وهكذا تنبض ذرات الهواء بالحكايات ، وتمتلىء دائماً بأصداء دراما الحياة اليومية.

الحياة فى المناطق الشعبية _و العشوائيات_ ربما تكون قاتمة، جافة، بائسة أو حزينة ،لكنها أبداً لا تكون مملة، هى حياة تضج بالفوضى للدرجة التى تجعل الناس تشتاق للقليل من الهدوء والسلام، أو الهروب من سيل الأحداث . غالباً ما تبدأ الدائرة بالكلام، ثم يمضى قدما فى زخم الأحداث ذاتية الصُنع الى أن يصل الحال للحنق والسخط الشديد على أصحاب الدور الرئيسى فى القصة .

الناس هنا تتمتع بمهارات مسرحية وبلاغية عالية بالفطرة، يقوموا بتوظيفها جميعا حين يتكلمون، ليدخلونك بالجسد والروح الى المشهد. وللمتفرجين أيضاً دور فاعل.. تعليقات، همهمات، تعجب وهزات قوية للرأس تعبيرا

عن عمق اهتمامهم .. وصدقه.

العديد منهم لديه قصصه وحكاياته الحقيقية_التى عايشها بالفعل_ يستخدم كل امكاناته المسرحية لجذب المستمعين، فيقوم بالتصعيد الدرامى للحكاية ويملاء المحيط بالصخب والضجيج . يصل الأمر لشعورك بأنك تسمع صوت تصدع الهواء بعد فقدانه القدرة على استيعاب كل ذلك الكلام وكأنه على وشك الإنفجار.

الكلام هنا من أساسيات الحياة، كالأكل والنوم، الكلام هو محور حياتهم .. بالكلام يثبتون وجودهم ويدركون ذاتهم، بالكلام يعبروا عن تطلعاتهم، مشاعرهم،شوقهم لشيء ما. يحتاج المرء للتفيث عن غضبه، مواساة أحزانه، لشهادة حب وولاء ..لمتعة المشاركة والتوحد مع الجماعة .. كل ذلك بالكلام .

الكلام هو جوهر التفاعل الإجتماعى فى هذا الوسط، والصامت قليل الكلام هو الخاسر دائما هنا .

إمرأة وأم فقيرة

حلم مكسور

تقديم .. سنة ١٩٨٢

"أم على" هكذا يسمونها، أنجبت ثمانى أبناء، الأكبر "على" عمره واحد وثلاثون عاما، متزوج ويعمل سائق تاكسى، ولم يتجب بعد. بعده أنجبت "أمين" الذى مات منتحرا فى عمر التاسعة عشر_أشعل النار فى نفسه_ كان وسيم وحكيم، وكان بالمدرسة الثانوية. ثم "هدى" وهى الأن تبلغ من العمر سبعة وعشرون عاما، عاملة فى مصنع، تسربت من التعليم وهى فى الصف الثالث الإعدادى بناءاً على طلب خطيبها، ولكم للأسف كان خائن وتركها. تليها "منى" أربع وعشرون عاما، تعمل فى مصنع أيضا، خرجت من المدرسة وهى فى الصف الثانى الإعدادى بسبب خطيبها الذىاكتشفت انه خائن وتركها .. تماماً مثل "هدى".

بعدها جاءت "علياء" التى رحلت مبكراً وهى فى الرابعة من عمرها، كانت أجملهن على الإطلاق. التالية أسمها "عفاف" ، تدرس فى الصف الثالث الإعدادى حالياً، كانت مصابة بمرض عصبى ولكنها تحسنت كثيرا بفضل الله، يليها "أنور" فى الصف الأول الإعدادى، أما "نوسة" فهى أصغر أبناء "أم على" أو "أخر العنقود" كما يطلق عليها وهى فى الصف الثالث الإبتدائى حاليا. بعد "نوسه" كان هناك حمل لم يكتمل، مات الجنين بداخل "أم على" ،والحمد لله، فقد كان مصابا بمرض السكرى مثل أمه .

هكذا،تقريباً، كانت سترد أى إمرأة من هذا الوسط إن سألتها عن "أم على" ؛ هكذا يعرف النساء بعضهن بعض لأى طرف ثالث.

فهن أمهات وحسب وتلك كل إنجزاتهن.

الحلم

"زوج يعتنى بزوجته وأطفاله، يوفر لهم احتياجاتهم من الطعام والكساء، يظهر عواطفه لزوجته، ويجلس معها فى البيت أوقات فراغة، أو يأخذها هى وأطفالها لتزهة خارج الجدران _هو ذلك العالم وما فيه لأى إمرأه .. لكن فقط واحد ة من مائة تجد ذلك".

تلك هى الحياة الطيبة التى تحلم بها كل إمرأة، لكن للأسف غالبا ما تستضدم بواقع أكثر قسوة.

obeikandl.com

"ياريتك شوفتينى وأنا صُغيرة، وشفتى كنت حلوة إزاى"

"اتجوزت وانا عندى ١٥ سنة، كنت مرعوبة من الجواز_صغيرة ومعرفش حاجه_ "مصطفى" كان بيجى يقعد مع "عبده" جوز أختى _كانوا أصحاب_ فى الأول طلب إيد أختى الكبيرة "فريدة" ، لكن هيا رفضت عشان "مصطفى" أسمر، لكن أنا كنت شايفاه وسيم وسمعت كلام أمى و وافقت أتجوزه. "مصطفى" مكانش أول عريس يتقدم لى، كان فيه إتنين قبله، واحد منهم كان حليوه زى بتوع السيما (وسيم مثل نجوم السينما) كان يشبه الملك فاروق ! بس أمى رفضته عشان هو متجوز، مع انه وعد إنه هيجيب لكلل واحدة فينا شقة لوحدها؛ بصراحة، كان نفسى أتجوزه !

والتانى أمى رفضته عشان شغله .. مش فاكرة كان بيشتغل ايه.. تقريبا بَواب . أمى وافقت على "مصطفى " عشان خاطر "عبده" ، بابا كان رافض "مصطفى" لأنه حشاش (يدخن الحشيش)، لكن أمى قالت له إن "عبده" بيقول عليه طيب، وبكرة يتغير ويبقى كويس.. وهتشوف.

وأكملت.... " إحنا إتخطبنا بسرعة، مكنتش أعرف حاجه قبلها، فى يوم ماما صحتنى من النوم بتقولى "النهاردة خطوبتك"، حتى بابا معرفش وراح الشغل عادى ومحضرش الخظوبة، "مصطفى" جابلى دِبلة بس (خاتم زواج) مجابش شَبكة زى أى واحد عايز يفرح عروسته، لا عُقد ولا إسورة،

كنت ببكى وأنا فى الفرح لأنى حسيت إنهم واخدنى لسكة معرفش عنها حاجه، أمى نهرتنى وزعقتلى، قالتلى "مافيش عروسة بتعيط فى فرحها" .

"ومن ساعتها أهملت فى نفسى"

"كانت الخطوبة ع الضيق (حفل بسيط) ماما وأختى وعبده وإتنين من خالاتى من عيليتنا، و ولا حد من أهل مصطفى حضر، كان لوحده . حتى فى الفرح(الزفاف)، مجاش غير جوز أخته، أخته مقدرتش تيجى عشان ولادها كانوا عيانين، وخالته كانت زعلانه منه عشان متجوزش واحدة من بناتها، فمجاتش، لا هيا ولا جوزها.

الخطوبة إستمرت عشر أشهر: كانت أيام حلوة، كان مصطفى بيفسحنى كتير و كنا بناخد أختى معانا، روحنا سينما و"كازينوهات" وكمان حديقة الحيوان،بس السعادة اللى كنت فيها دى إنتهت بجوازنا، مصطفى كان دايما قاعد مع صُحبة فاسدة، بيدخنوا حشيش وبيشربوا خمره، أنا كنت عارفه انه بيعمل كده من قبل الجواز، بس كنت بقول لنفسى لما نتجوز ويبقى لينا بيتنا هينسى الحاجات دى ويبَطل، بس للأسف العكس هو اللى حصل، بقى يتجاخلنى ويسبنى لوحدى ويروح يقعد معاهم .. يروح ويجى على كيفه.. ولو سألته كنت فين ،يضربنى، ويا ويلى لو حاولت أنصحه وأقوله ان اللى بيعمله ده خطر أو أحذره من صحابه، كان يمسك الحزام ويضرب فيا من غير رحمة .. على وشى وودانى وضهرى ... ضهرى كان بيزرق من الضرب..و هو الى كسرلى السنتين اللى قدام ، وعندى ودن تقريبا مبقتش أسمع بيها بسببه.

بصراحة الغلط مكانش من مصطفى، صحابه.. وبالذات "عبده" جوز أختى .. هما اللى قالو له يعاملنى كده ويخَوفنى عشان متدَخلش فى اللى ميخُصنيش وعشان يبان انه راجل شديد !

اليوم بطوله سايبنى لوحدى، رايحة جايه ببكى ..رايحة جاية فى الشقة،و أخر الليل يجى "مصطفى" ينكد عليا أكتر،ويضربنى، وبتعمد يضايقنى _عشان يفرض سيطرته_ فى مرة مثلاً خلانى أحضر الأكل وأشيله .. و أرجع أحضره وأشيله تانى وبعدين أرجع أعمل كله من أول وجديد. لما كان بره مع أصحابه طبعا كلت لوحدى .. ونمت شوية كمان .. لما جه قمت أسخن الأكل وأحضر الطبليه (ترابيزة منخفضة مستديره يستخدمها المصريين للأكل) وأخدمه وهو بياكل ومكتش عايزه أكل أبدا لأنى كنت كلت ونمت خلاص ومتعودتش أكل تانى بعد كده_ إتربيت على كده فى بيت ماما_ لكن مصطفى شتمنى وأمرنى أكل معاه ، ولما رفضت خلع حزامة وضربنى بيه وقالى شيلى الأكل ده ... وبعدها بشوية طلب الأكل تانى ، وأنا طبعا لازم أعمل كل حاجه من جديد ، وبعد ده كله لما روحنا ننام طلب انه ينام معايا!!! أنا طبعاً رفضت وبكيت وصرخت، إزاى فاكر ان الحياة بالشكل ده مُمكنه عادى! فى الأول ضرب وإهانه وتجاهل وبعد كده (سوا سوا) فى السرير؟! إزاى فاكر انى ممكن أستحمل أنام معاه ؟!

بألم أكلمت حديثها : " كنت مصدومة وحزينة بشكل رهيب، لأنى كنت فاكره الجواز غير كده .. كنت فاكراه مشاركة ..نعمل كل حاجه مع بعض،إحنا الأتنين بس،

مصطفى يروح الشغل ويرجع يقعد معايا، نتكلم ونتسامر ،ويوم الأجازة، يخرجنى، نروح جنينه أو نزور قرايبنا. فى الأول كنت ببقى دايما حلوة_بتزين به_ أحط كُحل وأحمر شفايف وأستناه ع الباب أول ما يجى وأنا لابسه الجلابيه الحرير،

والبيت متروق وكل حاجه مظبوطه وحلوة، بس لما لقيت مافيش حاجه بتأثر فيه ولا بتفرق معاه . "ومن ساعتها أهملت فى نفسى".

بكره- إن شاء الله

"الراجل المفروض ياخد حُريته، بس مش على حساب الست! "

"حاولت أفهم مصطفى إن دى حياتنا، ولازم نتفق هنعمل فيها ايه، وكل واحد يقول للتانى ع بيتمناه من الدنيا وازاى نوصل له، عشان نعرف نسعد بعض" كَشر وقال لى" أنا أعمل اللى على مزاجى، أنا حُر!"؛ هو فاكر ان هيا دى الحرية!، هو خد حريته على الغلط! لما كان صغير عمه ومرات عمه ربوه كويس بس كانوا شُداد معاه، فلما كِبر واتحرر منهم معرفش يستخدم الحرية دى صح ويتصرف تصريف سليم، أول حاجه عملها إنه راح يسكن مع صُحابه،وكانوا مقضين حياتهم حفلات وشُرب وحشيش، وكل الحاجات البَطَالة دى، ودى هى الحرية من بالنسباله. وأهو مكمل على كده لغاية دلوقتى، هو بيأذى نفسه وبيقصد يضايقنى ، وبكده بيعمل فصب عنه مش بحريته... "طبعاً الراجل المفروض ياخد حُريته، بس مش على حساب الست!".

"الراجل زى الطفل"

"الحق دى مش غلطة مصطفى إنه بيعمل كده،هو اتربى وشاف الرجاله حواليه بتعمل كده، عمُه اللى رباه كان كده، أبويا كمان كان كده؛ كانوا بيدخنوا حشيش ويشربوا بيره... وبنات عمه اللى إتربى معاهم مسؤلين برده عن حال مصطفى والطريقة اللى بيتعامل بيها، ربوه ع الضرب والإهانة والمعاملة الوحشة، فاتربى جواه غِل؛ الحرية مطلوبة شوية فى التربية وإلاَّ الأطفال لما تكبر هتعمل ضِعف اللى اتمنعوا منه وهما صغيرين،شوفى مصطفى دلوقتى ! بيغلط مع ولاده نفس الغلطة اللى اتعملت فى تربيته."

"والله بيصعب عليا مصطفى .. أه .. وعذراه، مكانش له أم تعرفه الصح من الغلط، وتعلمه يعيش فى الدنيا بالذوق_الرجالة زى الأطفال _ محتاجين كلمة حلوة وشوية حُب وعطف، أصل الراجل لما بيتجوز بيسيب أمه وبيعيش مع مراته، مراته بقى لازم تعوضه وتديله كل اللى أمه كانت بتديه، وأنا والله حاولت أبقى زى الأم لمصطفى أعوده يميز الصح من الغلط والحاجات اللى عمره ما اتعلمها عشان اتحرم من أمه وهو طفل صغير، بس هو كان عنيد وأصر يعيش بطريقته القديمة اللى إتعود عليها، وعودنا عليها كمان!

عشان الجواز ينجح،لازم يبقى فيه قلبين مرتاحين لبعض، بالظبط زى أى شركة، لو الشُركا متعاونوش تبقى محكوم عليها بالفشل.. أكيد !

"ربنا بيساعد اللى بيساعد نفسه"

"كل ما أطلب من مصطفى فلوس للأكل ومصاريف

البيت يكَشر ويزعق ويقول لى انه بضيع فلوسه ويتهمنى بالتبذير، معندوش أدنى فكرة عن تكاليف العيشة، ولا عايز يبقى عنده فكرة ولا يعرف. مفيش إحساس بالمسؤلية عنده خالص.

ويقول هيبقى يدينى فلوس لما يبقى معاه،بس إمتى هيبقى معاه؟! انا محتاجه مصروف دايم،منتظم، عشان البيت يتفتح، مش كل فين وفين، وهو دايما يقول:" بُكرة، إن شاء الله"، "معلهش"، "بعدبن" أو "ربنا يسهل" بس كل ده كلام فارغ. أهو كلام!

فى الأول كنت يصدقه لما يقولل" بكرة إن شاء الله هجبلك فلوس" بس إتعلمت إن كل ده كلام فى الهوا، ربنا عنره ما بيساعد اللى مبيحاووش يساعدوا نفسهم. الإنشان لازم لما يقول "إن شاء الله" يكون مقرر فى قلبه، وعامل حسابه إنه يشتغل بما يُرضى الله عشان "يعمل" اللى قال عليه. مصطفى بس بيعشمنى كتير ومبيعملش حاجه فى الأخر. هو قاعد كده مستنى الفلوس تجيله من الهوا! اللى أكتر من كده انه بيجيله فُرص كتير وبيضيعها، ويرجع يقول "أنا حظى وحش" انا قلتله ده مش حظك، دى تصرفاتك.

ربنا بيكافىء الناس المستقيمة واللى بتتحمل المسؤلية، مصطفى مش كويس وغشاش، عشان كده مافيش حاجه نافعه معاه.

عُمرُه ما عمل موقف يرجَع ثقتى فيه، لو اتغدينا مبنعرفش هيبقى فيه فلوس نتعشى ولا لأ ! أنا اللى دايماً أدبر فلوس الأكل واللبس ومصاريف المدارس للعيال_

بأى طريقة_ استلف بقى او أعمل أى حاجه تجيب فلوس. مصطفى شايلنا من دماغه لدرجة إنه حتى مبيسألنيش دفعت كام فى اللى بجيبه أو جبت الفلوس منين ! لو العيال جابوا لبس جديد وفرجوه عليه يقولهم "حلو!" من غير ما يسأل جبت اللبس ازاى ولا دبرت فلوسه امتى! كل ما أشتكيله وأقوله "احنا فلسنا" يقولى " احمدى ربنا ع اللى اداهولك!" أقوله عايزين أكل أول لبس يقوللى" بكره،إن شاء الله" أو "ربنا يسهل"، بس كل ده كلام بينطق بيه لسانه،انما مبيدعيش ربنا من قلبه بجد! أنا سألته مرة اذا كان متخيل ان ربنا هينزل يديله فلووس فى إيده ؟!! لأ طبعا، ربنا قال "إسعى يا عبد وأنا أسعى معاك" .. ربنا بيساعد اللى بيساعد نفسه.

الشوارع الخلفية

على بعد أربع أميال من وسط المدينة _ميدان التحرير_ فى أحد الشوارع الخلفية للقاهرة ..نرى ذلك المنزل المتهالك المكون من أربع أدوار، فى الدور الثانى من ذلك البيت تعيش أم على، لتصل لأقرب محطة "أتوبيس" يتحتم عليك السير لمدة خمسين دقيقة_على الأقدام_ فى طريق مزدحم بكل شىء، آلاف من البشر وعشرات الأكشاك على جانبى الطريق مما يجعل التقدم خطوة واحدة دون التخبط بأيا منهم _الناس أو الأكشاك_ أمر شبه مستحيل؛ بعد تلك الرحلة تصل إلى شارع رئيسى راق او (حته أفرنجى) كما يطلق عليه أبناء الشوارع الخلفية، الشارع صاخب، مُغبر،يتناثر به: سيارات، حافلات، دراجات ودراجات بخارية، عربات تجرها الحمير وأخرى تجرها الخيول،

وآلاف من المارة يتحركون فى كل الإتجاهات الممكنه فى فوضى شديدة النظام لتوقظ كل حواسك لمتابعة المشهد عن كثب.

فى المشهد ترى: صينيه ضخمة مملؤة بالخبز المرصوص تعلو رأس شاب يقود دراجته بمنتهى التهور ممسكا الصينية بيد واليد الأخرى فى جيب بنطاله! وتسمع أصوات سُباب ، نباح كلاب،قوقئة دجاج يتجمع بأمان شديد فى مجموعات متفرقه على جانبى الطريق، ترى حطام حافلة تترنح فى الشارع بعشوائية عنيفة مع الكثير من المغامرت الخطيرة للركاب الذكور فى محاولة النزول من الحافلة أثناء سيرها. اما سائق الحافلة لا يرفع مرفقه من على آلة التنبه! ضجيج كفيل بخرق طبلة أذنك_ليس فقط ضجيج السيارات_ ولكن تشكيلة عجيبة من مصادر الإزعاج، مكبرات صوت هنا وهناك، صوت موسيقى قادمة من راديو داهل أحد المحلات، أغانى مختلفة من العديد من أجهوة التسجيل، أصوات بشرية ذات طبقة عالية تصرخ، تضحك أو تشتم ! مزيج عجيب من الروائح، تفوح رائحة الخبز الساخن من قليل من المخابز والكثير الكثير من الباعة الجائلين بدرجاتهم، يعرضون خبزهم الجميل (العيش البلدى) مقابل قرش واحد للرغيف !

رائحة الطعام المُبهر قادمة من مطاعم صغيرة متناثرة على جانبى الطريق _الرصيف_ حيث يستمتع الرجال بوجباتهم رغم إمتزاجها برائحة بول الحيوانت الضالة_ كلاب، قطط، خيول وحمير، وأحيانا بعض الأغنام_ ورائحة اللحم النفاذة المنطلقة من محلات جزارة لا تستخدم

الثلاجات لحفظ اللحوم، وكذلك محلات الفواكه.

حين تلتفت لأ إتجاه او مكان ستجد ناس، الكثير من الناس، ناس يسعون هنا وهناك يتلمسون طريقهم وسط كل تلك الفوضى السائدة، الفوضى المتناغمة، المنطقية جدا_من وجهة نظرهم_ ناس من كل الأعمار، الأحجام والأشكال، أغلبيتهم نساء_او هكذا يبدوا_ النساء هنا ممتلئات القوام إالى حدٍ كبير، خطواتهن ثقيلة واثقة، حيت تتأملهم يخترقن الزحام بأجسادهن تلك، ستشعر أن الرجال _ مقارنة بهن_ هم الطرف الأقل شأناً وأكثر ضآلة، بأجسادهم الهزيلة ووجوههم المنهكة، ومشيتهم الغير منتظمة التى تُحبط أى محاولة لمجرد الظهور بمظهر حازم أو مُسيطر.

إذاً ماذا قدمت الثقافة العربية ؟ تلك الثقافة التى تعتبر الرجال هم النخبة المهيمنه والنساء هن الطرف الخاضع المُتَحكم به! فى حال أن الواقع اليومى ماهو الا كفاح مستمر من أجل البقاء على قيد الحياة، ومن أجل رؤية القليل من الإحترام فى أعين الرفقاء، تلك المحاولات التى غالبا ما تبوء بالفشل او بعض الخسائر، كخسارة حبهم لذاتهم وثقتهم بالنفس التى تحلو بها ذات مرة؛ يعلمون جيدا_هؤلاء الرجال_ ما يقوله عنهم النساء.. " الراجل بيسمع كلام مراته" ، "الراجل ماشى ورا مراته" أو " الستات بيحكموا" .. أجل، الرجال يقولون ذلك أيضا .. على رجال أخرون.

(صديقتان، واحدة ترتدى "الملايه" السوداء، والأخرى

ترتدى فستان حريرى طويل "تركواز" اللون، يبتاعون الطماطم فى السوق، لاحظ السيدة فى الفستان الأسود، من الغريب اليوم أن تسمع عن سيدة ترتدى هذا الزى فى مثل هذا المكان، لكن فى السبعينات كان ذلك هو الشائع والمألوف)

يبدو الشارع الرئيسى كمضمار للعرض وركز للتجارة والمعاملات، المحلات مُتراصة كاللألىء فى العُقد على جانبى الرصيف، متكدسة، بعضها كبير، كالصيدليات، لكن أغلبهم صغير كفتحة صغيرة فى الجدار. وعلى طفى الطريق ترى الكثير من عربات الباعة الجائلين تقف مُحملة بالفواكه أو الخضروات، تلك العربات اليدوية لفلاحين طامحين فى جنى القليل من الرزق فى المدينه، يبدأ عمله فى النهار الباكر جداً ويرحل أخر الليل_ الرزق يحب الخفييه_ التجاره هى عرض مستمر،تفاوض وفِصال واستعراض لفنون التمثيل المسرحى، أغلب العُملاء أو المشترين من النساء والأطفال، يبدوا أن الشراء والتبضع هو نصيبهم من تقسيم العمل المنزلى للأُسر المصرية.

تستيع ان تُحدد أهمية المناسبة من طريقة لبس الناس، النساء إما مُتشحات بالسواد فى " الملاية" المُحترمة، أو العباءات الطويلة التى تُغطى الأيدى والأقدام و أحيانا تكشف ما تحتها _لباس داخلى طويل يشبه العباءة أيضا لكن مُلون_ أن تذهب للسوق فى فستان مسائى طويل أو زى الأفراح يبدوا طبيعى الى حدٍ ما هُنا ..أما.ملابس النهار اليومية فغائبة بشكل واضح.

والسبب_ كما يفسر الناس هنا_ أنهم يواجهون بجيش من النُقاد العازمين على إكتشاف أى غلطه ولو بسيطة، "عشان كده لازم نلبس أحسن حاجه عندنا عشان نروح الشارع الرئيسى، كأننا رايحين فرح".

حتى أواخر السبعينات، إرتدى الرجال ملابس غربيه بشكل خاص، بنطال واسع وقميص وجاكت، عدد قليل جدا منهم مازال يرتدى الجلباب الطويل او "الجلابيه" كما يسميها المصريون، ومن ثَم، العديد منهم يرتدى الجلابيه فى المساء أثناء الجلسه الليلية على المقهى بعد ضغط وإرهاق يوم طويل من العمل، لأكن منذ بداية الثمانينات تغير هذا ، العديد من الرجال الأن يرتدون الجلابيه بشكل منتظم، تقريبا واحد من كل ثلاث رجال يرتديها.

٢ هذا يعكس ملابستين_كما فهمت_الزى العربى التقليدى الذى يرتديه بفخر شديد أسياد العالم العربى الجُدد، السعودية والخليج العربى، الذين يغزون القاهرة بطريقة موسمية_الصيف خاصةً_ هربًامن الحرارة الشديدة فى بلادهم، ولكى يستمتعوا بأشكال الترفيه المختلفه الغير مُتاحة فى بلادهم؛ أو نظراً للإنتماء لأصولهم القروية، ومع ذلك لا تجد الكثير منهم ملتزم بذلك الا فى الطبقات الدُنيا، ويبدوا ذلك جلياً فى طريق لبس الجنسين.

على مر السنين _منذ الستينات_ إعتاد البنات لبس الألوان الزاهية وأحدث الصيحات الغربية، الأثواب القصيرة جدا، والمتوسطة أو الطويلة، لكن على بدايات الثمانينات، تغير إسلوب اللبس بطريقة ملحوظة وذلك

كنوع من أنواع التحفُظ الزائد لأسباب دينية، بدأت القصات تبدوا أكثر بساطة وحشمة، الألوان أكثر قتامة، البناطيل الضيقة إختفت تماما كما إختفت الجونلات الضيقة، الأن الجونلات طويلة جدا،والبلوزات ذات أكمام واسعة وطويلة، وعادة ما يكُن مختفيات تحت لباس إسلامى طويل حتى الكعبين مُنتشر بشكل كبير بين الناس، ترتديه الإناث من كل الأعمار _عدا الأطفال_ أما الألوان التى كان يعتبرها المصريون قاتمة وجافة أصبحت هى السائدهن لم أكن أتوقع أن ارى فساتين وألبسه بألوان كهذه، ولم أكن أتخيل ان يعتبرها المصريين ألوان حديثة وأنيقة .. الأزرق القاتم، الرمادى، البمبى الشاحب و البيج على سبيل المثال. الرجال هنا مهتمين بالأناقة وبصيحات الأزياء،ولكن فى أوساطهم لا تغيير جذرى حقيقى فى طريقة اللبس أو نوعية الأزياء، لا زالوا يفضلون السراويل الضيقة، الأحذية البَراقه ، والقمصان الزاهية، وتسريحات الشعر عادة ما تكون منتظمة ومائلة لجنبٍ ما.

الأحذية تحديداً لها أهمية كبيرة بالنسبة للجنسين، الناس تشكو أن كل ما يفعله أى شخص_أخر_ أثناء الإنتظار فى محطة الأوتوبيس على سبيل المثال، هو فحص ومراقبة أحذية الأخرون!! الأطفال الصغار، بالرغم من ذلك، يركضون هنا وهناك مُرتدين "بيجامات" وصنادل بلاستيكية في أحسن الأحوال، هذا إن إرتدوا شيء فى أقدامهم أصلاً!

الحى العصرى

"حتة أفرنجى" هو اللقب الشائع إستخدامه بين أبناء

الحى لوصف الشارع الرئيسى، وبهذا يعزون فخامة قديمة وبقايا أناقة حالية: واجهات المبانى الفخمة والجميلة، عرَض الشارع وإتساعة وإستوائه، والطبيعة المهذبة لقاطنيه ." محدش بيقف ع الباب يبحلق فى اللى داخل واللى خارج، أو يبص الراجل جايب ايه لولاده ع العشاء، ولا حد بيبص من الشباك ويزعق لحد،ولا الناس بتشتم بعض فى الشارع.. كل واحد قاعد فى حالُه." هكذ يجب أن تكون الأمور_ هذا مضمون كلامهم عن الحى الراقى_ شكل الحياة يختلف بإختلاف البيئة المُحيطة، فمن يعيشون فى حى راقى، لا بد أن يتصرفوا تصرفات تليق بذلك الحى والجيره.والعكس صحيح.

بإستخدام أى معايير أخرى، ستجد صعوبه فى تصنيف الحى الحديث كحى راق، والسكان القاهريين الأعلى فى المستوى المعيشى بلا شكّ سيسخرون من إطلاق كلمة " أفرنجى" على مثل ذلك الحى، فالمنازل ربما تكون كبيرة فعلاً، لكنها مُكتَظة، الدهنات مُتقشرة، الستائر مُتهالكه،والقذارة تملأ المكان؛ الشارع ربما يكون واسع جداً، لكن كَم المُهملات والقاذورات به وفير! ربما تحكم على الماره بأنهم راقيين_ إستناداً على طريقة لبسهم وإسلوبهم_ لكن ببساطة سكان " الحى الراق" _الأفرنجى بالنسبة لسكان الشارع الخلفى ما هو إلا "حى بسيط" بالنسبة لسكان المناطق الثرية الأُخرى

طريق ضيق على جانبى الحارة للمشاة، لكن غالبا ما يعوقه بعض العربات اليدوية "الكارو" او ما شابه. من

الأفضل لك أن تكتم انفاسك أثناء المرور فى محاولة لمنع ما ينبعث من البالوعات المفتوحة من الوصول لأنفك، وأن تسير بطريقة "الزيج –زاج" –فى طريق غير مستقيم– فى منتصف الشارع لتتجنب ما يمكن ان تقابله من تلال قمامة أو عربات الكارو.

بعد حوالى ٥٠ متر يمكنك أن تنعطف يميناً مرة أخرى، لتدخل فى ممر طويل مستقيم أخر، لكنه أضيق كثيراً، عرضه يترواح بين مترين إلى أربعة أمتار على الأكثر، مزيج من أغرب وأسواء الروائح يلفح وجهك لحظة دخولك ،روائح عَطَن وعفن ما لشيء مجهول، الزقاق مُظلم، على عكس الذى غادرته قبيل لحظات، فالشمس نادراً ما تصل للأرضيه هنا، الحارة تبدوا كبقعة صغيرة لايصل النور فيها سوى لثلاث أو أربع مبانى على الأكثر، لأسطحهم فقط . كل المبانى من الطوب الأحمر، فى الواقع معظمهم كان مدهون فى الأصل ولكن بفعل عوامل الزمن والتلوث الشديد تم تقشيرها، هناك دائما "شيش" على كل نافذة ليمنع الهواء المُشبع بفضول الجيران من الوصول إليهم.

تقف–كشخص بالغ– بحذر شديد لمحاولة تجنب الرائحة المنبعثة من أكوام القمامة المنتشرة فى الشارع، بينما تجد الأطفال تلهو وتلعب وسط كل ذلك الكَم من التلوث والرائحة غير عابئين !

فى المدخل الثالث على يسارك، عليك الدخول فى الممر–المُظلم – منحنيا حتى لا يصتدم رأسك بأطراف الأبواب المتهتكة، وعليك أن تمشى عل الكثير من الوحل وتصعد على ما يشبه السلالم ذات الرائحة النفاذة–رائحة

بول بعض الكلاب و أيضا ما ينبعث من المراحيض العامة _للأدميين_ أو هكذا حولونه، الظُلمة هنا شديدة للدرجة التى تجعلك تتحسس طريقك للسلالم إذا وصلت فى المساء حتى تصل للدور الثانى، لتجد بابين، احدهما يميناً والأخر يساراً

هنا عليك الطرق بعنف على الباب على اليسار لتتمكن من التغلب على الصخب القادم من الشقة _أصوات التلفاز المُزعجة بجانب أصوات بشرية تتحدث وتتناقش بصوت مُرتفع_ وأخيرا تسمع صوت المقبض يتحرك لتجد طفلا يفتح لك الباب.. هنا تكون وصلت!

****
****
**********4

إمرأة وزوجها

أم على

هذا منزل أم على وزوجها "مصطفى" و خمسة من الأبناء تزوج أعمارهم (عام ١٩٨٢) بين السابعة والعشرون والعاشرة ، تعيش العائله هنا منذ ثمانى وعشرون عاماً فى أول مرة أتيت لزيارتهم،عام ١٩٦٩كان هناك إثنين أخريين من الأبناء، الأكبر تزوج وإنتقل للعيش ببيت أخر هو وزوجته، والتالى له توفى، أما "نوسه" الإبنة الصُغرى فلم تكن ولِدت بعد.

هى إمرة أخَاذه، طويلة، هادئة، وجميلة، ربما لا تكون جميلة بالمعنى الحرفى للكلمة، لكن دفئها الأنثوى وجاذبيتها يجعلك وصفها بالجميلة مناسب جداً، بُنائها قوى، تزن جوالى ١٠٠ كيلو جرام، بالرغم من ذلك شكوتها الوحيدة

والدائمة هى أنها فقدت الكثير من الوزن مؤخراً

"كان لازم تشوفينى وأنا مليانه وحلوة" هكذا قالت لى! ، وسحبت ألبوم صور باهت ومتمزق بفعل الزمن وكثرة الإطلاع عليه، لترينى بعض من صورها وهى فى مرحلة ما قبل العشرين، القاعدة الرئيسية للجمال عند المصريين "الأسمن أحلى"، وجهها كُمثرى الشكل، ولون بشرتها فاتح جداً، هى حقاً "بيييضاااا"_بيضاء البشرة_ هكذا ينطقونها ب تشديد ومَد للحروف كنوع من انواع المَدح،(ثقافة الناس هنا تجعل من كل إمرأة بيضاء "جميلة"، وكل إمرأة سوداء "قبيحة" بغض النظر عن ملامحهن أو تقاسيم وجههم، تماما كقاعدة الأسمن احلى،متجاهلين جمال الكسم أو أى تفاصيل اُخرى، هى ثقافة متفرده إلى حدٍ ما ،فلم أرى فى حياتى كتلك الثقافة إلآ فى الشرقيين).

أم على تتميز بجبهه عالية، وحواجب رفيعة ومستديرة بشكل طبيعى، شعرها مموج ومازال يحتفظ بسوادة الشديد ولم يغزُه الشيب، وممشط بإحكام تحت وشاح رأسها التى تضعة دائماً بربطة قوية بداية من منتصف جبهتها،أنفها طويل وحاد، وشفاهها جميلة ومرسومة ، تُغطى لثة خالية من الأسنان تقريبا، سرعان ما ترى ذلك بشكل ملحوظ فى كل إنفراجة لثغرها وهى تبتسم، تتحدث، أو تضحك_وهذا تقريبا ما تفعله طوال الوقت_ ، أم على تعشق الكلام، فالكلام يصنع الحكمة ويجعل الناس أقرب لبعض_ هكذا قالت أم على فى جدال عائلى بينها وبين مصطفى، ذو الطبيعة المُختلفة تماما عنها و صاحب وجهة النظر البعيدة تمام البعد عن وجهة نظر روجته عن الكلام والإختلاط

بالناس.

أجمل ما يميز أم على عيناها، عيون مُشرقة، تومض وتضحك وتلمع بالدِفء والحكمة، عيون يمكن أن تُعتم من الحزن والألم ، أو تضيق وقت الغضب، ومع ذلك أبداً لا تفقد لمحة المرح وحُب الحياة، عيون بَراقة محاطة بتجاعيد بسيطة مُحببة من أثر الإبتسام.

تبلغ من العمر الأن سبعة وأربعون عاماً، فى الواقع هى لا تهتم بالتواريخ أو تحفظها، لكن إبنتها "هدى" أكدت لى ان أمها ولِدت فى الرابع والعشرون من شهر ديسمبر عام ١٩٣٤ . لا زالت بشرتها تتمتع بالشباب والنعومة، وشعرها يحتفظ بسوادة وجمالة رغم وهنه، العلامة الوحيدة على تقدم عمرها هو جسمها، بالرغم من أن ظهرها لا زال يستقيم ويشتد، إلا أنها تبذل مجهود كبير للحركة او للمشى، خطواتها ثقيلة، دائما تشعر بالتعب، منذ أن فاجئها مرض السكرى بعدما أشعل إبنها أمين النار فى نفسه ومات عام ١٩٧٢

هى مُقتنعة تماماً أن صدمتها فى موت ولدها هى التى سببت لها المرض، تقضى معظم وقتها فى السرير، مُتعبة طوال النهار، وغير مرتاحة ولا نائمة طوال الليل، تلك حالتها منذ وفاة إبنها، الألم والحسرة على وشك الفَتك بها.

عبر السنين، فقدت أسنان أكثر_ بالإضافة إلى سنتين كسرهم مصطفى_ "الحسرة والزعل نحتوا فى جِتت، سنانى مقعدوش مكانهم" _هكذا فسرت_ ورغم كل ذلك لا زال إحساسى يتزايد بأن أم على تكبر لتبدوا أصغر فأصغر! بلاشك هذا الإنطباع سببه جُزيئاً نُضجى وتقدمى

فى العمر أيضاً، لذلك إحساسى بالعمر والزمن نفسه إختلف، تقابلنا وانا فى الرابعة والعشرون من عمرى، وهى كانت فى الرابعة والثلاثين، كانت أم لستة أطفال، لذلك بدا فرق العُمر بيننا أكثر كثيراً مما يبدوا الأن، فانا الأن مُتزوجة وأم أيضاً، حين راجعت مُذكراتى وجدتنى مُدونة انه فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٩ حين التقيتها للمرة الأولى ظننت انها تقارب الستين عاماً!! بثِقلها وحضورها المادى والروحى، سجلت إنطباع خادع بالنُضج والكِبر، وشعور ما بأن تلك المرأة عاشت الكثير، ومع ذلك أعتقد أن شعورى لم يكن خطأ تماماً.

ففى الرابعة والثلاثون، أم على كانت مُتزوجة منذ تسعة عشر عاما! تحملت المسؤلية منذ أن طفولتها، فى بيت أمها، كان على "زينب"_ إسم أم على قبل ان تنجب اول طفل له وتحمل إسمه_ أن تتحمل الكثير من الواجبات والمسؤليات والقليل من الإستمتاع بالحياة او اللعب واللهو مثل كل من فى عُمرها، وفى بيتها، تتحمل مسؤلية ثمانى أطفال _وزوج _على عاتِقها! وكما قالت " أنا .. من غير ولا مليم المفروض أعَيش عيله بحالها! "، "بعد تلاتين سنة جواز، حاسة إنى لسه بنت مش زوجة لراجل" .

الأقدار وظروف الحياة تختلف تماما بينى وبين أم على، بالتالى فأعمارنا الشخصية لا يمكن المقارنة بينهم، ومع ذلك لا زالت لا أفهم كيف لى تقدير عُمرها يوم ما بستين عام! فهى لا تزال تحتفظ بريعانها، وجسمها وصحة عقلها يبدوان أصغر كثيراً من نساء أخريات فى نفس عُمرها فى مُجتمع مثل مُجتمعى. السبب فى بادىء الأمر يكمُن فى

الإختلاف الشديد فى طريقة التعامل مع العمر بين مجتمعى ومجتمع أم على، فنساء الطبقات الدُنيا من المجتمع المصرى يُقدرن الكبر فى العمر بما يعنيه من حِكمه وإجلال، و التخلص النسبى من بعض المسؤليات ، لا أحد يرغب فى التقدم فى العمر بالطبع، لكن لامَناص، تذدهر أم على مع كل طفل تربيه ليصبح شخص بالغ، لو لم تكن صحتها تذهب هكذا سريعا لكانت ام على تستمتع الأن بأزهى سنوات عُمرها.

من المُدهش صمود أم على هكذا أمام عشر سنوات من السُكرى ، رغم عدم إمتلاكها للمال أو الجهد الكافيين للعلاج المثالى، فلا هى تستطيع تحمل نفقات العلاج المُنتظمة أو الأغذية الغنية بالبروتين كما وصف لها الطبيب، ولا إمتنعت عن شُرب الشاى المُحلى بالسكر، صحيح سكر أقل كثيرً، لكن حوالى عشر مرات فى اليوم الواحد! وتستمر حياتها لو لم تكن فى احسن صحة فهى على الأقل فى حالة جيدة بشكل مُذهل.

مصطفى

زوج أم على والنقيض التام لها فى كل شىء، الجسم والروح، هو قصير وغامق البشرة، غامق لدرجة أن الناس تصفة ب"أسود" ليس "أسمر" والحقيقة أنا مللت من إلتقاط الصور له، معظم سكان الحى هنا يعشقون التصوير، أحيانا يستجدونك لأخذ صورة لهم، لكن مصطفى دائماً لا تعجبه النتائج، دائما يشكو أن "الكاميرا" تظهرة أغمق مما هو عليه، وفى مصر عادة الحكم يكون بشكل مطلق بأن "الأبيض أحلى، الأسمر

أقبح!" مصطفى،المسكين، يعرف تماماً عاهته. أخبرتنى أم مصطفى انه طالما إتهمها _حين يتشاجران_ أنها تستهن به لأنه أسود! من وجهة نظرة، هذه هى بذرة كل متاعبهم؛ بالمرة! هكذا ترد أم على " أنا مبتضايقش منك إنت، أنا بتضايق من تصرفاتك" ، والحقيقة، أنا أُصدقها، لا شيء على الإطلاق يشير إلى إحتقار أم على لمصطفى بسبب ملامحه الزنجية(البشرة السوداء، الشفاه الغليظة، الأنف المُفلطح، والشعر المُجَعد) لكن تلك القناعة راسخة تماما فى عقل مصطفى حتى إنها تكاد تُشكل له عقدة نقص،

أم على نفسها أقرت بذلك دون قصد حين أخبرتنى عن تجربة تؤكد مخاوف مصطفى، فهو فى الأصل كان يرغب الزواج بأختها "فريدة" لكنها رفضته بسبب لون بشرته!

على النقيض من زوجته، مصطفى مُنطَوى وخجول جداً فى تعامله مع الناس، حتى أنه لا يستطيع تناول الطعام مع الناس، ينتظر حتى يفرغ الضيوف من طعامهم ثم يبدأ هو بالأكل مفرداً، فى سلوك غريب وغير مسموع عنه فى المجتمع المصرى، حيث مشاركة الطعام جوهر الضيافة والمرح والمودة، أى شخص غير مصطفى يخشى فعل ذلك وإلا أتهم بالتعالى والعجرفة، لكن مصطفى يبدوا بائس وعاجز عن التعامل مع من يزوره فى المنزل "(كيف يتصرف بالخارج، إذا كان هكذا فى دائرته الخاصة، حقاً لا أستطيع التخيل) هو حقاً معذور، فكم من مرات أجده متململ وقلق فى حضور ضيوف أم على _التى تجبره عليهم_ محاولاً إظهار الود أو التحريب ولا أستطيع مساعدته إلا عن طريق

إشراكُه فى أحاديث مع ضيوفة.

أم على أيضا تشعر بالشفقة عليه " مسكين مُصطفى، متعلمش إزاى يتعامل مع الناس عشان عمره ما كان ليه أم" ، توفى والده حين كان مصطفى رضيع، وسرعان ما تزوجت امه ، وكما هى العادة رفض زوج امه التكفل بتربية طفل لرجل أخر، لذلك أُعطِىَ مصطفى لعمه وزوجته ليقوما بتربيته، أسوأ" سيناريو "أو مصير فى مُخيلة المصريين أن يكون للمرء زوجة أم ، أو أن يربيه أحد أقاربه من جهة والده، عُومِلَ مصطفى أسوأ معاملة،سواء بالضرب والإهانة أو بالتجاهل التام " إلا لو الموضوع فيه فلوس" اضافت أم على بسخرية، "مرات عمه كانت كل ليلة بتفتش فى جيوبه و تأخد كل اللى فيها، حتى يا عينى لو كانوا ملاليم " .

عَمل مصطفى "صبى" ميكانيكى فى ورشة عمه، "الصنايعى" المُخضرم، وأكبر دليل على ذلك أن رجل الأعمال الشهير" عثمان أحمد عثمان" وأحد أهم المقاولون فى مصر تدرب على يد ذلك الرجل فشق طريقه من الفقر إلى أن وصل لما هو عليه، مصطفى أيضاً أصبح متمرس فى المهنة ولا شك ، بعد زواجة بسنتين، ورث مصطفى مبلغ من المال بعد وفاة عمته التى لم تثنجب، فإتجه مصطفى لتأسيس عمل خاص به، لذلك مصطفى "صاحب ورشة" ، من المفروض أن ذلك المقام يجلب له الكثير من المال والوجاهة الإجتماعية أيضاً

لكن مصطفى يفتقر البراعة الكافية لإدارة العمل والتعامل مع الناس لهذا فهو لا يملك المال أو المنزلة

الإجتماعية الجيده! أم على تعتقد أن عدد لا نهائى من الغرباء يستغل مصطفى و"يضحك عليه" ، مصطفى ، كرجل مسالم وبسيط، لا يجد نفسه فى التعامل مع العالم المادى الخارجى لا يعبأ بأمر الورشة، أما أم على فالورشة بالنسبة لها هى مصدر حقيقى للقلق والغرامات، إستنزاف للمال والجهد أكثر من إنها مصدر للرزق، "أيام الإنجليز ما كانوا فى مصر كانت أحسن " ليس رأى مصطفى فقط، لكن رأى الكثير والكثير ممن لهم ذكريات شخصية جيدة مُرتبطة بهذا الزمن، مصطفى كان يعمل موظفاً بالحكومة أيام الإحتلاالا البريطانى ويرى أنها كانت أيام أفضل كثيرا، "كان فيه نظام فى البلد، باظت بعد ما مشيوا" يفخر مصطفى بعلاقته بالإنجليز، كان يعمل مراقب بالبريد، لكن بعدما تسلمت الحكومة المصرية الإدارة ساد الفساد والإهمال وطال كل المنشأات.. للأسف.

عندما يخرج مصطفى للشارع يرتدى ملابس غربية _بنطال واسع وقميص أو جاكيت_ وفى المنزل يرتدى بيجامات مخططة و قلنسوة سودانية الطراز على رأسه، على عكس معظم الرجال، مصطفى لا يرتدى الجلابيه مطلقاً. مصطفى شخص غير طموح بالمرة و لا يتمتع بذرة من الخيلاء أو الإعجاب بالنفس، فى المرات القليلة التى يوافق مصطفى على إلتقاط صوره له، تحاول ام على هندمته و ظبط "ياقة" البيجامة.. فييمنعها قائلاً " سيبينى كده زى مانا، بلدى كده" كلمة "بلدى" هنا تستخدم للتحقير والإنتقاص من شىء، لا أحد يرغب فى وصف نفسه بها أو يسمح لأحد بفعل ذلك! المعنى الحقيقى للكملة غير

سيء، فهو يعنى أن الشخص من أبناء البلد أو شخص فِطرى وطبيعى، لكنهم يستخدمونها بمعنى شخص رجعى وفظ وغير مُتحضر، مصطفى يصف نفسه ب" بلدى" ليبعد نفسه تمام عن طموحات و تطلعات أم على وأبناءها، فهو يرضى بنصيبه من الدنيا ولا يحاول الصعود أو التطور.

يعامل الأبناء مصطفى على إنه دخيل أو غير مُنتمى للأسرة، بعضهم يقول بمزيج من الفخر والندم" إحنا مبنقولوش حاجه خالص" كعادة معظم الأسر المصرية تُشكل الأم جبهة هى وأبنائها منفصلة عن الأب، لا ما نع من بعض الأكاذيب البيضاء لإخفاء غلطة من غلطات أحد الأبناء، الأم هى دائماً كاتمة الأسرار والأب لا يعلم شيء!

من المُرجح أن مصطفى يعلم ذلك ويستاء، لكن العجيب هى علاقته مع أصغر فرد فى الأسرة، إبنته نوسه، أول ما يفعله عندما يأتى إلى البيت فى الليل هو أن يذهب ليطمئن عليها، هل نامت أم لا، إذا وجدها فى السرير يغرقها بالقُبل و يلف الغطاء جيداً حولها، وحين تكون مستيقظة يلاعبها ويحضنها_ هل رقَ مصطفى بالكِبر، لماذا يظهر عاطفته وإحتياجه للحنان وقدرته على تقديم الحب والعطاء؟ فى حال أنه فشل فى ذلك مع زوجته! فكما قالت أم على " إحنا الإتنين بقى كل واحد فى طريق، وعمرنا ما هنتقابل ".

الأطفال

حق شرعى

تسعة أطفال نتاج أبسط أشكال الإتصال البدنى، "

مينفعش ترفضى، ده حقى الشرعى"، يصرخ مصطفى قائلا تلك الجملة لأم على فى كل مرة تحاول رفض المعاشرة، وتبوء محاولتها بالفشل، كرجل فى مجتمع شرقى مُسلم، من حق مصطفى طلب زوجته للتواصل الزوجى فى اى وقت ، وعليها الإمتثال بدون نقاش، القُبلات والمداعبات اللطيفة قبيل الغرام لا يعُترف بها فى مجتمع مثل ذلك، أو على الأقل فى الأوساط الفقيرة، فبالنسبة لهم من الصعب،بل المستحيل، التمهيد للقاء حميم مُنتظر ان يقوم فى غرفة يشاركهم بها الأبناء وأحيانا نفس السرير! النساء المستعرات يخشين ملاحظة الأبناء لهم ويشكون من لا مبالاة الرجال، وحكت أم على عن مرة من المرات التى لم يتحل مصطفى بالصبر فيها، وغير مُبالى بأنور وعفاف المستلقيان بجانبهم فى نفس السرير، لاحظ مصطفى يقظتهم فأمرهم بالنوم! مما صَعب المهمة أكثر، كلما نهر الأطفال أمراً إياهم بالنوم كلما طار النُعاس منهم، وحينما حل منتصف الليل أراد مصطفى إجبار زوجته على النوم معه رغم وجود الأطفال! فتخلصت أم على من قبضته وهربت للصاله لتجلس حيث لا يستطيع فعل أى شىء معها هناك ! فالجنس مرتبط بالسرير !!

على مدى السنوات القليلة الماضية، الكثير من السيدات الصغيرات المتزوجات من رجال يسافرون للعمل بالخارج، بدأن يشتكين من طلبات أزواجهم الغير مألوفة ، كأن يطلب الزوج من زوجته أن تخلع ملابسها كاملة أثناء العلاقة، النساء يرفضن ذلك بإعتبار انه نوع من أنواع قلة الحياء والخروج عن حدود الأدب واللياقة! وفوق هذا،

عريهن يثير الرجال أكثر، مما يؤدى إلى طول مدة العلاقة وهذا ما لا تريده النساء، فهن يرغبن فى إتمام العلاقة فى أسرع وقت ممكن حتى لا يبتنبه الأبناء.

تحت هذه الظروف تصبح العلاقة الحميمة شيء مُزعج بالنسبة للنساء، مهما كُنَ متعبات أو تعيسات أو صدقاً مريضات لا يستطعن رفض أزواجهن، حتى لو لم ينفك هؤلاء الأزواج ضرب زوجاتهم وإهانتهن. أم على والكثير من نساء ها المجتمع عانين مما نستطيع تسميته (إغتصاب) من قِبل الزوج، لكن هن لا يرونه بهذا الشكل، ليست هذة طريقة التفكير السائدة، قد يكون حكم النساء على أزواجهن قاسى جداً، فهؤلاء الرجال فقط غير مُدركين ان العلاقة الجنسية كى تتم بنجاح_بالنسبة للمرأة_ تحتاج قدر من الموده والحنان، ويرى معظمهم أنه من العادى ضرب الزوجة فى لحظة وطلبها فى السرير الحظة التالية! النساء يشتكين أيضا من طريقة تعبير إعلان الرجل رغبته فى زوجته، فهو إما يجذبها من ذراعها للسرير أو يركلها ! وتكره الزوجات أيضا تهديدات الزوج بمنع المصروف أو الأكل عنها إن لم تمتثل لرغباته! أعرف نساء_ ليس فقط أم على_ يشتكين من شعورهن بكونهم عشيقات من الدرجة الثالثة وليست زوجات، فكل ما يريده الزوج من إمرأته هو الجنس. ومع ذلك هن مقتنعات بحق الزوج فى معاشرة زوجته ونادراً ما يقاومنَ، فعلتها أم على مرة وحيدة ورفضت طلب زوجها، وكانت النتيجة هى الضرب المبرح وتمزيق ملابسها_ بمعنى أخر إغتصاب_ و المثير للشفقة والسخرية، أن أم على نفسها نهرت صديقتها حين إشتكاها

زوجها لأم على قائلاً انها ترفض معاشرته و عنفتها قائلة: "إنتى لازم تنامى معاه، لازم تديله حقه، ده حقه ومكتوب فى القرآن." ! تشديد الإسلام على رغبات الرجل الجنيسة وحقوقه فى إشباع تلك الرغبات لا يحول بين الإقرار بإحتياجات المرأة للجنس، على عكس المسيحية ، فالإسلام صريح فى إقرار الجنس كحق طبيعى للجنسين ولا يجد غضاضة فى التصريح بأحقية الجنسين فى الإشباع الحسى، إمعاناً فى تقدير تلك الغريزة ، نجد أن الإسلام أباح للمرأة حق طلب الطلاق من الزوج إن عجز عن إرضاء حاجاتها الجنسية أو أهملها، وإلا شاعت الفوضى واليأس فى المجتمع ، لكن النساء فى هذا المجتمع أبعد ما يكون عن خلق إذا إستمتعوا بالسلام الجنسى،فهن مختتنات، ويرين التجربة الجنسيه ما هى إلا وسيلة لتخفيف بعض العبء، ولكن لا يسعين للمتعه العظيمة، فظروف المعيشه الصعبه، كالحى المتكدس بالسكان، الإحتياج المادى، النزاعات الزوجيه، الإجهاد والكدح، الحمل المتكرر وكل تلك الظروف أكثر فاعلية كوسيلة للكبت الجنسى من الختان.

بالرغم من معرفتى الحميمه بنساء الحى، لم أسمع عن حالة خيانه وحيده بينهم، حتى "كلام الناس" وجلسات النميمة التى تذكر كل مساوىء وأخطاء الجيران _الحقيقى منها والملفق_ لم يحدث أن إنتشر خبر عن خيانة إمرأة لزوجها من قبل، حتى سيناروي تعلق إمرأة برجل أو إنجذابها جنسياً له لا يحدث فى الواقع، النساء هنا يُشبعن رغاتهم العاطفيه بطرق أخرى بعديده عن الجنس،كإرتباطهم العميق بأطفالهم وإنشغالهن بهم ،أو

الإنخراط فى تكوين الصداقات والعلاقات الإجتماعيه كوسيله لتبادل الحب والمودة ، اما الجنس فهو أقل الغرائز قيمة بالنسبه لهن أو يكاد يكون معدوم القيمة فى كثير من الأحيان.

ماذا يمكن أن يقدم العشيق؟ المتعة العابرة فى مقابل الإحساس الأبدى بالعار والندم ! بالإضافة إلى النساء فى أعماق قلوبهن عادة ما يكُن وفيات للزوج، متلهفات لتبادل الحب مع الرجل الأوحد فى حياتهن،الزوج، وحتى فى الأحيان التى يعبرن فيها عن عكس ذلك، بالقول أو الفعل، فالسبب هو إنشغالهم بالهدف الأول فى حياتهم وهو تأمين مستقبل جيد للأبناء، وإعتقادهن ان الإنصياع لأوامر الزوج والخضوع له يعطلهن عن أداء تلك المهمة ، ولكن فى النهاية فحدودهن معرفة، الإخلاص والوفاء للزوج أمر محسوم بشكل غير قابل للنقاش.

وسائل منع الحمل بين النجاح والفشل

تسع مرات حمل! أول سبع منهم كانوا عن قصد وتمنى، بينما اخر إثنين كانوا عن طريق الخطأ، حوادث، والحمد لله وُلد الأخير ميتاً، الفكرة فى حد ذاتها كانت كفيلة بإرعاب أم على، طفل مُصاب بداء السكرى_مثل أمه_ عليها ان تتحمل كل متعاب وتكاليف علاجه، فى حال انها لا تستطيع علاج نفسها، مع طفل مصاب بالسكرى سيتحول تركيزها وإهتمامها كله إليه وتضطر إهمال نفسها وصحتها، مع العلم أنها تتقدم فى العمر ولم يعد فى الإمكان إعادة الكرة وتربية طفل من جديد، لهذا تحمد الله أنه وُلدَ ميتا، "ياريتك شوفتيه، الواد كان ضخم، راسه كبيره

أوى، خرجوه منى بالعافيه، عشان عنده السُكر، الدكتور قال إنه مات فى بطنى قبل معاد الولاده ب ١٤ يوم بس، الحمد لله إنه مات." ثمانى ولادات لأطفال أحياء_إثنان منهم ماتوا لاحقاً_ قدر الكثير من النساء فى جيل أم على، ستة من الأبناء يشكلون سِرب مناسب جداً، لكن القليل من الجهد والكثير من الحظ أدوا لحمل أم على مرتين عن طريق الخطأ، لتحديد عدد أفراد الأسرة جربت أم على وزوجها أكثر من طريقة:كقطع العلاقة قبل القذف،أو حشو الكثير من الأعشاب بداخلها لمنع وصول ماءه للرحم_ طريقة شعبيه متعارف عليها فى وسطهم _ علاوة على ذلك ام على أرضعت كل أطفالها حتى أتموا العامين، وأخر طفلين حتى أربع أعوام ! حقيقى أن الرضاعة لا تحول بين إقامة علاقة حميمة ولكن على الأقل تقلل فرص حدوثها، لا تتعاطى أم على حبوب المنع، فهى تسبب الغثيان والتعب، لم تجربها أم على من قبل ولكنها علمت من بعض صديقاتها! بسهولة تستطيع الحصول على الحبوب مقابل ثمن زهيد من عيادة تنظيم الأسرة فى الجوار، لكن معرفة تلك الحبوب وكيفية إستخدامها فقيرة إلى أبعد الحدود ، لذلك تسببت فى الكثير من المتاعب لكل من إستخدمتها. اللولب، وهو ما تستطيع تركيبه مجانا أيضا فى عيادات تنظيم الأسرة، رفضته أيضاً_ مثلها مثل الكثيرات_ لأن الشائع بينهن أنه يسبب النزيف للمرأة ويدمر عضو الرجل ! لكن بعد حملها الأخير وتعرضها للموت أثناء الولادة قررت عدم إستخدام أى وسيلة للمنع "حرام، ربنا ميرداش بكده، ده إعتراض"، مصطفى أصبح يتقبل رفضها

بشكل أكبر، هو نفسه يشعر بالذنب تجاهها، كاد الحمل الأخير أن يودى بحياتها، من سيهتم باليت والأولاد بعدها، لذاّ إرتضى مصطفى بلقاء شهرى_ منقطع_ واحد.

حين ياتيها المخاض، يترك مصطفى البيت، كل ولاداتها_عدا الأخيره_ كانت فى البيت على يد القابله، لكن كم تمنت أم على ألا يتركها زوجها فى تلك اللحظات، فقربه سيشعرها بالمسانده، لكن مصطفى رجل مسكين، حساس بطريقة مُفرطة، فهو لا يستطيع تحمُل صراخ وإستغاثات إمرأة تواجه آلام المخاض، بل لا يستطيع تحمل سماع صوت حمامه تتألم فى الغرفة المجاورة، وفى ليلة أيقظ أم على صارخاً " إعملى حاجه، إعمليلها حاجه" لأن حمامه كانت تحتضر، وعندما أشعل إبنهم "أمين" النار فى نفسه كانت أم على من تطفىء النار، أما مصطفى فوقف مذهول بلا حِراك.

حُب أُمومى

." ثمانى ولادات لأطفال أحياء_إثنان منهم ماتوا لاحقاً_ قدر الكثير من النساء فى جيل أم على، ولكن هذا لا يعنى إستسلام المرأه، و تقبلها لفقدان طفلها بسماحه وبساطة، فلا أقسى على إمرأة من فقدان ولدها، ولا شىء يكسر أم أكثر من موت إبن رحِمها. حين فقدت أم على إبنتها "علياء" فى عمر الرابعه عام ١٩٦٤،فقدت أم على النُطق لمدة أربع شهور، وعجزت عن أداء أبسط الأعمال، حينها تكفلت أختها برعاية أبناءها والبيت، وبعد رحيل أمين، ظلت ام على بلا نُطق ولا حِراك لمدة سبعة أشهر، وتطلب شفاءها عدة سنوات لتعود طبيعية تماماً_إن إعتبرناها

فعلت_ ما يربط الأم بوليدها رباط إستثنائى، و فجيعة أم مات إبنها لا تُوصف، والدة أم على أصيبت بشلل لمدة سبع أعوام بعد فقدانها احد أبناءها السته إثر تعرضه لحادث.

الأطفال هم محور حياة الأمهات فى العديد من المجتمعات، لكن هنا أكثر _بالطبع_ من اى مكان فى العالم، ومن النادر هنا ان تجد أم تربى أحد أبناء أختها عل سبيل المثال ويسمحون للناس بمنادتها بإسمه، توحد الأم مع إبنها فى مصر يتمثل فى كثير من الأشكال، أهمهم هو أن أى سيدة هنا تأخذ إسم اول وليد لها بديلا عن إسمها لتُصبح " أم فُلان" أياً كان الوليد بنت أو صبى.

*التبنى فى الإسلام حرام

فقط أبواها، وأخواتها الأكبر سنا من يسمح لهم بمنادتها بإسمها الأصلى، الرجال أيضا يطلق عليهم "أبو ..." لكن ليس كالنساء، فالنسوة عادة لا تُعرف أسماءهن الحقيقية بعد أول مولود، أما الرجال فيحتفظون بأسماءهم الأصليه بجانب لقب "أبو... " والنساء هنا عادة تنادى الزوج بإسمه الأول، فى حين أنه فى الغالب يناديها ب "أم...." .

ليس فقط لأن النساء يُدركن أنفسهن بعناق أطفالهم، لكن لأن الأطفال حقاً محبوبون فى هذا المجتمع،ليس فقط مرغوب فيهم كمصدر للأمان والسند للوالدين عند الكِبر، ولكن محبوبون لذاتهم، لأنهم هم ... عنصر مُكمل لحياة الأمهات، وكأنهم يحيين فقط لأجل أبناءهن، لا أحد يستطيع أن يحب طفل كأمه، ولا أم تحُب أى طفل أكثر_أو مثل_ وليدها، فى اى مقارنة تُعقد بين طفلين،تكون الأم

دائماً فى صف إبنها، وأهم مصدر من مصادر العداوة بين النسوة تلك الخلافات بين أطفالهن.

الأم هى بمثابة مفصل الحياة الرئيسى، وأهم عامل مُشكل لشخصية الأفراد، فمثلاً تعاطف أم على البالغ مع مصطفى ، هى تجده جدير بالشفقه لحرمانه من الأم، خصوصا فى مرحلة الطفوله، أى طفل يحتاج لتغمره امه بحنانها ورعايتها، لكن كلما نضج كلما تغيرت شكل العلاقه_ من طرف الأبناء_ وإمتزجت مشاعر الحب ببعض السخط أحياناً، فى مثل هذا المجتمع من المسموح جداً ان يعبر الشخص عن مشاعر الحب والكره سواء دون التأثر بأى منهما_ وتستمر الحياه_ أما مشاعر الأم فثابته مهما رأت من أبناءها ومهما بادلوها تلك المشاعر بالجفاء، " أنا بحب ولادى كلهم زى بعض، بس ممكن أفضل واحد عن التانى حسب معاملته" ..أم على.

23-10

حياة فى الفقر

فور دخولك شقة أم على ستلاحظ على الفور الآتى: العفن، القذارة والفوضى، كل الألوان تذوى للون البنى او الرمادى، فقط ترى القليل من اللون الأزرق الباهت يلمع على الحوائط التى لا يزال الدهان يتشبث بها، أرضية حجرية تتناثر عليها الأغراض التى بالطبع لا تنتمى لحيثما توجد، زوج من الأحذية يعلو مفرش من القماش المطوى فوق جهاز الراديو، زوج أخر على السرير! لكن ربما هناك تفسير منطقى لهذا الوضع، فالأحذية تعتبر من أثمن

الممتلكات الشخصية فى هذا المنزل!

الملابس متكومة ومنتشرة فى كل مكان، مبعثرة عل السرير، تتدلى خارج الدواليب أومعلقة على شماعات مثبتة خلف الأبواب وعلى مقابض تلك الأبواب أيضاً. لقيمات الخُبز تتناثر أيضأص على الأسرة، الأرضية وخزانات الملابس ذات الأدراج . لوهلة تشعر بأن المنزل مصاب بتُخمة الأثاث_خصوصا المضاجع_ ثم تبدأ فى إدراك ضرورة ذلك، أسرة تتكون من سبع أفراد تنام فى مساحة ٢٤ متر مربع! ماذا تتوقع ؟!

شقة أم على لا تقل مساحتها عن ٣٨ متر مربع، تعتبر رحبه و فسيحة بمقاييس الفقراء، وبواصفات معتدلة جيده، ليس برطبة أو باردة كثيراً فى الشتاء ولا الحرارة شديدة وخانقة بالصيف، الإضاءة والتهوية فيها مناسبين جداً، تتكون من حجرتين للنوم_والمعيشة_ وحجرة أمامية ومطبخ وحمام، عائلات كثيرة فى الحى لا ينعمن بمثل هذه المميزات، الكثير منهم يتشاركون فى حمام واحد و صنبور مياه وحيد !، بعض الشقق رطبة جداً فى الشتاء للدرجة التى تجعل العفن يطل الحوائط وحارة جدا فى الصيف مما يجعل البعض يلجأ للشارع لكى ينعم ببعض النوم!، البعض مجدداً، أفقر الفقراء، يقطن فى قبو بلا نوافذ أو أى منفذ للتهوية وأخرون يسكنون فى غرف هشة مبنية على أسطح المنازل.

أم على محظوظة بالطبع، فهى تملك شرفة عُلويه تطل على الحارة، حيث يتدلى الأطفال على السور كنوع من المرح حين لا يجدون وسيلة أخرى للعب أو اللهو، وفيها أيضا

تربى الحمام والأرانب_ كمصدر للحوم من حين لأخر_ .
ميزة أخرى للسكن فى دور عُلوى وهى أن تجد مكاناً لنشر الملابس المغسولة، فعادة يلجأ سكان الأدوار الأرضية والتحت أرضية لجيرانهم فى الطوابق المرتفعة لنشر ملابسهم، يطلبون إستخدام الشرفة لهذا الغرض بثقة كبيرة فى ان الجيران لن يترددوا فى السماح لهم بذلك" من باب العشم".

من مميزات السكن فى دور مرتفع أيضاً تسهيل مهمة الأم فى المعركة اليومية لمنع الأطفال من اللعب طويلاً فى الشارع، الأمهات سكان الدور الأرضى غالباً ما يرواغهن أطفالهن ويستطيعوا الهرب والخروج من الشارع، أما الأطفال فى دور أعلى فلا ينعمون بتلك الميزة مما يجعل دائماً هن المُنتصرات.

إيجار شقة ام على يعُتبر متوسط، خمس جنيهات شهرياً بالإضافة إلى مصاريف المياة والكهرباء، الإيجار ثابت منذ أن إنتقلت الأسرة إليها منذ ٢٧ عام، ويرجع الفضل لقانون الإيجار الدائم المصرى، مالك العقار يسكن هو و عائلته فى الأدوار الثالث والرابع ، وباقى للمستأجرين.

حياة بلا مواعيد

بغض النظر عن موعد حضورك فى اليوم، لن تتوقع من أو ماذا ستجد فى المنزل، فالحياة فى الشوراع الخلفية غير مُقيده بالساعات، أو بالأحرى لا يمكن التبنوء بها، حياة تسير بطريقة معاكسه، فهناك عدة أنشطة و أعمال يجب القيام بها لكى تستقيم الحياة، ولكن لا يهم متى تتم أو كيف، تسير هكذا بالمصادفة وبغير ترتيب حيث لا يوجد

نموذج أو شكل ثابت للحياة ها هُنا. كل المهمات تستمر إلى حين نهايتها، لا يهم كم تستغرق من الوقت،الفرد هنا: ينام، يأكل، يطبخ، يشاهد التلفاز، يتناقش، يزور الناس أو يستقبل الضيوف، يُذاكر، يشتبك، يحتد فى النقاش فى أى وقت من اليوم، النهار أو الليل، بعد ثلاثة عشر عاماً من الحياة فى تلك الفوضى _أنا أيضاً كنت أجىء وأروح فى أى وقت من الليل أو النهار_ فقط التالى هو ما إستطعت إعتباره نظام يومى ثابت:

من الثانية وحتى السادسة صباحاً يسمى ليل، فى الغالب يكون الناس نيام فى تلك الساعات، لكن هذا لا يعنى أن لا تجد من ينام فى أى ساعة اخرى من اليوم _ فالنوم هنا هو الوسيلة الوحيدة تقريبا للهرب من ضجيج تلك الحياة التى لا يتمتع فيها الفرد بخصوصية أبداً، لذلك فالناس تنام فقط فى أى وقت على سرير فى غرفة يشاهد فيها فيها أخرون التلفاز بصوت مُرتفع للغاية تحت أضواء المصباح "النيون" ، النوم يصبح وسيلة للإنسحاب لخلق مساحة من الخصوصية. الوجبات اليومية_ التى يشارك بها كل مستيقظ وجوعان فى المنزل_ لا تستطيع تحديد معاد معين لها، فالفطار يكون بين السادسة صباحاً و الحادية عشر، الغذاء بين الواحدة ظهراص والخامسة بعد الظهر، أما العشاء فربما يكون فى السادسة مساءاً او فى الثانية عشر منتصف الليل! تحاول الأم تجنيب بعض الطعام للغائب، لكن إن فشلت فى ذلك فببساطة سيخرج أحد الأطفال لشراء المزيد من نفس الطعام أو غيره وتقوم بتحضيره فور وصول الغائب.

مثال ليوم نموذجى وجدته مُدون فى مفكرتى، السادس عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٧٦ :

تناولنا العشاء فى السادسة والنصف مساءاً، أم على، عفاف، منى، نوسه، وانا، كان الطعام مكون من بطاطس مقلية، خُبز، وسلطة. وصل أنور المنزل بعدما فرغ من اللعب فى الشارع فور إنتهاءنا من تناول الطعام، فأرسلت أم على عفاف لتشترى المزيد من الخُبز والبطاطس، وطلبت الأم من منى أن تقلى البطاطس وتُحضر السلطة؛ بعض قليل إستيقظت هدى من النوم ولم تُرد أن تكل بطاطس، فأرسلت الأم عفاف مرة أخرى لتشترى لها الفول، فور وصولها إكتشفت ام على أن الطماطم نفذت فأرسلتها مجدداً لشراء نصف كيلو لعمل السلطة لمصطفى وعلى حين يحضرا! (عدم الحكمة والنظام يربك العقل، كما إنه يتسبب فى ضياع هائل للوقت).

24-10

الناس أنفسهم يشكون من نقص النظام فى حياتهم اليومية، الحياة فوضوية بشكل غريب، وإنعدام التخطيط والنظرة المستقبلية متأصل قلباً وقالباً فى حياتهم، ربما البعض يرجع تلك الفوضى إلى الفقر والحالة المُزمنة من نقص الأموال التى تحول دون التخطيط للمدى الطويل ويعطى الحياة طابع الإرتجال المتواصل و سياسة حافة الهاوية! على صعيد أخر، فالنساء يمتلكن الكثير من الوقت ويتمتعن بنعمة الفراغ ! أعمال المنزل الروتينيه من تنظيف وطبخ لا تستهلك الكثير من الوقت، كما أن أغلب الأطفال هنا يشاركون فى تلك الأعمال بل ويكلفون بأداء

مهام كثيرة بمفردهم، ومع ذلك فطالما تشتكى النساء من الضغط وقلة الوقت، الحقيقة، الأفكار هى ما يستهلك وقتهن، يقضين معظم الأوقات يفكرن، تدبير الطعام، الإقتراض من الجيران، تسديد الديون، منع الأطفال من اللعب فى الشارع، إدارة العلاقات الإجتماعية، و محاولة الحد من الصخب المحيط والذى لا بد أن له مصدر أو سبب ما، لكن لا قوة على الأرض تستطيع تفسيره.

لذلك حين تبرر إمرأة هنا عدم قيامها بشىء ما أو تغيبها مثلا ب "مفيش وقت" فتلك ليست حجه واهية أو أعذار فارغة.. من ناحية أخرى فضغط الوقت من نصيب الرجال، معظم الرجال هُنا يلتزمن بأكثر من عمل_لتلبية أبسط الإحتياجات المادية_ ويعملون لمدة ستين ساعة إسبوعياً،تقريباً، بعضهم لا ينعم بإجازات أو راحة إسبوعيه، يعملون فى كل من القطاع العام والخاص، لكن فى الواقع معظمهم يُدبر المال عن طريق أعمال أخرى حُرة بغض النظر عن كونه موظف. العمل الحكومى هو المفضل لدى المصريين، حيث يؤمن لهم ضمانات إجتماعية عديده كالمعاش (٠راتب التقاعد)، والأجازات المرضية مدفوعة الأجر، والتأمين الصحى ، لكن المرتبات مُنخفضة بشكل غير طبيعى، فى حال أن العمل الحُر يؤمن دخل أفضل كثيراً منذ عشرات السنين، وحتى المتعلمين يلجأون للعمل فى الحِرف المختلفه(كالنقاشة والكهرباء) أو سائقى سيارتا أُجره، أموال العمل الحُر هى ما يجعل الحياة تستمر، وما يفسر أيضاً إنعدام البطالة_ تقريباً_ بين من عرفت من الرجال بالرغم من أن

الإحصائيات الرسمية تؤكد أن مُعدل البطاله مرتفع جداً يصل إلى ١٤٪ .

من السابعة صباحاً حتى الثامنه مساءاً يغيب مصطفى عن المنزل، من الثامنه حتى التانية ظهراً يكون فى عمله الحكومى كمفتش فى هيئة النقل العام، ثم يذهب إلى ورشته الخاصة ليعمل حتى المساء، فى يوم الجمعة_العطلة الرسمية للحكومة_ يستيقظ متأخراً ليذهب للورشة مباشرة_عادة يكون سهران ليلية الجمعة_ وفى يوم الأحد يأخذ القليل من الراحة ليشاهد مباريات كرة القدم على التلفاز. منى وهدى يعملان سوياً فى مصنع، لذا يغبن عن البيت أيضاً حتى الثالثة عصراً، الكُبرى، هدى، عادةً ما تنام كثيراً بعد عودتها من العمل، أما منى فهى من تقوم بمعظم الأعمال المنزلية ، تشاهد التلفاز، تستقبل الضيوف، تنعس قليلاً وقت القيلولة، وإن إحتاج الأمر إلى جولات لإقتراض بعض المال فهى لها. أم على تنام نوم متقطع حتى الحادية عشر صباحاً وأحيانا نومها يمتد حتى الثانية ظهراً، وقت الإستيقاظ يتحدد حسب الضيوف المتوقع حضورهم، إما أشخاص محببين إلى قلب أم على تتمنى حضوروهم، أو شخصيات ثقيلة تكون مُجبرة على إستقبالهم.

يمكنك توقع الزيارات فى أى وقت من اليوم، من السادسه صباحاً حتى الليل، زيارات بعد منتصف الليل أيضاً متكررة الحدوث، أحيانا يمكثون لشهر أو أكثر، وأحيان أخرى يقضون ليله واحده، بشكل عام يكونوا أقرباء أو أصدقاء أم على من النساء اللائى تشاجرن مع أزواجهم فتركوا المنزل "غضبانه"، لكن أيضا أقراب مصطفى

وأصدقاء الأبناء مُرحب بضيافتهم؛ توفير أماكن لنوم الضيوف ليست بمشكله على الإطلاق، فالسرير المُصمم لفردين يسع ثمانى أفراد، والبعض يفترش الأرض، ولا مانع من نوم الأطفال تحت السرير إذا حكم الأمر.

"الناس فاكرين ياما هِنا ياما هِناك"

تُعتبر شقة أم على ذات مستوى جيد، لكن الأثاث متواضع جداً وفقير، بالوضع فى الإعتبار الوضع المادى للعائله. الجيران والأقارب يلومون أم على على تبديد كل أموالها على ملابس الأطفال وعدم الإهتمام بالمنزل وتجديد الأثاث. أميرة_زوجة أخو أم على_ حكت لى عن موقف العائلة فى جنازة أمين وكيف لامها وتشاجر معها أقارب مصطفى بسبب أن الكنبة التى أخرجوها خارج المنزل ليجلس عليها المقرىء كانت متهالكة وبالية وغير مفروشة أو مُغطاه "كان شكلها فضيحة" كما قالت أميرة، وأقارب مصطفى أزعجوه بقولهم" متقولش إنك فقير ومش قادر تجيب، ده إنت صاحب ورشه" وإستطردت مُعلقة " مالهم هم إذا كان صاحب ورشة ولا لأ" ، فردت ام على سريعاً " الناس فاكرين ياما هنا ياما هناك، ياريتهم يعرفوا الحالة عاملة إزاى" ، لها كل الحق، فعلا الناس تتحدث بغير عِلم وهذا لا يجب، كما أن الملابس أهم كثيراً من الأثاث، و الملابس تثكلف اكثر، فلديها بنتان متزوجتان والثالثه فى طريقها، يذهبن للتسوق ويختارون الملابس بدون عِلم أمهم ثم يفلجئونها بالفواتير! ماذا ستفعل إذاً؟ ذات مرة عادت هدى إلى البيت وهى ترتدى فستان جديد، ومعها فاتورة بقيمة جنيه ونصف الجنيه من الخياطة، أم على

أن شكل الفستان مألوف بالنسبة لها، فى الواقع كان أنيق وجميل، دققت أم على النظر للفستان وإكتشفنا ان هذا الفستان كنت قد أعطيته لأم على من "فيفى تاكهولم" _دكتورة شهيرة فى علم النباتات عاشت ودَرست فى مصر حتى رحيلها عام ١٩٦٧_ ببساطة اخذته هدى وغيرت مقاسه وشكله ليليق بها وبسنها ! غضبت أم على وثارت بجنون لدرجة انها مزقت الفستان تمزيقا !

26-10

حساب الزمن والمال

تستطيع أم على ذِكر كل قطعة فى المنزل، وتتذكر ثمنها و كيف إدخرت المال لشرائها ، لاتتذكر فى أى عام أحضرتها" ١٩٧٥، ١٩٦٧.. مش هتفرق" لكنها تستطيع ربط شراء أى قطعة فى المنزل بحدث جلل فى الأسرة،كسنة ميلاد نوسه ، أو العام الذى سقط فيه أنور من الشرفة ، الأرقام مفيدة فى حساب تكلفة الأشياء، لا فى حساب الوقت، هى لا تستطيع جمع (٢=+٢) على الورق، لكن عندها قدرة عجيبة على إجراء عمليات حسابيه مُعقدة فى عقلها، والذاكرة الحسابيه لديها مُرعبة، لكن كلها تتعلق بالمال والحسابات الماليه، فالمال هو مفتاح كل شىء ، وهو مصدر السعادة الحقيقى –من وجهة نظرهم_ .

نظرة متفحصة لداخل الشقة

الشقة مكونة من ٣ غُرف صغيرة جداً بجانب حمام ومطبخ حقاً أضيق مما تتخيل، باب الشقة ضخم وبُنى اللون، البابا دائماً مُغلق ولكى يُفتح لك عليك بالطرق

بصوت مسموع، إستخدام المسااحات يتغير من حين لأخر حسب الحاجه، لكن منذ أول دخول لى لعالمهم عام ١٩٦٩ إلى أوائل الثمانينات لم يختلف ترتيب المنزل أو الشكل العام كثيراً.. هكذا تقريباً:

الغرفة الأمامية "الصاله" لها عدة إستخدامات، النوم،الأكل، المذاكرة، إستقبال الضيوف وفوق كل هذا فهى الغرفة التى تحتوى على التلفاز، أسرة أم على من أوائل الأسر فى الحى التى إقتنت التلفاز-عام ١٩٦٨_ لو كانت الشقة أكبر قليلاً لأستخدموا الغرفة الأمامية كغرفة طعام، كما هو الحال فى الأسر المتوسطة، لكن نقص المال وضيق المساحة لشراء طاولة طعام، يجعل من تلك الغرفة مكان لأشياء كثيرة متناقضة لحد كبير.

الحوائط فى الغرف الأخرى مدهونة بالأزرق الباهت تداخل مع بعش أجزاء رمادية غير مدهونة، شباك صغير على مَنور، ومصباح معلق فى منتصف سقف الغرفة، يكفل الإضاءة المطلوبة ولكن لا يؤدى أى أغراض جمالية، حوض وحيد وصنبور للماء البارد فى الشقة كلها؛ الأثاث والمفروشات عبارة عن: دولاب ملابس أخضر ذو أدراج عديده، كنبة بالية ، كرسيان كبيران، دولاب ملابس ضخم بنى اللون ومكتب صغير مُغطى بمفرش بلاستيكى مُمَزق وعلى الشباك قطعة من القماش الأصفر الباهت هى بمثابة (سِتاره) !

فى الحائط الداخلى بابان يوصلان لغرف النوم، على اليسار المطبخ والحمام، حوائط الحمام ثُلثى إرتفاع الحوائط الأخرى، لا تصل للسقف،_لهذا كانت رؤية الدخان وألسنة

اللهب ترتفع أسرع حين أشعل أمين النار فى نفسه_ المطبخ خلف الحمام بلا باب، عبارة عن مسطبة صغيرة وبعض الرفوف،البوتجاز _الذى إشترته الأسره عام ١٩٧٩٦_ موضوع بشكل إسترتيجى فى المدخل ليراه الزوار، نادراً ما تستخدمه أم على ، فهى ترى أن "الوابور" أسهل وأرخص، غير أنها تعودت على الطبخ وهى جالسه عل الأرض-كمعظم النساء هنا_والبوتجاز يتطلب الوقوف، الحمام به دُش يدوى و فتحة فى الأرضية كمرحاض "حمام بلدى"، كما أن به عدد لآ بأس به من الصراصير!

الضيوف المُهمين يتم إقتيادهم من الصالة إلى الغرفة على اليمين، غرفة نوم أكبر بنتين، وعادة ما ينام بها ضيوف مُنتصف الليل، فى حين أن أم على ومصطفى _وبعض الأبناء الصغار_ ينامون فى الغرفة الأخرى، اما فى أوقات الخصام بين أم على وزوجها ، ينام مصطفى فى الصالة.

مساحة الغرفة على اليمين تقريباً ثلاث أمتار فى أربعة متر مُربع، بها سريران ودولاب كبير وكنبة بينهما، الدولاب والسرائر تستهلك ثُلثى الغرفة، وباب يؤدى للبلكونه، اللوح الزجاجى أعلى البابا مكسور ومُغطى من الداخل بورق مقوى ومن الخارج بفرخ ورق أصفر به العديد من الثُقوب، عادةً ما يكون باب البلكونه مفتوحاً، لذلك وضعوا قماشة مُشجرة لمنع الجيران من جَرح الغُرفة، (نافذة الجيران فى المقابل تبعد بالكاد عِدة أقدام!) ؛ السرير مرفوه بحجرين من الطوب الأحمر، لترك مساحة كافية للنوم تحت السرير إذا لَزم الأمر، الدولاب يتكون من ضلفتين بينهما مريه مكسورة_كُسرت فى أحد المعارك الزوجية بالطبع_

وأعلى الدولاب يوجد ثلاث سِلال من الخوص، ونصف دسته من علب الأحذية وشنطة سفر، تحت الدولاب العديد الأحذية مُبعثرة، أما داخل الدولاب فالملابس متكومة بطريقة عشوائية مما يجعلها تخرج لحافة الباب وتعوق غلق الضلفة، المناشف وملابس البيت تملأ الغرفة، تحاصرك، على السرير، وشماعات على الجدران، على الأرض و فى الأركان.

حين إستقبال ضيوف مُرحب بهم يتم دعوتهم للجلوس على الكنبة، على سبيل التشريف لهم والترحيب بهم، الكنبة مُغطاة بفرش من نفس القماش المُخصص للبيجامات، مخطط بخطوط بُنيه ورمادية، امام الكنبة وُضِعت طاولة كانت فى يوم ما بيضاء اللون ولكن _كحال معظم الأشياء فى هذا المنزل_ تحولت للرمادى الباهت بمرور الزمن، مفرود عليها ورق الجرائد عِوضاً عن المفرش القماشى، ويتناثر عليها قطع الخبز، وأكواب الشاى الفارغة إلا من بقايا الشاى الباردة، وأكثر من طفاية سجائر مليئة بالأعقاب.

فى الغرفة على اليسار، تنام أم علي وزوجها، كل فى سرير منفصل، وتُفضل أم على أيضاً إستقبال أقرباءها وأصدقاءها فى تلك الغرفة، دهان بابا الغرفة الأخضر مُتقشر وفى حالة يُرثى لها، فى الغرفة نافذة صغيرة تطل على الشارع، أحد لوحى زجاج النافذة مكسور وتم إستبداله بفرخ من الورق المُقوى، والأخر مشروخ ومُلصق عليه شريط لاصق فى محاولة لإبقائة اطول مُدة ممكنة، ستارة النافذة دائماً مُسدلة لتأمين الخصوصية .الغرفة مُظلمة، ليس

بها سوى مصباح معلق فى السقف كالغرفة المقابلة، تخلو الجدران إلا من نتيجة لعام ١٩٦٤ عليها صورة أحد نجوم السينما، وصورة أخرى لنجم أخر_ تمت إزالتها عام١٩٨١ عندما إتجهت هدى للإلتزام الدينى، فأزالت الصورة لأنها "حرام" ، و رف مقسم لستة أقسام مكدسة عليه الملابس، سجادة بالية غير واضحة المعالم على الأرض، الأثاث عبارة عن سرير مزدوج وأخر فردى، "تسريحة" بها مرآة ضخمة، وطاولة صغيرة جداً " طقطوقه"، السرير الفردى عليه تل من المراتب، ثلاثلا مراتب فى الأصل كان لونهم وردى ولكن تحولو للرمادى كعادة الأشياء ها هُنا، وعليهم بُقع كبيرة من أثر نوم الأطفال عليهم ! المراتب مُغطاة بمفرش رمادى وفوقه بطانية بُنية اللون، على أحد أطراف السرير يوجد الكثير من المخدات _الرمادية بالطبع_ التى تُستخدم كمساند للظهر فى حال إستقبال الضيوف، على كتف السرير سجادة صلاة مُتهالكة مُلقاه، وعلى السرير نفسه تشكيلة كبيرة من الملابس المُبعثرة ، و لقيمات من الخُبز!

ثلاث حمامات تُعشش تحت سرير، تنطلق فى الشقة بالنهار وتسكن ليلاً، وتحت السرير توجد سلة الخُبز والطبلية، بين السريرين طاولة مستديرة مفروشة بورق الجرائد، فوقها زوج من أحذية الأطفال و طفاية ، على التسريحة تجد كم هائل من الأدوية ، نظارة، و عدد من زجاجات الخمر الفارغة، الرف فى الزاوية مفروش أيضا بورق جرائد، وفوقه شنطة سوداء بلاستيكية، كوب صغير به بعض اللبن، قطع خُبز و زوج أخر من الأحذية! كل

شيء يشهد على الزحام، البلاء، اليأس و_كما يصف جيران أم على- الفوضى.

أولويات

الفقر وحده لا يفسر تلك الفوضى التى تعيشها ام على، فالكثير الجيران حالتهم أشد بؤساً وفقراً ومع ذلك بيوتهم أحسن حال، ويجددون بعض الأثاث كلما تيسر لهم، ربما إختلاف الأولويات يفسر ذلك، فأولويات ام على التى هى أم لبنتين متزوجتين، والثالثة فى طريقها، بالطبع تختلف عن أم لأطفال صغار أو أبناء ذكور، الملابس والمجوهرات هى أكثر ما تهتم به أم على، فى وسط يعتبر ملابس البنت ومجوهراتها عنصر جذب ل "العريس" و مؤشر واضح لمستوى الأسرة، لأم على بنت فى ال ٢٧ من عرها والأخرى فى ال ٢٤ لذلك غهمال ملابسهن أمر مستحيل بالنسبة إليها، لكن مؤخراً أصبح من الواضح أن إهتمام ام على بمظهر وملابس بناتها أكثر من إهتمامن بأنفسهن، أم على إدخرت بعض المال لشراء أساور ذهبية للبنات ولكن هن فضلن شراء غسالات كهربائية بدلاً من ال "غوايش" !.

بيت الواحد

شقة أم على الحالية هى ثانى شقة فى حياتهم، أول سنتين من زواج أم على ومصطفى عاشا فى بيت والد أم على، ثم إنتقلت فريدة أختها وزوجها للعيش معهم أيضاً فتحول البيت إلى ساحة معارك دائمة، كحل مناسب للوضع _من وجهة نظرة_ تزوج والد أم على من إمرأة اخرى، لم تتحمل ام على ذلك فتركت المنزل، الشقة الأخرى التى وجدتها مناسبة تبعد مسافة عشرة أمتار فقط عن شقة

والدها، وقتها كان الحصول على شقة سهل، الشقق كانت متوفرة بكثرة وبأسعار زهيدة، أما الأن فالحصول على شقة أصبح امر صعب وعليك بدفع المئات من الجنيهات كمقدم للشقة. تعيش هنا منذ سبع وعشرون عام ولكنها لا تشعر بالراحة، فهى دائمة الشكوى من الجيران:" الناس هنا بتقعد ع الأبواب تبحلق فى اللى داخل واللى خارج، وبيقفوا فى الشبابيك يتكلموا ع الرايحة والجاية ويبصوا للناس فى حاجاتهم، بيحسدوا أى حاجه" . بالرغم من إدعاء أم على أنها ليست مثلهم، إلا أنها تفعل تماماً ما يفعلن، فالنساء عادة ما ينتقدن من يحيط بهن "الأخرون" مُعتبرين أنفسهن مُختلفات.مثلاً: أطفال الجيران غير مهذبين وأشقياء ولهم تأثير سيء على أبنائى ! كلهن يشتكين نفس الشكوى .

ام على غير راضية عن شقتها، تشتكى عدم وصول الشمس إليها إلا فى اواخر الصيف، والشمس _كما علمتها أمها_ أهم من الطعام.

حلمها الأكبر ان تمتلك بيت خاص، مبنى على قطعة أرض تمتلكها بجانب الأهرامات، بذلت أم على كل ما بوسعها من جهد لتوفير المال لشراء تلك الأرض، لكن مصطفى لم يكن متحمس للمشروع بالقدر الكافى، بدأ بعدم مساندتها ثم إنتهى الأمر بمحاولة سرقة أوراق الملكية الخاصة بالأرض بعد شجار عنيف معها عام ١٩٧٨، ومن حينها بدأت أم على فى حفظ الأوراق المهمة مع صديقة لها، المشكلة الحقيقية أن لا مصطفى ولا أياً من الأبناء عنده الرغبة الحقيقية فى الإنتقال، لذلك من

المستحيل البدء فى الأمر بمفردها.

هى تعلم جيداً أنها تحتاج للألف جنيه فقط لوضع أساس المنزل، أى ما يعادل ثلاث أضعاف مُرتب مصطفى من العمل الحكومى فى السنة! لتوفير ذلك لا بد من مشاركة كل أفراد الأسرة، لا بد من تقديم بعض التضحيات، لكن لا أحد مستعد لذلك، بالتالى هى فقدت الأمل تماماً والحسرة تعتصرها، إثنتان من الجيران إنتقلوا للعيش فى بيوتهن الخاصة، صحيح فى دور أرضى غير مُكتمل، بلا كهرباء او مياهن لكن على الأقل إنطلقوا الإنطلاقة الأولى والباقى سيكتمل بالوقت والصبر.

فى الواقع، أم على لديها علاقات جيده مع الجيران، معظمهم من الأقارب أصلاً، لكن رغم ذلك هى ترى أنه ليس بالأمر المستحيل تركهم والإنتقال للعيش بعيداً، من يحبها بحق يستطيع زيارتها مهما طالت المسافة، " الأوتوبيسات كتير".

معذورة أم على، تعبت، وملت، كل ما تتمناه السلام والهدوء، حياة هادئة بعيداً عن كل الصخب والضغط العصبى المُلازم لها، كم من مرات أسمعها تهدد احد أطفالها [انها ستترك البيت لهم وتذهب للعيش بمفردها، طوال تلك السنين التى عرفتها كانت تأجل القرار لأسباب فى الغالب مادية، "هسيبكوا بعد ما أسد الدين اللى عليا" ، "بس البنت تتجوز وأنا همشى وأسيب البيت"_ زواج البنت يحتاج لمصاريف كثيرة عليها توفيرها_ آلاف الأشياء تضعها أم على فى أولوياتها، على صحتها النفسية والجسدية، آملة فى إنجازها يوم ما تحت شعار " بُكرة،إن شاء

الله"، "بعدبن"، لما ربنا يريد" .. إن أراد!

بُكرة إن شاء الله

غداً إن شاء الله "بُكرة إن شاء الله" ، جملة ربما تجلب اليأس والإحبا لمن يسمعها من الأجانب فى مصر، حيث تبدو الجملة فارغة من المعنى كما أنهاعادة ما تشير إلى معنى سلبى، (وكأن الله نادراً ما يريد)، الجملة فى حد ذاتها تنم عن امل وإيمان شديد، إيمان بالله وقدرهن لكن ما لا يعلمنه أن إرادة الله وحدها لا تنجز الأعمال، هؤلاء أناس يتواكلون على الله ، فى حين أن من يراهم _من الأجانب_ مُدركين تماماً ان مصير الإنسان لا يحددها سواه.

بالرغم من ذلك، أحيانا يستخدمون "إن شاء الله" للتخلص من عبء مسؤلية ما، إنتقاد أم على القاسى لمصطفى بسبب تواكله هذا و إبعاد المسؤلية عن كَتفه بتلك الجمله يرجع إلى إيمانها العميق بأن الله يساعد من يساعد نفسه، "بكرة إن شاء الله" كفيلة بإستياق إمرأه كأم على إلى سعير اليأس، إمرأة تكاد تكون فاقده لأى أمل فى الحياة، لكن إيمانها بأن الله لا يتصرف بعشوائية ربما يخفف من حدة شعورها باليأس التام. لكن غداص يأتى ويذهب، ويأتى بعده غداً أخر، وأم على لا تزال ممزقة بين حبها لأبناءها وعدم رغبتها فى التخلى عنهم ور غبتها فى الهرب من ذلك الواقع القاتم. " كل ما أهددهم إنى ماشية وسيباهم، يجروا ورايا، يبكوا ويقولوا متسيبناش يا ماما إنتى عارفه إننا بنحبك.. بس أنا بقولهم إنتوا مبتحبونيش أنا، إنتوا بتحبوا اللى بعملهولكوا، عشان مصلحتكوا بس" .

سبع إخوه وأخوات

على

أكبر أبناء أم على، وقت دخولى عالمهم كان على بدأ يغادر مرحلة الطفولة وبدأ مرحلة الشباب، كان فى السابعة عشر من عمره، شاب خجول ذو إنحناءه، عادة ما ينظر فى الأرض، كان يعمل كمساعد لأبيه فى الورشة "صبى"، مقابل أجر رمزى يكاد لا يُذكر، جنيهان لليوم، تشتكى أم على عدم كياسته وفقدانه الثقة فى نفسه منذ أن بدأ فى العمل مع والده، لكن مصطفى يرفض التخلى عنه، فهو يرى أن الإبن عليه مساعدة أباه فى العمل، بالإضافة إلى ذلك مصطفى متأكد انه لن يجد عامل أخر يقبل بأجر زهيد كهذا.

تسرب على من المدرسة فى الصف السادس، يستطيع القراءة لكن لا يكتب، دخل الجيش، وقبيل إنتهاء فترة تجنيده بشهور هرب وسافر إلى ليبيا، وعاد بعد عام، وكان مهدداً بقضاء سنة فى السجن_ كعقوبة مُتعارف عليها لمن يهرب من فترة التجنيد_ لكنه دفع رشوة لشخص ما لتخليصة من تلك المشكلة، أم على _ كعادتها_ هى من وفرت المال لتحميه من السجن؛ بعد فترة خطب على فتاة مشكوك فى أمرها_سيئة السُمعه_ وتركته لتتزوج من رجل اخر، بالفعل تزوجته وأنجبت منه إبن ثت إنفصلت عنه، وعادت لعلى تطلب منه السماح، جن جنون أم على ومصطفى وغضبوا بشدة من مجرد تفكير إبنهم فيها ثانية، فتزوجها دون علمهم، فكان طرده من البيت رد فعل طبيعى من أم على وزوجها، قالت أم على" أنا إعتبرته مات، مات

زى أمين" .

أمين

مات أمين وهو فى التاسعة عشر من عمره، أخر مرة رأيته فيها كان فى الرابعة عشر، ولد طويل ووسيم وعيناه تلمع بالذكاء، وكانت لديه بوادر الثقة والإعتداد بالنفس، أم على طالما وصفته بأنه أقرب أبناءها شبها لها، هو مجتهد وطموح، جهده وطموحة هذان أوصلاه للمرحلة الثانية من الثانوية العامه_حين مات_ الكل توقع له أن يكون الأكثر نجاحاً وفلاحاً بين إخوته. لكن ربما تزايدت عقدة النقص عنده لهذا السبب، لم يكن من الشائع وصول أبناء طبقته الإجتماعيه لمراحل التعليم المتقدمة، لذلك كان ل أمين أصدقاء من طبقة إجتماعية أعلى كثيراً، وفى مصر_ كالعديد من المجتمعات التى تعانى من عدم المساواة الإجتماعية_ من يتفوق ويتقدم عن أبناء طبقته ليدخل فى وسط أعلى كثيراً يتعرض للتحرشات و يعامل بطريقة عُنصرية، أخر شهر فى حياته، كان أمين متوتر ومضطرب على عكس عادته، ظنت العائله أن هذا بسبب عدم تمكنه من شراء ملابس جديده وغاليه ، إستعداداً لبدء عام دراسى جديد، كمعظم من يتعامل معهم، هدى فسرت ذلك قائلة " اللبس أهم حاجه بالنسبة للبنى أدم، المصريين بيهتموا بالمنظر بس مش بالأخلاق" .

هدى

كانت هدى فى الرابعة عشر من عمرها عام ١٩٦٩، فتاة شقية مُفعمه بالحياة، تتحدث كثيراً لتجذب الناس إليها، لديها العديد من الأصدقاء. تبدوا هدى بريئة ، فضولية

وساذجة إلى حد بعيد، لكن وراء تلك الصفات ملامح لإمرأة جاده قوية تتحمل المسؤلية، بعد موت أمين ومغادرة المنزل، أصبحت هى الأكبر بين الأبناء مما سمح لها بممارسة سلطات كثيرة فى المنزل، كانت هدى من النوع المسيطر بالعقل و العند،لا بالقوة الجسدية، أعتقد ان هذا مما وهبتها امها لها من حكمة وقدرات تدبيرية عالية، ظهر هذا جلياً بعدما تزوجت هدى وأصبحت إمرأة وأم ناضجة.

فى السادسة والعشرون من عمرها، تغيرت هدى تماماً، أصبحت متدينة أكثر ومُلتزمة بتعاليم الدين، بعد تعرضها لخطبة فاشلة حاولت الإنتحار اكثر من مرة، كانت هدى نحيفة جداً_ أنيميا على ما أعتقد_ و مرتين تفقد الوعى فى المصنع ويصحبها أصدقائها للمنزل خائرة القوى تماماً. اخر محاولة للإنتحار حكت لى منى عنها:

"فى يوم إمتحان الفرنساوى،ن صحيت هدى الصُبح وطلبت من ماما عشر قروش عشان تشترى بيهم كتاب، بس إشترت بيهم خمسين قرص "أسبرين" وبلعتهم كلهم ونامت على السرير وهيا بتعيط، أنا كنت بحضر العشا و لقيت علب الأسبرين فاضية فى الزبالهن سألت أنور مين إشتر الأسبرين ده كله؟ قاللى هدى، لحد الوقت ده محستش إن فيه حاجه غلط، وبعدين رُحت أنضف الشقة ، فلقيت ورقة تحت المخده مكتوب عليها" اختى العزيزة منى ، انا اخدت الرشام كله، قولى لماما وبابا يسامحونى وقولى لأمال إنى بحبها أوى...." ، أنا صرخت وجريت على هدى وحاولت أشيلها من ع السرير، مكنتش لسه فقدت الوعى، بس كانت تقيلة أوى، جريت ناديت أم جمال_ جارتنا_

وقلتلها تقعد مع هدى لحد ما أروح أنادى بابا من الورشةن بس ملقتوش، لقيت على أخويا وكمال إبن عمى، على ما جبنا تاكسى، كان جوز أم جمال جاب واحد وجرى بهدى ع المستشفى، بابا جه ورانا علطول وهو هايج وعايز يضرب منى " مرة الواد يموت ونفسه، وإنتى كمان عايزة تعملى كده" ، "انا عمرى أذيتك، عايزة تموتى نفسك والناس تقول عليكى إنك إنتحرتى بسبب خالد، عشان تخبى عارك..."، الدكتور مسك بابا وهداه وقاله إن هدى عملت غسيل معدة وحتاجه للراحة والهدوء مش الخناق، بابا رجع البيت وإتخانق مع ماما " إنتى موتتى إبنى قبل كده، ودلوقتى هتموتى البت،إنتى أكيد جننتيها لما الواد خالد سابها، عملتيلها إيه" ، ماما ردت " والله ما عملتها حاجه ابداً"، بس ماما كانت زعلانه من هدى أى عشان هى السبب إن بابا يتخانق معاها ويزعق لها جامد كده، وكمان قالت إن الناس كانوا هيقولوا إنها إنتحرت عشان سبب ، أكيد خالد خد شرفها".

منى

عام ١٩٦٩ كانت منى فى الثانية عشر من عُمرها، طفلة ممتلئة ومبهجة، تتميز بعيون تلمع بالود والذكاء، ذات شعر مجعد_ فى الوقت الذى يفضل المصريين فيه الشعر الناعم المفرود_ كان شعرها عقدة حياتها، وكم حاوت بإستماته تغير طبيعة شعرها ليصبح مفرودا ولكن بلاجدوى، لكنها عكس هدى، لا تكسرها الفشل أو عدم تحقيق رغباتها، أم على تقول أن منى أكثر أبناءها شبها لها_بعد موت أمين_ منى جميلة، ليس وجهها فقط، إنما جميلة العقل والشخصية،

أم على تقول أن منى لديها عقل تستخدمه فى الخير، تنظر للجانب المُشرق للأشياء، تقوم بأى عمل يرفض الأخرين القيام به، وتحاول تصيح مسار كل من يحد عن الطريق السليم.

نضجت منى لتصبح فتاة جميلة ممتلئة القوام- كمايفضل المصريين_، هى الجسر القائم بين أفراد العائلة، من يخفف آلام وحسرات الأخرين، وصديقة كل أفراد المنزل، لا يبدوا أبداً انها تبذل الكثير من الجهد لتفعل كل ذلك، ولكن المظاهر خَداعة، كنت أعتقد ان منى سعيده إلى ان تنهدت مرة شاكية: " شوفى كل المشاكل اللى شوفتها فى حياتى دى وأنا مكملتش ١٨ سنة، أحيانا مبعرفش أحبس دموعى ، من غير سبب، بس ببقى تعبت ومش قادرة أتحمل أكتر" .

عفاف

عفاف كانت فاكهة العائلة، فى ١٩٦٩ كانت فى السادسة من عمرها،برغم من صغر سنها كانت تتمتع بجمال فتان، بشرتها الذهبية و عيونها اللوزية الشكل بالإضافة لتلك الغمازات شكلوا سحر خاص، كانت تتمتع بنظرة بريئة مما جعلها الأقرب لوالدها والمُضلة على الإطلاق، ربما لأنها رأى انها أخر تحمل الكثير من ملامحه، أو ربما هى أخر ما له فى الدنيا وود تعويض ما فاته من العمر بعيداص عن أطفاله. عفاف، ملامحها قرب للزنوج، لكن بالنسبة لها شَكل هذا سحر وجمال من نوع خاص، إحتفظت عفاف بالكثير من براءتها وجمالها، لكن كأختها هدى، كانت عنيدة جداً وصعبة المراس إلى أن وصلت لسن التاسعة، فى الرابعة

عشر من عمرها، عانت هدى من مرض عصبى،ن كانت تذهب وتختفى ثم تعود ليسألها أبواها أين كنت؟ فترد " مكنتش فى حتها!" كانت تبكى بشدة حين يحاول أبوها معرفة أين كانت بالشدة والعنف، لكن ام على أدركت أن عفاف صادقة، فهى لا تعلم أينٍ كانت، بفضل رعاية أمها لها والعلاج، تحسنت عفاف كثيراً، لكن بالطبع كانت تتمتع برعاية خاصة، ولا احد يستسطيع تكلفتها بشىء، فهى لم ولن تتعافى كُلياً، ام على ترى ان سبب مرض عفاف يكمن فى طبيعتها المائلة للصمت والكتمان، " عشان بتقعد ساكته، مبتتكلمش وتخرج اللى جواها" .

عفاف كانت فاكهة العائلة، فى ١٩٦٩ كانت فى السادسة من عمرها،برغم من صغر سنها كانت تتمتع بجمال فتان، بشرتها الذهبية و عيونها اللوزية الشكل بالإضافة لتلك الغمازات شكلوا سحر خاص، كانت تتمتع بنظرة بريئة مما جعلها الأقرب لوالدها والمُفضلة على الإطلاق، ربما لأنها رأى انها تحمل الكثير من ملامحه، أو ربما هِى أخر ما له فى الدنيا وود تعويض ما فاته من العمر بعيداً عن أطفاله. عفاف، ملامحها أقرب للزنوج، لكن بالنسبة لها شَكل هذا سحر وجمال من نوع خاص، إحتفظت عفاف بالكثير منٍ براءتها وجمالها، لكن كأختها هدى، كانت عنيدة جداً وصعبة المراس إلى أن وصلت لسن التاسعة، فى الرابعة عشر من عمرها، عانت عفاف من مرض عصبى كانت تذهب وتختفى ثم تعود ليسألها أبواها أين كنت؟ فترد " مكنتش فى حتها!" كانت تبكى بشدة حين يحاول أبوها معرفة أين كانت بالشدة والعنف، لكن ام على أدركت أن

عفاف صادقة، فهى لا تعلم أينٍ كانت، بفضل رعاية أمها لها والعلاج، تحسنت عفاف كثيراً، لكن بالطبع كانت تتمتع برعاية خاصة، ولا احد يستطيع تكلفتها بشيء، فهى لم ولن تتعافى كُلياً، ام على ترى ان سبب مرض عفاف يكمن فى طبيعتها المائلة للصمت والكتمان، " عشان بتقعد ساكته، مبتتكلمش وتخرج اللى جواها" .

أنور

كان عمره عامان فقط حين دخلت الأسرة، كان قرة عين أمه، تقريباً، أكثر طفل فى هذه العائلة حظى بحياة سهلة، على الأقل حتى عام ١٩٧٩ حين أصبح أكبر صبى فى العائلة_ بعد وفاة أمين و طرد على من المنزل_ أصبح هو الإبن الذكر الوحيد مقابل ثلاث فتيات، كان له الحق ان يأمرهن ويتدلل عليهن بحرية، كان دائم الصراخ، وبطريقة أخرى مفعم بالحيوية وكثير الحركة، لكن ذا قلب طيب وذكاء ملحوظ، طالما قالت أم على أن أنور ومنى هم فاكهة العائلة وأحب ابناءها، "لكن" قالت بأسى " أنور دلوقتى بيتعلم حاجات وحشة من اللى حواليه" . في عمر الرابعة عشر بدأت أخلاقه فى التغير للأسواء، كثيراً ما كان يسهر لوقت متأخر خارج المنزل، ليجن جنون أبواه ويجولا الحى ذهابا وإياباً بحثا عنه ولا يجداه ، ثم يعود ، وفى مرة منٍ المرات وجداه على سطح المنزل مع صديق يتداعبان جسدياً، لم يتفها الأمر وإرتعبا، فهو أخر ولد لديهم، جربوا معه التعنيف والشجار، والحبس فى المنزل، لكن بلا جدوى.

(لا بد من إضافة تعليقى الشخصى ها هنا، فمن وجهة نظرى مخاوف ام على ومصطفى لم تكن فى محلها، فهو

كمراهق يمر بمرحلة العناد والتجريب، وسهره خارج المنزل لم يستمر إلا لأسابيع قليلة، ولكن تصرف مصطفى يعكس كيف ينشأ الشباب فى مصر تحت ضغوط أخلاقية حازمة وصارمة خوفا عليه من الإنحراف، وخوفا على شرف وسمعة العائلة.)

نوسه

فى الوقت الذى دخلت فيه الأسرة كانت نوسا لا تزال فى علم الغيب، هى أصغر من أنور بأربع سنوات، شديدة الشبه بعلى فى الملامح وبهدى فى الشخصية_ مزيج غير مُريح_ عنيدة بشكل غير عادى، تثور وتصرخ وتغضب حتى تُنفذ مطالبها، للحفاظ على السلام فى العائلة، يضطر البعض للعمل على راحتها، ربما ترجع تلك المعاملة الخاضعة لظنهم_كما أظن_ ان نوسه لم تنعم بحياة رائعة منذ ولدت، أمين إنتحر وهى فقط تسع شهور، فكانت صدمة أمها شديدة لدرجة أفقدتها القدرة على رعاية الطفلة، ليس فقط أمها، العائلة أجمع تعرضت لنفس تأثير الصدمة، فلم تجد نوسه من يهتم بها عوضاً عن أمها، أعتقد ان لهذا السبب ظلت أم على تُرضعها حتى سن الرابعة!

التركيز فى وصف أبناء أم على كان أكثر على الجانب المظلم والأزمات التى تواجهها الشخصيات، لهذا لم يكن الإهتمام بكل الشخصيات سواء، فمثلاً منى، ممرت عليها سريعا تماماً كما فعلت أمها، لا لأن منى لا تعانى من المشاكل ، لكن مشاكل منى غالباً ما تكون مع أشخاص أخرون فى الحياة مما لا يؤثر بطريقة مباشرة على علاقتها بأمها، على عكس هدى وعفاف ونوسه.

الحياة سلسله أبدية من المشاكل _كما ترى أم على وتقريباً كل من قابلتهم من النساء فى هذا الوسط_ مشاكل عليها _وحدها_ أن تعمل على حلها.

8

عشان خاطر العيال

"أنا ميهمنيش يجوعوا ولا يموتوا حتى"

مرات لا تُعد ولا تحصى أسمع فيها أم على تلخص حياتها بهذه الكلمات:

" صحتى راحت، الدوا مبقاش يجى بفايده، الدكتور بيقولى العلاج مش هيعمل حاجه لوحده، إنتى لازم تهدى أعصابك و تبعدى عن الزعل، بس ده مستحيل، بكل المشاكل والخناقات اللى فى البيت دى، العيال لما كبروا بقوا زى أبوهم، دماغهم ناشفة وقاسين، كل اللى يهمهم مصلحتهم، وبيعملوا اللى هما عايزينه ، وأنا ولا ليا لازمة، وحياة النبى اول ما الجمعية تخلص وأقبضها لا أمشى وموريهمش وشى تانى ومحدش هيعرفلى طريق، خليهم يتخانوقا ويقطعوا بعض، مش ده اللى هما عايزينه، كل ما احالو اتدخل بينهم وأصلح الأمور يقولولى ملكيش دعوة، طيب أنا هسيبهم يعملوا اللى عايزينه، ميهمنيش يجوعوا ولا يموتوا حتى، أنا بموت نفسى عشانهم إيه اللى باخده منهم غير "القرف". "

"لو بس العيال مبسوطة"

فى اللحظة التى تليها مباشرة تجد أم على تتحدث هكذا:

" انا ممكن أعمل كل حاجه من غير مقابل،لا أكل ولا

لبس، لو بس العيال مبسوطة، كل فين وفين لما يبقى عندنا حاجه حلوة فى البيت أو زيادة، زى إمبارح لما كان عندنا فراخ، دايما بديهم نصيبى، مع إنى المفروض اكتر واحدة محتاجه للبروتين، زى ما الدكتور قال، قاللى إن السكر عندى ممكن يتحسن لو أكلت بروتينات كتير ولو هديت أعصابى، بس إزاى؟ أنا عمرى ما هرتاح ولا أعصابى تهدى إلا لو العيال كانوا مبسوطين، وهما فين وفين على ما يدوقوا لثقمة حلوة، او لبس جديد، شُفتى عفاف إمبارح كانت مبسوطة إزاى بالجزمة الجديدة اللى إشتريتهالها للعيد_ عيد الفطر_ أنا بقى بقالى خمس سنين مجبتش جزمة جديده، حتى شوفى(وإنحنت ام على وسحبت زوج من الأحذية المتهالكة القديمة جداً من تحت السرير) ومبيفرقش معايا، المهم العيال يبقوا مبسوطين، وياريته نافع! لما جبت الجزمة لعفاف بأربعه جنيه، نوسه زعلت وقعدت تعيط، روحت جبتلها غويشتين ب عشر قروش، عشان أسكتها، لقيت هدى كمان هتتجن وزعلانه عشان مجبتلهاش جزمة، لو جزمة عفاف تيجى على مقاسها كانت خدتها، أنا عارفاها، وأنور هو كمان كان متنكد، طب أعمل إيه، عشان ترضى واحد من العيال لازم الباقيين يزعلوا، يا بخت الأغنيا، بيقدروا يجيبوا حاجات لكل العيال مرة واحده، ياما نفسى أشوف اليوم ده، عارفه؟.. كل الجمعيات اللى بعملها لمصطفى بتبقى عشان خاطر العيال، مستقبلهم، أخويا ياما قاللى إنى بحب العيال زيادة عن اللزوم وإنى ناسيه نفسى، وهو يعنى فيه أم مبتحبش عيالها، دول كل اللى حيليتها."

تلك هى خلاصة حياة أم على، إمرأة تتمركز حياتها

بالكامل حول أبناءها، وكأنها تعيش لهم، لترعاهم وتحميهم، وفى النهاية تشعر _كالعديد من نساء العالم_ أن نصيبها فى المقابل العقوق والنُكران.

أم على تتحدث

٩

أصل كل المشاكل: مصطفى والمال

"وكأن (معلش) بتملا البطن"

"خلال الخمسة وعشرين سنة جواز بينى وبين مصطفى، عمره ما غدانى مُرتبه كله فى إيدى مره واحدة، كان كل كام يوم يدينى قرشين أمشى بيهم البيت، زى ما هو عايز يدينى، مش زى ما البيت محتاج، ياما إتحايلت عليه يدينى مصروف ثابت، ٣٠ قرش فى اليوم، أقل حاجه ينفع أمشى بيها البيت، وبرده مكانش بيرضى، مرة يقولى ممعاهوش، أو عنده ديون لازم يسدها، مرة مداين ناس ولسه مدفعوش اللى عليهمن أو الورشة محتاجه مصاريف، معندوش أى حس إقتصادى ولا بيعرف يدبر أو يخطط للعيشة، أنا حتى قولتله إنت فاكر إنك عشان تأكل العيال يوم، اليوم اللى بعده مش لازم ياكله؟! "

إستطردت بأسى:

" أوقات كنا بننام من غير عشا، عشان مبيبقاش سايب ولا مليم فى البيت، إمبارح أنور رجعوه من المدرسة عشان معاهوش ١٠ قروش يجيبب كراسة جديدة، وقبلها بيوم بعتولى نوسه عشان مكانتش لابسه لبس المدرسة، لبسها إتبهدل، ودلوقتى نوسه عيانه،عندها حُمى و روحت معاها

للدكتور كتبلها علاج وقال هاتوهالى كمان ٣ أيام تانى، ومصطفى مجابش فلوس لحد دلوقتى عشان أشترى للبت الدوا! ، عمره ما فكر فى العيال ولا شال مسليتهم أو مسؤلية البيت، كل ما نطلب منه حاجه يقول" بُكرة إن شاء الله"، "معلش" أو "بعدين" وكأن معلش بتملا البطن!."

"أنا معرفش أى حاجه عنه، لا معاه كام ولا صرف إيه، عمره ما بيقولى حاجه وكمان بيكدب عليا وبيغشنى، بجد بجد انا معرفش عنه أى حاجه."

"أنا، من غير ما ولا مليم، المفروض أصرف ع البيت وأكفيه!"

"الغرض مش إنى أعرف معاه كام ولا بيعمل إيه بالفلوس، أنا بس عايزاه يكفى طلبات العيال، أكل ولبس بس، إمبارح سألته "قبضت المُرتب ولا لسه؟" قاللى لسه!، "إزاى لسه؟ إشمعنا كل الناس قبضت وإنت لأ!؟" أنا عارفه غنه صرف الفلوس كلها ع الوشه وفى تسديد ديون عليه، عليه ديون كتير فى كل حته، كمان الورشة بتاكل الفلوس أكل، ومصطفى كريم حبتين مع الزباين! دايما يقدملهم سجاير وشاى، على قاللى، مصطفى كمان بيدخن كتير، ٣ علب فى اليوم، وبعدين يعتمد عليا أنا فى تدبير مصاريف البيت، أنا من غير ولا مليم، المفروض أصرف ع البيت وأكفيه! وفعلا ده حقيقى، لولا أنا بدبر وأستلف كان زماننا فى الشارع من زمان.. بنشحت!

كل ما العيال يطلبوا منه فلوس يقولهم " روحوا خدوا من أمكوا" ، عايزنى أنا أدبر الفلوس بأى طريقة وأستلف، وعمره ما رضى يستلف لنا، بيقولى إنه بيتكسف يطلب من

حد فلوس، تفتكر يعنى أنا اللى مبتكسفش؟، أنا بحس بالذنب عشان ببعت العيال يستلفوا، حاجه تكسف، بس بقول هما صغيرين ومش هيفهموا يعنىإيه سلف ويتكسفوا منه، بس أنا غلطانه، الكبار مبيردوش يروحوا أبداً وأنا لازم أتحايل ع الصغيرين عشان يرضوا يروحوا .

مرة أمين كان عايز فلوس عشان درس الفرنساوى ودرس الحساب، ٥٠ قرش و ٣٥ قرش، وأنا مكانش معايا فلوسنقلتله روح قول لأبوك فى الورشة، بس مصطفى قال ممعايش ولا مليم، أمين كان يعرف إن زميل أبوه فى الشغل كان مستلف منه ٣ جنيه فقاله يا بابا إطلب من الراجل فلوسك، قاله عيب يا ولد ميصحش_ بيتكسف حتى يطالب بفلوسه_ فأمين جه وقاللى " طب أعمل إيه أنا دلوقتى يا ماما، أسيب الدرس؟ إتصرفى يا ماما أرجوكى إستلفى من أى حد "، وإستلفتهم... كالعادة."

"بس إنت فقير، والفقر مش عيب"

"مرة كان واحد صاحب مصطفى غنى أوى، مراته قالتلى "ده أنا عندى هدوم كتير أوى بتاعة الولاد صغروا عليهم، إعملى معروف خديهم"، أنا قلبى رقص من الفرحة وقلت لمصطفى تعالى معايا نجيبهم، إتجنن وقاللى بزعيق" إنتى فكرانى إيه؟ شحاااات؟"، قلتله" لا بعد الشر، بس إنت فقير عيالك محتاجين الهدوم دى، والفقر مش عيب" وبرده صمم ميروحش، قلتله طب هات العنوان وأنا أروح.. مرضيش، طبعا الراجل الغنى فهم إنه جرح مصطفى ومبقاش يجى عندنا تانى، أنا من كتر زهقى من مصطفى إنفجرت وقلتله" الله يلعنك يا أخى".

مرة كنا رايحين رحلة لحلوان_كلنا، أنا وهو والعيال_ ركبنا القطر ولما المُحصل جه مصطفى قطع ٧ تذاكر بدل إتنين!! المفروض يدفعلنا أنا وهو بس، العيال بيركبوا ببلاش،ومرديش يرجع يقول للراجل كده وياخد منه باقى الفلوس، أنا كنت هعيط ع الفلوس اللى راحت دى، الرحلة كلها باظت بالنسبالى، ومرة تانيه ركبنا تاكسى كان مفروض ياخد ٢٠ قرش، مصطفى إداله ٥٠ قرش والراجل إداله باقى ٢٠ قرش بدل ٣٠، مصطفى معترضش ولا إتكلم!، ولما روحنا البيت إتخانقت معاه خناقة كبيرة وقلتله" إنت بتتصرف كأنك راجل غنى" .

خيانة !

"بيقولى " ما تسيبى العيال يموتوا من الجوع" ، حتى احمد_أخوه_ بيشجعه وبيقولى كده زيه "ما تسيبى العيال تعتمد على نفسها"، بيتكلموا كأنهم مجانين! أزاى يعنى العيال تبقى جعانه ومجيبلهمش أكل ؟ مرة كنا لسه جُداد فى الشارع ومنعرفش حد عشان نستلف منه،ومكانش فيه ولا مليم فى البيت، وكان يوم جمعه، مصطفى خرج فى نص اليوم وقال أنا مش هتأخر، هجيب فلوس وأجى، أنا كنت حاسه غنه رايح يلعب كورة، بس هو قاللى لأ، وإتأخر برده وجه الساعة ٨ بليل من غير ولا مليم، قاللى المحفظة إتسرقت منى فى الأوتوبيس وقعدت أدور عليها ومعرفتش أرجعها، قلتله إنت كده ضيعت وقتك، ما كنت تدور عليها فى أرض الملعب أحسن! فى الوقت ده هدى كانت قاعدة عند شباك المطبخ بتبص على أم جمال وبتقولها " والنبى يا خالتى أم جمال إدينى أى حاجه اكلها، أنا جعانه أوى" ،

حمدت ربنا إن أم جمال مكانتش فى البيت ومسمعتهاش، ريحة العيش طالعة من الفرن البلدى اللى تحت البيت والعيال جعانه، قلت لعلى يروح لأختى فايزة يستلف منها قرشين نجيب بيهم عيش حاف، بس هيا قالتله " معييش فلوس" ، هى مبيهماش إلا نفسها".

توفير!

تعلم أم على جيداً أن الناس تحملها مسؤلية ما آل البيت إليه، تلومها لرضاها بالأمر الواقع وعدم محاولة تغيير مصطفى، يقولون" بتقولى هات هات، ومش بيديكى حاجه وبتسكتى، طبيعى يتعود على كده" لكن هذا ليس حقيقى تماماً، فهى لم تكن أبداً تجيد الخداع او النفاق قبل زواجها، ولهذا لم تتخيل أبداً أن زوجها سيخذلها هكذا، كانت تعتقد أنه كزوج سيتحمل مسؤلية بيت وأسرة، كانت بالبراءة _حين تزوجت_ التى تجعلها تثق بكل الناس ولا تتوقع السيىء أبداً.

ما تعتقده أم على حقيقى، فالناس حقاً تتحدث هكذا عنها، زوج أميرة أختها قال لى " ام على هيا الغلطانه، وهى المسؤلة عن حالتها دى، هى اللى معودتش مصطفى إنه يشيل مسؤلية، كل ما يقولها" مفيش فلوس أو بكرة إن شاء الله" كانت تستلف فلوس عشان تساعده وتصرف ع البيت، هى ربته ع الدلع " . أم على ترد على كلامهم بسخرية ، فمصطفى من وجهة نظرها ضحية، ضحية لظروف قاسية وأصدقاء سوء، وكونه نشأ بدون أم، ماذا تتوقعون من شخص عانى مثله؟!!.

"و كلكم مسؤل عن رعيته "

" فى مرة قطعوا عننا الكهربا عشان مدفعناش الفاتورة من ٣ شهور، فى نفس اليوم كريمة بنت عم مصطفى جت وطلبت منه فلوس، مصطفى قالها إن معهوش غير عشرين قرش وإداها نُصهم!!، أول ما مشيت عملت معاه خناقة كبيرة " يعنى سايب ولادك جعانين وعطشانين وبتفنجر(تصرف بسخاء)ع الناس؟! " . قاللى " دى بنت عمى مش وادة غريبه من الشارع" قلتله " ولو.. مكتوب فى القرآن (كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته) مش هينفعك فى الأخرة إنك بتصلى الفرض وسايب عيالك جعانين، يوم القيامة ربنا هيوديك ع النار عِدل، عشان بتهرب من مسؤلياتك.. الأول، المفروض تأكل عيالك وتلبسهم، وبعد كده ممكن تعطف ع الناس الغُرب، وربنا هيجازيك" .

سألت أم على هل كانت غاضبة من كريمه أيضاً؟ فأجابت أن كريم تعمل مثدرسة بمرتب ستون جنيهاً، وهى أبعد ما تكون عن الحاجه، فهى لا تملك إلا طفلين.

" أنا إتخانقت مع مصطفى بس عشان انا عارفه إن كريمة مش محتاجه، وكريمة متعرفش حالتنا عامله إزاىن مع إنى قلتلها اول ما جت إن بتوع الكهربا يادوب لسه ماشين وقطعوا علينا النور، وإن العيال جعانه..."

(كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته) حديث نبوى وليس آيه فى القرآن.*

" مصطفى كمان كان متعود يدى أخته أمينه فلوس، كانت بتيجى تقعد معاه فى الورشه ويجبلها بيبس، الشاى مكانش بيعجبها، وهى ماشية تقوله هات فلوس الأتوبيس، كان يديها خمسين قرش أو ممكن جنيه كمان، مع إن تذكرة

الأوتوبيس ب ١٠ قروش بس! ولما يجى من الورشة يقول أمينه بتسلم عليكى وبتقولك معلش مكانش عندها وقت تجيليك، هو لازم يقول أى حاجه عشان عارف إن على هيقولى غنها كانت عنده، الورشه على بُعد عشر دقايق من البيت، وقت إيه اللى معندهاش ده، حِجه فارغة.... أنا كنت متضايقة من أمينه عشان هى بتستغل حب أخوها ليها وتاخد منه فلوس، مع إنها فى الوقت ده مكانتش محتاجه، الكلام ده كان قبل ما جوزها يسبها.. كريمة برده مش محتاجه، كانت عايشه لوحدها هى والولدين، جوزها بيشتغل فى بلاد بره، وهى بتدفع إيجار خمسه جنيه من ال ستين جنيه اللى بتقبضهم، بس* بتدخن كتير أوى، علبتين فى اليوم! كانت بتطلب من مصطفى يشيل معاه الفلوس الباقية بعد ما تدفع الإيجار، عشان الفلوس كلها متضيعش ع السجاير، وكانت بتيجى كل يوم تاخد منه فلوس قليله، بعد عشر أيام بيكون المُرتب خلص، وبرده بتاخد منه فلوس !.

*كريمه تعودت التدخين حين كانت تعيش خارج مصر، فى الغالب النساء المصريات لا يُدخنن.

"ماهو مش إنت اللى هتتكسف م الفضيحة"

" مصطفى عمره ما بيدفع الإيجار فى معاده، مش فى باله، لا الشقة ولا الورشة، مرة صاحب البيت جه وهددنا إنه يبيع عفشنا لو مدفعناش الإيجار المتأخر، انا قلت لمصطفى لو جاب ٣ جنيه فى الشهر بس انا هحاول أدبر الباقى، أجرت الأوضه الكبيرة لإتنينن وقعدنا كلنا فى اوضه واحده، إحنا الستة، بس مصطفى الله يسامحه، منفذش

إتفاقه معايا وجه صاحب البيت تانى بس المره دى كان ناوى يبيع حاجاتنا بجد، بس خاف على حاجته لتضيع فى النص فمشى، وبعدها برده مصطفى قعد ٣ شهور ميدفعش الإيجارن صاحب البيت نفذ تهديده ورفع علينا قضيه، وجالنا إستدعاء مع مُحضر من المحكمه، كانوا عايزيزن يبيعوا كل حاجه فى الشقه، حاجاتى، انا معايا قايمة بالعفش، إنه بتاعى انا، مِلكى، بس هما مفكروش قالوا هنحجز ع العفش وبعد كده أنا ممكن أشتكى أو أرفع قضيه..

روحت لصاحبة المحل اللى على ناصية الشارع_ربنا يبارك فيها_ وقلتلها تنجدنى، إدتنى خمسه جنيه عشان أدفع إيجار شهر وقالتلى هعملك جمعيه، هى تجيب خمس انفار وأنا أجيب خمسه، كل يوم هدفع ثلاثين قرش، وأقبضها بعد خمس أيام ويبقى معايا ١٥ جنيه فى إيدى، أنا بوستها وقعدت أدعيلها وأقولها "إلاهى يباركلك يارب، ربنا يجازيكى خير".

بس مصطفى _الله ينتقم منه_ لما حكتله وقلتله عايزة ١٥ جنيه قاللى "معاييش" و"ربنا يحلها من عنده" و"معلش" والكلام الفارغ بتاعه ده اللى لا بيودى ولا يجيب، انا قلت عادى ، ماهو عشان مش هو اللى بيتفضح ويتكسف واخد الموضوع ببساطه، المرة الجاية لما صاحب البيت يجى هبعتهوله ع الورشه وهو يفرج الناس عليه بقى، عشان يعرف إن الله حق، ويحس أنا إزاى بتفضح وأتحرج كده قدام الناس..

الموضوع إنتهى بالطلاق، سبتله البيت، جالى ووعد قدام بويا ومرات أبويا إنه هيدفع الإيجار وفاتورة الكهربا كل

شهر، وإلا مش هارجع، أنا قلت الكهربا والإيجار بس،ميهمنيش فيه أكل او لبس ولا لأ، تتدبر... قبضت الجمعيه ورحت أدفع الإيجار، ولأول مرة أطلب منه وصل ب الفلوس، انا قلت ده راجل معندوش قلب وكان هيرمينا فى الشارع، يبقى لازم أضمن حقى، معرفش ممكن يعمل فينا إيه، قلتله يحضرلى الوصل على ما أجيب الفلوس من مصطفى، خفت أدفع الأول يقولى الوصل بعدين، قاللى إنتى مش مأمنالى وبتخونينى وزعل، بس صحيح أنا مش مأمناله، ومصطفى مكانش عايز وصل وقاللى مالوش لازمة، بس أنا قلت للراجل مصطفى و اللى طلب الوصل."

"مشكلته مش فلوس، مشكلته فى مُخه"

ذات مرة، أثناء جلوسى مع أم على، دخل علينا أخيها أحمد مُحملاً بأخبار غير سارة، أمس إضطرت الشُرطة لغلق ورشة مصطفى بالقوة لتأخر مصطفى عن دفع الضرائب لمدة إحدى عشر عاماً، فتراكم المبلغ ليصبح ثلاثة وثلاثون جنيهاً مصرياً

أكد أحمد أنه يعلم أن مصطفى تلقى العديد من التحذيرات من قبل،لكنه كان يتجاهلها تماماً إلى ان وصل الحال لما هو عليه وتحولت التهديدات إلى فعل حقيقي ! كانت صدمة ام على فيما سمعته شديدة، ليس لسوء الخبر نفسه، ولكن لأن مصطفى لم يخبرها بشيء كذلك بنفسه، فهى تؤمن أن يكون الزوج كتاب مفتوح لزوجه، يتشاركا الأحلام والأفراح والمشاكل، فى كل مرة تعلم فيها أخبار عن مصطفى من طرف اخر تشعر بألم عميق، وإهانه.

أكد أحمد على ام على ألا تُخبر مصطفى بانها علمت ما

علمته منه، وفى اليوم التالى أخبرها احمد ان مصطفى إقترض المبلغ من صديق وتمكن من فتح الورشة مجددا ، "ومين بقى اللى هيسدد الفلوس دى؟!" سألت أم على بغضب واضح، ولم يتمكن أحمد من الإجابه.

مرت أيام قليلة ليخبر مصطفى أم على بالقصة، طالباً منها ان تساعده في إقتراض المبلغ، "ممكن تعملى جمعية" إقترح عليها واعداً إيها بالسداد فى أقرب وقت، كالعاد لم تتأخر ام على فى تقديم المساعده لى أمل أن_إن شاء الله_ يصدق وعده لأول مرة.ولكن... الأيام تخبىء الكثير..

فى أكتوبر ١٩٧٥ أيضاً، أخبر على أمه أن أبوه مهدد بالطرد من الورشة أن لم يسدد ما عليه من إيجار تأخر- سبعة شهور- فى خلال خمسة عشر يوماً، ولم ينطق مصطفى بكلمة واحده عن الموضوع، " مكسوف من نفسه" وضحت أم على " أصل دى خامس ورشه عنده-كانت خامس ورشة أقصد_ تتقفل بسبب إنه مبيدفعش الإيجار".

بعد يومين جاء مصطفى لزوجته و " فتح القصة معاها" كما يقول المصريين، كعادته، أخبرها طمعاً فى مساعدته،" إستلفى من أخوكى عادل" لكن أم على قابلت إقتراحه بغضب وثورة وذكرته أنها بالفعل تدين لعادل بالكثير من الأموال بسببه، غير ان عادل نفسه يمر بضائقه هذه الأيام ومن المستحيل طلب مساعدته.

"مش مشكلة إن الواحد يغلط، لو بيتعلم من غلطه، إنما مصطفى بيغلط نفس الغلطة مرة وإتنين وتلاته!"

فى النهاية تعاطفت أم على مع زوجها ودبرت له ما يريد، ليس فقط من أجله ولكن من أجل الأطفال والبيت،

فعلتها وهى تؤكد انها حقاً وصدقاً وبالتأكيد ستكون الأخيره.(فى الواقع لن تكون).

"الورشة بتاكل الفلوس أكل، الناس فاكرين ياما هنا ياما هناك عشان عندنا ورشة، ومش عارفين حالتنا صعبة إزاى، حتى اخويا فاكر زيهم! حتى لما مصطفى سافر يشتغل فى السعوديه معملش حاجه، مصطفى مالوش فى الشغل والمعامله فى الفلوس، خالد اللى كان خطيب هدى كان دايماً يقول عليه "مشكلته مش فلوس، مشكلته فى مُخه" .

مصطفى.. الرجل الطفل

كل تلك السنين التى عرفت فيها ام على، لم تنفك تحكى وتشكو لكل الناس، القريب والغريب، من مصطفى الرجل العنيد، الذى لم تنجح كل محاولاتها لإصلاحه أو تقويمه، وعن أكاذيبه وألاعيبه التى حولت حياتها لجحيم، فهو وحده المسئول عن سوء حالة العائلة وعن كل المتاعب التى تواجهها أم على، أحياناً أسمع أم على تعاتب مصطفى و أنتظر سماع رده ولكن بلا جدوى، فماذا نتوقع منه؟وهل من أعذار؟ مصطفى يعى تماماً أخطائه ويعى تماما ما يسببه لأم على وأبناءه من متعاب، هو يعلم جيداً مدى فشله..للأسف.

أم على لا تجد غضاضه فى أن يقع الناس فى أخطاء، فهى تؤمن أن البشر خطاءون، لكن ما لا تستطيع غُفرانه هو أن مصطفى لا يتعلم أبداً من أخطائه، و فوق هذا يبرر دائماً أخطاءه بسوء الحظ ويحاول إسكاتها بكلمات فارغه لا قيمة لها.

إنتقاد أم على الدائم والصريح لزوجها يتعارض مع

قيمة من أهم القيم فى البيت المصرى والتى طالما حاولت أم على تعليمها لبناتها، ألا وهى ان الزوجة لا بد أن تطيع زوجها وتسانده أياً كانت ظروفه أو معاملته، فما أكثر من كلام أم على لبناتها عن طاعة الزوج " شوفوا أنا بقول لأبوكوا خاضر على كل حاجه إزاى! عمره كان كويس معايا؟ بس ده كلام سيدنا النبى)لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها..وحينما إعترضت هدى على أوامر خطيبها_السابق_ و إعتراضه على طريقة لبسها، قالت له ام على " إضربها، أنا سمحالك بده، الست لازم تسمع كلام راجلها" !

ربما تختلف رؤية أم على لتلك القيمة أو المبدأ، فهى ترى أن على الزوجه تنفيذ طلبات الزوج والقيام بواجباتها بكل إخلاص فيما لا يتعارض مع القيم الروحانيه والمبادىء الأساسيه، فمصطفى كما تراه أم على لا ينفذ أوامر الله "كلكم مسؤل عن رعيته" بجانب أن كل ما يفعله مصطفى يتعارض بشده مع كل القيم الأخلاقيه والدينيه، لذلك لا تجد أم على غضاضه فى إنتقاد مصطفى والتجريح فيه مادامت تشعر بداخلها بأنها لا تزال زوجة مثالية تقوم بواجباتها على أكمل وجه. أليست هى من تنقذه من كل ورطه يقع فيها؟ ترى أم على أنها على عكس الكثير من النساء مُخلصه لأبعد الحدود، أى إمرأه أخرى كان من السهل أن تستنفذ كل أمواله، وتفرغ جيوبه أول بأول، و تخونه كما يخونها، لكن أم على لا تفعل.

من وجهة نظر أم على، مصطفى وحده المسئول عن مأساتها هى وأطفالها، لا إهمال الحكومة للقطاع الأكبر من

السكان-الفقراء- وعدم تمكنها من توفير مساكن ووظائف بسبب الإنفجار السكانى، ولا التضخم المالى- أوغلاء الأسعار كما تفهمه أم على – فقط أخطاء مصطفى، فى الحقيقة أم على كسائر المواطنين تعلم جيداً أسباب ما هى فيه، وتسخط على الحكومة ولكن هى تعلم حدود قدراتها، وتعرف أنه لا سبيل لها لمواجهة الحكومة، ولكن ظروف كظروف أم على تحتم على أى شخص بذل أقصى ما فى وسعه للفوز بأفضل ما يمكن ، لكن مصطفى على العكس تماماً، فكل ما يفعله يُصعب الحياة أكثر فأكثر.

مصطفى،كرجل فقير، أتيحت له الكثير من الفرص الإستثنائية للتزحزح بعيداً عن دائرة الفقر المضقع تلك، مُفتش فى هيئة النقل العام،اى هيئة حكومية بكل إمتيازات موظفى الحكومة، و إمتلاكه لورشة خاصة ،بالإضافة إلى فرصة الحصول على منزل خاص "برُخص التراب" أتيحت أكثر من مرة، اى شخص اخر غير مصطفى كان سيتعلم إستغلال تلك الفرص لصالحه هو وأبنائه، ولكن مصطفى بطبيعة الحال أضاعها بأقل مجهود! فمثلا: مرة من المرات عُرضت عليه قطعة ارض فى منطقة الهرم مقابل خمسون قرشاً (نصف جنيه) للمتر المربع وكان الرد : "لا، شكرا" ، (لا) !! أعلم انك تعتقد الآن أنه مجنون! " وكنت هعمل بيها إيه يعنى ؟، أنا مش هاخدها معايا وأنا ماشى!" هكذا رد مصطفى،فكان رد أم على المنطقى جداً " بس ممكن تسيبها لعيالك" .

حين تُفكر أم على فى حال زوجها فى أوقات هدوئها،تؤكد ان مصطفى ليس أسوأ الرجال ولا أفضلهم،

الكثير من الرجال على نفسٍ شاكلته، لكنها تشعر بالحسرة والمرارة لأنه يبدوا الأسوأ أياً كان ما يبدوا عليه صحيحاً ام لا، غير أنها حين تفكر بعملية أكثر تكتشف أن كونه الأسوأ على الإطلاق أم أن هناك الكثير مثله شيء غير مهم، فما الفائده من مقارنته برجال أسوأ أو أفضل !

تتفرد أم على فى نقدها الخفى والصريح لزوجها مصطفى، معظم النساء الائى عرفتهن يتخلين عن مسؤلياتهن كرد فعل لسوء معشر الزوج، اما أم على فتقوم بكل واجباتها على اكمل وجه وفى المقابل لا تفوت فرصه لنقد مصطفى بطريقة تحليلية عميقة ، نظرتها المتفحصة لتصرفات مصطفى وقدراتها البلاغية الفطرية تجعل من شكواها دراسة كاملة متكاملة عن أحوال مجتمعها بكل سلبياته، بجانب تضمين شكواها لبعض المبررات، فى الواقع ليست أم على بحالة غريبه على المجتمع المصرى، فالمصريين عموما شعب يتقن فنون الكلام ويستطيع إيجاد كلمات مناسبة دائماً لوصف الأحداث و المشاعر.

منذ بدأت أم على قراءة الفنجان، علمت الكثير من النساء و الرجال على حدٍ سواء الإفصاح عما بداخلهم، من اللافت للنظر ان مشاكل الجميع تتشابه بشكل كبير، تكاد تتطابق، غالباً ما تكون الشكوى من الزوج أو الزوجه أو مشاكل فى العلاقة بينهم.

منذ بدأت أم على قراءة الفنجان، علمت الكثير من النساء و الرجال على حدٍ سواء الإفصاح عما بداخلهم، من اللافت للنظر ان مشاكل الجميع تتشابه بشكل كبير، تكاد تتطابق، غالباً ما تكون الشكوى من الزوج أو الزوجه أو

مشاكل فى العلاقة بينهم.

الكثير من النساء يشاركن أم على تجربة الحياة المُفرحة التى تنتهى فجأة بالزواج، الناس أنفسهم يدركون ان سبب تلك النقلة الغير سعيده هو سبب إقتصادي بحت، زيادة الأعباء المادية والمشاكل الإقتصادية الانهائية التى يواجهها حديثي الزواج. التحول المفاجىء من خطيب مُحب لا يتوقف عن غزل خطيبته وغمرها بالهدايا وعذب الكلام إلى مجرد ممول للبيت، ممول مُحمل بالهموم، يتحمل عِتاب زوجته في حالة تقصيره فى توفير إحتياجات البيت والأطفال، في المقابل، يتوقع الزوج _الممول_ أن تكون العلاقة تبادليه بينه وبين زوجته، فكما وجب عليه الإلتزام بمصاريف البيت، وجب على الزوجه العمل على راحته، خدمته ورعاية أبناءه، كما وجب عليها الخضوع وغل إمتثال لرغباته الجنسيه، ولكن عادة ما تتنكر النساء تلك المطالب، حيث تجد الزوج في بادىء الأمر لا يقوم بواجبه نحو البيت فبالتالي ليس من حقه طلب أي مقابل.

بالطبع فشل الرجال هو أكثر ما يؤثر على النساء والأطفال، وعلى الرغم من أنهم نادرا مايعانون الجوع إلا أنهم –لكي تستمر الحياة– مضطرين للتخلى عن الكثير مما يتمنين من الحياة، بالإضافة إلى ذلك_ والأهم_ أن فشل الرجل وعجزه عن توفير إحتياجات أسرته يتسبب فى نقص ثقة الأطفال، ودونية النظرة لأنفسهم، وفقدان إحترام المجتمع ففى مجتمع كهذا حين يراك الناس جوعان او ترتدى حذاء متهالك على سبيل المثال تفقد ماء وجهك وكرامتك (وهنا –كمعظم المجتمعات فى العالم الأطفال والنساء

يعتمدن على الزوج إعتماد كامل بالنسبة لوضعهم الإجتماعى.)(فالوضع الإجتماعى للرجل يرثه الأبناء، وضع الأسرة الإجتماعى يتحدد بناء على وضع عائل الأسرة الرجل_ وما يُحسب فقط هو ما يحضره للبيت من أغراض وأموال تظهر فى صورة أغراض مادية يراها الآخرون ،المجتمع._

من هذا المنطلق تكن إنتقادات أم على لمصطفى مفهومة، لكنها أيضا تعكس حقيقة أنها تعيش فى مجتمع يسمح لها بالكلام عن زواجها بصراحة وفى العلن، فهى كالكثير من النساء يحاولن إنقاذ مايمكن إنقاذه من سمعتهم بالبعد عن الرجل، فهن يرفضن تدمير ذاتهم وكرامتهم الشخصية بكونهن معتمدات كليا على الرجل، الرجل الذى عادة ما يدمر إحترامهم لذاتهم بفشله المتكرر..الحقيقة هن يستطعن فعل ذلك دون تكلف الكثير من العناء كما يحدث فى مجتمعات أخرى، ففى ثقافة الطبقة الوسطى النرويجية مثلا يبدوا الزواج ناجحا متخفيا تحت ستارة الإنسجام ولكن تلك الواجهة تخفى العديد من حسرات النساء اللائى لم يستطعن الإعراب عن مشاكلهن فقط بدأن فى المصارحة مع بدايةالحركات النسائية. لكن فى القاهرة الوضع مُختلف.

النساء فى مصر –اللاتى عرفتهن– تربين فى ظل ثقافة لا تتضمن أو تتطلب زواجا سعيداً ببساطة لأن كل المشاكل والصراعات واضحة ومعلومة للجميع فى الزواج كما فى أى علاقة أخرى .

الأكثر من ذلك النساء على شاكلة أم على تربين على

كونهن شخصيات مستقلة منفصلات عن أزواجهن لذلك فهن يستطعن الوقوف فى وجه (أعراف المجتمع) الرجل والمرأة فى الثقافة المصرية منفصلان مرتبطان فى نفس الوقت فالمرأة ربما تكون معتمدة على زوجها إقتصاديا لكنها لا تتوحد معه ولا تحتاج للتكامل المعنوى أو الأخلاقى مع الرجل فى الواقع النساء القاهريات أكثر تحررا من النساء الغربيات

مشكلتهم هى أن وضع المرأة ومكانتها الإجتماعية تتحد بشكل كبير –كما يرين– على المساعدات المادية التى تلقاها من زوجها ولكن هناك مهرب فالنساء عادة لايملكن قوة التأثير على شكل وبناء أخلاقيات المجتمع ولكن بالتأكيد تطبيق مبادئهم وقيمهم الأخلاقية على أنفسهم وبينهن يمكنهم الجدال حول قيمة الشخص فى المجتمع لا تتحدد بناءاً على أشياء مادية بحتة إنما تتحدد بناءاً على أخلاقيات وروحانيات الفرد.

يمكنهم إعلان أن النساء ستبنى معايير أخرى غير تلك المعلنة فى المجتمع ككل وبذلك يستطعن إثبات احترامهم ال١اتى وربما ينجحن فى مساعدة الآخرين فى تغيير نظرتهم وإحساسهم بذاتهم.

إستقلالية ومسئولية المرأة تظهر أيضا فى سياقات أخرى على سبيل المثال عندما تكون المرأة بمثابة حكم فى منازعات عادة ما تلعب دورا قويا ومستقلا تظهر سيطرة وإستقلال المرأة أكثر فى المسائل الإقتصادية وكل مايتعلق بها من إدارة الفروض والجمعيات مرتب الزوج فى المقابل كان بعيدا عن متناول معظم نساء جيل أم على ومع ذلك استطعن

جميعا تولى المسئولية الإقتصادية للمنزل خصوصا فى حالات فشل الزوج وتركه العائلة تترنح بلا دعم تظهر أيضا مسئولية الزوجة الإقتصادية فى حرية تقرير وقت الإقتراض اذا لزم الأمر دون الرجوع للزوج وهى من تتولى أمر السوق والمشتريات وتوفيرها وإدخارها أيضا وأخير النساء هن من يخططن للمستقبل البعيد بمنهجية صحيحة ويستثمرن سواء كان ذلك فى مجال تعليم الأطفال أو تعزيز وتحسين مستوى معيشة الأسرة وتحسين المسكن وربما حتى امتلاك منزل جديد.

كل تلك الوسائل المختلفة ممكن أن تخفف أوتقلل من الهزائم المزمنة أو الدائمة لأزواجهن ولكن لامهرب حقيقى من تلك القيم السائدة فى المجتمع الأكبر أو التحرر من سيطرة الفكر المادى والتركيز على الثروة المادية التىتظهر بوضوح من خلال حرصهم أنفسهم على إظهار الأشياء ذات القيمة كلما سنحت لهم الفرصة.

تمردهن على أزواجهم غالبا ما يكون فى إطار لفظى فقط، لاثورة فعلية، تقول أم على "هيفيدنى بإيه العند؟ كله هايجى على دماغى" النساء، الرجال، والأطفال ها هنا يتشاركون نفس العجز والتبعية، لذلك فشكوى النساء الدائمة من فشل أزواجهم وإنتقادهم ووصفهم بعديمى الفائدة شيء لا يجب التقليل من أهميته بل هو أمر ضرورى لصحة النساء النفسية والعقلية، لابد من مخرج !، فى مجتمعى عادة ما يلجأ النساء إلى مضادات الإكتئاب، والحبوب المنومة، وأخصائيو الصحة النفسية ، أما النساء كأم على فعليهن مواجهة الأمور بأنفسهم.

السؤال الذى يطرح نفسه هنا، لماذا يستمر هؤلاء النساء فى الأمل فى أزواجهن ؟وفى أنهم سيتغيرون وتتغير حياتهم بالرغم من كل تلك التجارب المخيبة للآمال ؟؟ وكأن الأمل هو جزء من مكون هؤلاء الناس ربما يكون فى عظامهم.

كل البيئات الإجتماعية تعلم الناس المثابرة وبذل الجهد لجنى ثمار تلك الجهود، التخلى عن الأمل بمثابة التخلى عن الإيمان بالله.

وهو ما يعطيهم الدافع والقدرة على لبتحمل وأيضاً ما يزودهم بالثقة فى المثال الجيد وقدرة الرجل لإعادة تشكيل نفسه الحقيقية إيمان الناس بقدرة الإنسان على التغيير رائع بطريقة لافتة للنظر .. التفاؤل هنا هو القاعده، وأى شخص يتصرف تصرف سيى لا يحسبه الناس بالأمر الكبير، وإنما يتعاملون على إنه مجرد "تصرف" أو "سلوك" سىء، ولا يؤثر على الحكم على الفرد نفسه.

11
الحب والزواج

هناك أسباب كثيرة وراء إعتبار المساهمات الماديه من الرجال للنساء أمر لا يزال أساسى وضرورى،بالرغم من إنكار النساء هذ، فى مجتمع لا يجروء فيه المحبين على إظهار حبهم فى العلن، فالزوج لا يستطيع إظهار عاطفته وحبه لزوجته أمام الناس، لذلك الطريقة الوحيده لإظهار الحب للزوجه هو الهدايا العينية، وتلبية طلباتها وإحتياجات المنزل وألأطفال من المال والطعام والملابس، وكل تلك الأشياء الملموسه.

لكن الرجال يتهمون النساء بالرياء وحب "المنظرة"، فهى تطلب من زوجها فقط لتقول" بصوا جوزى جابلى إيه؟" ، الرجل يشعر دائماً انه يفعل أقصى ما فى وسعه لتلبية طلبات زوجته، بعضهم يعمل أكثر من عملين فى اليوم الواحد ويكون متوسط ساعات العمل الإسبوعيه يناهز الستين ساعه! لذلك يحب الرجل أن يفعل ما يشعره برجولته بين الرجال_من وجهة نظر ذكورية بالطبع_ فهو يدخن ويشرب الخمر بين الحين والأخر و لا مانع من بعض السهرات، يصرف الرجال على تلك الأشياء ثُلث دخولهم، بالنسبه لهم هذا نوع من الترفيه المشروع، أما النساء فيعتبرن تلك التصرفات "خيانة".

بطبيعة الحال، المرأة مُدركة تماماً لمعضلة الرجال، تعلم أن الرجل يحب أن يكون سخياً بين أصدقاءه، ولكنها تشعر أن من حقها، تطبيقاً لمبدأ المعاملة بالمثل، أن يعوضها عن ما يفشل فى تحقيقه بطرق أخرى، فمثلا يسطيع إظهار الرعاية والحب لأطفاله حين يمرض أحدهم، أو أن يظهر بعض الإهتمام والموده لها حيت تكل أو تشعر بتعب، أيضا الترفيه عنها وعن الأطفال بين الفينة والأخرى، التنزه مثلا فى حديقة ما أو إصطحابهم لحديقة الحيوان.. للأسف، إستناداص على حكايا النساء عن الزوج المثالى و ما يفعله، نجد أن مصطفى أبعد ما يكون عن المثاليه، حتى وصفه بأنه زوج "عادى" غير ممكن.

"كأنى عشيقة درجة تالته"

" مصطفى بيعاملنى كأنى عشيقة درجة تالتة، كذا مرة اقوله إنت مش عايز حاجه غير إنك تنام معايا، كأنك

جبيتنى من الشارع، مش مراتك!، عارفه أول ما إتجوزنا جديد، كنت بتزوقله وألبسله حرير وأسرح شعرى وأفرده على كتفى كده، وكانت دايما ريحتى حلوه، وأستناه بليل، اول ما ييجى يدخل يرزع الباب و يقولى" يا ساتر، أنا جاى مبسوط من بره دلوقتى عايز أرجع تانى مطرح ما كنت" .. قلتله " إنت شايف شنب فى وشى ؟؟"، "شايف عفريت قدامك؟" .. كنت حزينه أوى ، كنت بقف قدام المراية أبص على نفسى ، وأشوف إيه الغلط فيا، أنا مش وحشة، ولو أنا عامله زى العفريت زى ما بيقول، طب مبيطلقنيش ليه؟ أنا حاسه إنى مسجونه! كان كل جمعه يخرج مع صحابه ويسبنى فى البيت، ولما طلبت منه يخرجنى قاللى " إنتى كفايه عليكى تقعدى فى الشقة" ، قلتله " ما أنا برده بنى أدم ولازم أتحرك وأمشى رجلى" قاللى" إبقى إتمشى فى الشقة"، قلتله " طب نفسى أشم هوا" ، قاللى "إبقى إفتحى الشباك".

تجربة

"مصطفى عمره ما فكر يفسحنا، هو نفسه مروق نفسه، إنما أنا والعيال....! ، حاولت أفهمه إن العيال "محتاجين" يرفهوا عن نفسهم، لازم يتحركوا ويشموا هوا جديد، بس مصطفى بيعمل نفسه مش سامع أو يقوللى "خلى على يخرجك"، لما أمين كان عايش، كان عاقل وحكيم، وكان دايما يقول لأبوه " إنت جوزها، لازم تخرجها"، إنما على عامل زى أبوه، بتاع كلام وخلاص .

مرتين فى حياتى بس روحت السيما، والمرتين كنت أنا والعيال لوحدنا، عشان أخلص من زنهم، كنت ببقى

متضايقة ،الناس كانت بتبص علينا وتبحلق فينا، ست لوحدها مع العيال من غير راجل، جايين يعملوا إيه فى السيما، مرة وأنا واقفه فى الطابور بقطع التذاكر، راجل خد منى الفلوس وجابلى هو التذاكر، كان لطيف أوى وجاب للعيال فشار، شكرته ودخلت أنا و العيال القاعة، بس لقيته ماشى ورايا وقعد جنبى، وقعد يكلم العيال ويلاعبهم، أنا قلقلت منه، لما خرجنا عملت إنى مستنيه جوزى يجى ياخدنا وقلت للواد على " ياترى أبوك إتأخر ليه؟" ، الراجل سألنى هو إنتى بتخرجى، قلتله مش فاضيين، وبعدين بتسأل ليه ؟؟ قاللى " يعنى ممكن نبقى نخرج مع بعض" ، قلتله "عيب عليك، المفروض تتكسف من نفسك ، ولا عشان جبت حاجه للعيال، خد تمنها اهو".. الراجل قاللى "لأ أبداً، أنا كمان متجوز وعندى عيال، إنتى زى اختى برده"، ضحكت ضحكة سخرية وقلتله " بدال زى أختك يبقى خد مراتك وعيالك خرجهم أحسن" ور ميت الفلوس فى وشه وخدت العيال ومشيت.. ولما رجعت حكيت لمصطفى عاللى حصل وقلتله " إنت عايز الرجاله تعاكسنى عشان كده بتسبنى أروح السيما لوحدى"، قاللى " ده إنتى اللى عايزه الرجاله تعاكسك عشان كده كنتى مُصممه تروحى".

أشك أن أمين قال لوالده مثل هذا الكلام، ربما يكون قاله لأمه.

"مُصممه! ،إنت ليه مش عايز تفهم إن العيال هى اللى عايزة تخرج، العيال محتاجه تتفسح" وقعدت أحكيله بقى عن تعبى مع العيال عشان أمنعهم يخرجوا يلعبوا فى

الشارع عشان ميتعلموش حاجات وحشه، وإنهم أطفال وبيحتاجوا يلعبوا ويخرجوا، وأنا مبعرفش أمنعهم بالذوق فبضربهم وأحبسهم فى البيت، عشان كده لازم أخدهم رحلة لجنينه ولا لحديقة الحيوان، او السينما، لو مصطفى فاكر إنى ببقى مبسوطة وبتفسح أنا كمان لما باخدهم السيما يبقى لازم يفكر تانى، كل شويه حد منهم بيبقى عايز يروح الحمام، وحد يجوع أروح أجبله ساندوتشات، وبعد شوية فشار ولا حاجات حلوه، ببقى عامله زى النحلة طالعه نازلة، رايحه جايه، ومبعرفش حتى الفيلم بيتكلم عن إيه.

بس هو ده مصطفى، عمره ما حس بالعيال ولا عِرف هما عايزين إيه، وحتى لو عرف مبيعملش حاجه!.

مُشاركة

مصطفى عُمره ما شال معايا مسؤلية العيال، مرة لما كانت "عليا" عيانه و عندها ضيق تنفس، الدكتور قاللى "عُمرك ما تنامى قبل ما تديها الحقنه، لازم الحقنة كل ليلة"، مرة إتأخرت وكنت تعبانه، وكان لازم أروح أوديها الصيدلية تديها الحقنه والوقت إتأخر، قلت لمصطفى خد البت إديها إنت الحقنه، رد قاللى " مش شايفانى جاى تعبان م الشغل، هو أنا قاعد طول النهار مبعملش حاجه زيك؟" ، كنت حامل فى السابع، وعليا كان عندها أربع سنين، وكانت مليانه وتقيلة، شلتها على كتفى ولفيت بيها من صيدلية للتانيه، ٢٥ صيدلية روحتهم كلهم قافلين، وأنا بلف كان فيه جزار فاتح، قلتله يمكن يعرف يساعدنى، قاللى روحى محطة الإسعاف وهتلاقى الحقنه هناك، روحت قاموا قالوللى

روحى المستشفى، وأنا رايحة المستشفى كان الجزار لسه فاتح وكان عنده زبون، الراجل كان معاه عربيه، قاللى أوصلك، بس كان مستحيل أروح معاه وأنا لوحدى من غير راجل، الراجل قاللى هوديكى وأجيبك تانى، بس أنا مرضتش، بعد مشوار طويل وصلت المستشفى، ضهرى كان إتقطم خلاص، دخلت و الممرضة قالتلى" مفييش" قولتلها أنا معايا، أنا بس عايزاكى تديهالها، الممرضة عملت الحقنه وإدتها للبت، لسه فيه طريق طويل للبيت وأنا كنت ميته من التعب، المهم مشيت وأول ما وصلت للناصية عند بيت أم فؤاد لقيت الحارة ضلمة كُحل، مقدرتش أمشى فيه طبعاً، لفيت وقلت أمشى م الشارع الرئيسى بس مقدرتش أكمل مشى، كان فيه قهوة سايبه الكراسى بره، كانت الساعه إتنين الصبح ساعتها، قولت هقعد لحد ما يطلع الصبح، وأنا قاعده لمحت ضل راجل أعرفه، طلع أبويا، ندهت " يابابا" مسمعنيش، ندهت تانى " يا بابا" رد وقاللى إنتى مين؟ قلتله "أنا بنتك " ، قام مشى قدامى ونورلى الشارع بالفانوس اللى معاه _مشالش البت_ وصلنى وساينى ورجع تانى، نمت و ع الفجر لقيت مصطفى بيصحينى ويقوللى " قومى يا بنت العاهرة" قومى إدى بنتك الحُقنة، قلتلى طب بتصحينى كده ليه كان ممكن تصحينى بطريقة أحسن من كده، وحكتله، قاللى "طب خلاص غورى نامى" .

" إنه يجيب هديه لوحده، دى مشكلة المشاكل بالنسبه له"

"سنانى وقعت، أول سِنة وقعت وأنا عندى ١٨ سنه،

وقعدت سنه عندى ودن مبسمعش بيها، ومناخيرى كانت بتنزف دم علطول، كل ده من الضرب اللى كان بيضربهولى مصطفى، ده غير المرض المستخبى فى جتتى من الزعل والهم، كل الناس فاكرين إن إخواتى فايزة وفريدة أصغر منى، مع إنى أنا الصُغيرة، بس هما سنانهم فى مكانها موقعتش، بيتضربوا برده من إجوازهم، بس هما مبيشلوش هم وزعل عشان إجوازهم مبتجبش أكل أو لبس للعيال زى مانا بشيل الهم، كل سنه بياخدواسلفية ع العيد من الحكومة عشان يجيبوا لبس للعيال، وفايزة وفريده عندهم كل اللى محتاجينه وأكتر كمان. مصطفى عمره من ساعة ما إتجوزنا عمره ما جابلى حاجه ولا للعيال، ولا حتى لنفسهع ده حتى ميعرفش مقاس جزمته ولا مقاس بيجاماته، كذا مرة خدته للسوق أعلمه إزاى يشترى حاجه، عان يدخل علينا مره بحاجه جديده يفرح العيال ويفرحنى، بس مفيش فايده ، مبيتعلمش، كل ما البياع يقول على حاجه كويسه يقول "أه، حلوة" ، أقوم أنا أقوله " لأ طبعا، إنت مش شايف عامله إزاى" ، وخدته أوريله الحاجت ع العيال وأقوله " شوف، الحاجه ممكن تبقى حلوه على حد ومش شرط تكون حلوه على غيره"، بس مصطفى مبيتعلمش برده "إنه يجيب هديه لوحده، دى مشكلة المشاكل بالنسبه له".

"بتسموا دى سعادة؟"

"مرة مصطفى رجع البيت ومعاه زجاجة ويسكى، قاللى إنها هدية من واحد صاحبة، أنا صدقته كالعاده، قبل ما أعرف إنه غشاش وبيضحك عليا، بعدها بيومين كنت ماشية مع أم مجدى و كان فيه محل فيه قزايز، أم مجدى سألتنى

إيه دى_مكانتش بتعرف تقرا- قولتلها دى ويسكى،لسه واحد صاحب مصطفى جايبله واحدة زى دى، كانت بسبعة جنيه_السعر مكتوب عليها_ أم مجدى قالتلى مصطفى مش ممكن يبقى ليه صاحب كريم كده ويديلة هدية بسبعة جنيه، أنا مردتش بس قعدت أفكر. .. بعدها بكام يوم البت مُنى _كان عندها ٨ سنين ساعتها، قالتلى هقولك حاجه بس متقوليش لبابا، قالتلى إنها كانت مع أبوها فى العتبه_وسط القاهرة_ وإشتروا القزازة دى من هناك بخمسه جنيه، الحاجات هناك أرخص، وعرفت من ساعتها إن مصطفى غشاش، وأنا اللى كنت بحترمه وفاكره صادق.

الناس فاكرينها عايشين كويس ومبسوطين عشان مصطفى عنده ورشة، أخته وبنات عمه فبيحسدونى عشان مصطفى معيشنى مبسوطة، مرة تعبت وزهقت من كلامهم، قمت فتحتلهم الدولاب أوريهم القزايز المترصصة وقلتلهم "بُصوا، شفتوا انا مبسوطة إزاى؟ بتسموا دى سعادة؟" ،أم جمال كلمت مصطفى وقالتله" الراجل ممكن يبقى راجل بأخلاقة، مش لازم يدخن ويشرب عشان يبين رجولته" بس مصطفى مبيسمعش الكلام.

"الجواز يعمل منك راجل"

"من ساعة ما إتخطبنا وانا عارفه إن مصطفى مبيحبنيش، كان بيقوللى غنه بيحبنى بس كان كلام وخلاص، لما إتجوزنا إعترفلى إنه كان بيحب واحده جارته، بس مرات عمه رفضتها، كانت عايزاه يتجوز واحدة من بناتها، بس هو قال لو متجوزتش البنت دى مش هتجوز غيرها، قلبه إنكسر، كان بيحبها اوى.. حتى لو كنت عرفت الجواز ده

قبل الجواز وقلت لماما، مكانتش وافقت إنى أفسخ الخطوبه، هيا كانت عايزانى أتجوز مصطفى، ظلمتنى أوى، الجواز مينفعش من غير حب،لازم الإتنين يكونوا بيحبوا بعض.... أصحاب مصطفى هما الل أقنعوه يتجوز، قالوله لازم تتجوز و إلا متبقاش راجل!.

"هو من سكة وأنا من سكة وعمرنا ما هنتقابل"

اللى تعبنى وهلك صحتى إنى إتحرمت من حقى، من حريتى فى إنى أختار اللى هعيش معاه، أمى مقالتليش "إيه رأيك؟" زى ما المفروض تعمل، ولما إتدبست زعقت فيها وقلتلها" ربنا ينتقم منك، منك لله"، فريدة قالتلى عيب عليكى تكلمى أمك كده، بس أنا فعلا كنت أقصد اللى بقوله، أمى ظلمتنى بجد، أنا عشت وهعيش باقى حياتى من غير حب، أنا عن نفسى بحب الناس، بس أكيد محتاجه حد يحبنى، راجل يحبنى ويبقى حنين عليا،بس مصطفى مبيعرفش يعنى إيه حنيه، هو من سكة وأنا من سكة، هو بينام فى سرير وأنا بنام فى سرير، وحتى لما بيكون عايز ينام معايا مبحسش بأى مشاعر ، بيطلب وياخد اللى هو عايزه وبعدين يرجع لسريره!.

كأنه غريب من الشارع الغريب"

"حقيقى مصطفى زى ما يكون غريب، دى عيشتنا وده جوازنا، بيجى البيت متأخر يطلب أكل و يبعت منى أو هدى تشتريله، لأن غالباً مبيبقاش فيه حاجه تتاكل فى البيت، ويقولها متتأخريش أنا تعبان وعايز أنام، وياكل وينام ، وأحيانا بيجى سريرى لما يكون عايز ينام معايا.. مش بشوفه إلا لما يبقى فيه ماتش كوره ع التلفزيون، هو كأنه

غريب من الشارع، حتى مش كأنه عايش فى فندق، اللى بيسكن فى فندق بيسلم علي اللى معاه وممكن يدردشوا سوا، إنما مصطفى عمره ما بيحب يتكلم فى حاجه، أنا دايما بحكى عن اللى شفته واللى سمعته واللى حصل، بس مصطفى مبيقولش كلمة، مبيحبش الكلام ، بيقول" دى مجرد دوشة" ، وأنا بقوله" بالعكس، الكلام بيقرب الناس ، وبيخليهم يفهموا بعض" بس لا هو عايز يفهمنى لا عايزنى أفهمه، بيقول عليا جاهلة ومبفهمش، زى الحمار. بيقول إنه أحسن منى، بس أنا دايما بحس إن الدنيا علمتنى كتير ، وإنى بفهم ... كان نفسى نحب بعض وقلوبنا تقرب، بس هو مش عايز ده .

تركت أم على العمل بعد ثلاثة أشهر من العمل يوم كامل، أنهكها العمل، ولكن تركها العمل لم يكن إختيارياً، فقد إكتشفت أن كل ما تكسبه يضيع هباءاً، وحذرتها أم مجدى قائلة " غنتى بتكسبى عشرين قرش فى اليوم وبيتك بيتنهب"، حذرت أم على بناتها من التبذير فى الشى والسكر والزيت، لكن البنات أقسموا أن الجيران هم من إعتادوا التردد وطلب أشياء ولا يردوها، سألتهم أم على عن هؤلاء الناس، ووصفتهم باللصوص.. وفى يوم أخر إكتشفت أم على إختفاء "حلة" من الألومنيوم كبيرة الحجم وبالتالى غالية الثمن، سألت ام على بناتها فقاوا أن ام جمال طلبتها منهن لأنها تتوقع حضور ضيوف فى قريبا، إنتظرت أم على أم جمال لترد الإناء ولكنها لم تفعل، تعجبت أم على لأن طبيعة ام جمال غير ذلك تماما، فهى دقيقة فى مواعيدها، فذهبت أم على لتطلب الإناء بنفسها،

لتفاجئها أم جمال بأنها لا تعلم شيء عن "الحلة دى" ، بعد ضغط إعترفت هدى أنها باعت الحلة مقابل ثلاث جنيهات(فى الوقت الذى تساوى قيمتها ثلاث أضعاف ذلك المبلغ) لأنها كانت تحتاج مال لتسديد قسط الجمعية .

وهكذا وضحت القصة، هدى مشتركة بالفعل فى جمعيتان، الأولى بقسط يومى ثلاثة قروش والثانية بستة قروش، فلما كان مصطفى مُقصر فى دفع ما يكفى إحتياجات البيت وتسديد الجمعية، إضطرت هدى لبيع الأغراض بالتدريج، ملابس و آنية المنزل كمثال... وكأن ذلك غير كافى، إكتشف أم على أيضاً إختفاء العديد والعديد من الملابس، بلوزة هدى الجديدة، وبنطال نوسا الصغيرة الجديد، وحمالة صدر، وزوجان من الشرابات، كل تلك الأشياء تمت سرقتها، نعم سرقها الضيوف، إستغلوا غياب أم علىعن البيت وقامت النساء بسرقة الأشياء وإخفاءها فى ملابسهن _فالنساء نادراً ما يحملن حقائب يد هنا_ قدرت ام على الملابس المسروقة بحوالى سبعة جنيهات_رقم ضخم_ وأثناء مررو أحد الحافلات شاهدت أم على بلوزة هدى ترتديها إبنة أخت مصطفى ، وحين حاولوا الذهاب للبنت لإسترداد البلوزة كان الوقت قد فات وسافرت البنت إلى الإسكندريه.. هكذا كان حال اللبيت حين تُرك تحت مسؤلية البنات وحدهن، لذلك كان تقاعد ام على ضرورى، لكن بعد زمن، تتذكر أم على تلك الأيام وتصفها بأنها كانت أسعد أيام حياتها، شعور بتحقيق الذات، إلى جانب_والأهم_ البعد كل البعد عن مشاكل البيت وطلبات الأطفال اللانهائية" أنا عايز، أنا

عايزة.." ، أم على أسعد بنتيجة التجربة الأهم ،وهى إدراك مصطفى أهمية وجود أم على فى المنزل وإثبات أنها ليست بمبذرة كما كان يتهمها.

السيارة الملعونة، والجمعية المُخذله

بين كل المآسى والقصص المحزنه التى عاشتها ام على وحكتها لى، كانت قصة السيارة و قصة الجمعية هما الأسوأ على لإطلاق ،من امصدر أمل وحلم جديد بالحياة الميسورة المُفرحة، إلى مصدر ألم وسبب إنكسار جديد لأم على، فى الواقع أسوأ إنكساراتها، فلم أر تدهور صحتها بهذا الشكل كما رأيتها فى خريف ١٩٧٥ ، حين كانت مسألة السيارة فى أوجها.

القصة كما حكتها لى أم على تبدوا قصيرة، ولكن تبعاتها لا نهائية..

ربيع ١٩٧٥ دخل عليها مصطفى بشوشا مُبشرا إياها بالسعد والغِنى، فرصة ستغير حالهم بالتأكيد، االفرصة هى سيارة، سيارة مُحطمة، لكن بحكم خبرة مصطفى فى تصليح السيارات قرر وصديق له شراء السياؤة وإصلاحها، ثم إستخدامها كسيارة أجرة _تاكسى_ السيارة معروضة للبيع بمبلغ ٥٤٠ جنيها مصرياً، بالقسمة على الصديقان يكون على كل منهما دفع ٢٧٠ جنيها فقط.

لم تستطع ام على وصف فرحتها بالخبر، فالسيارة لا تعنى فقط مصدر دخل جيد، لكنها تعنى سعادة للأسرة، فوجود سيارة يعنى قدرتهم على الخروج والذهاب والإياب فى أى وقت لى مكان بسهولة وتكلفة أقل، من الصعب التاكد من حقيقة موقف أم على أنذاك، هل حقاً هى مقتنعة

بالفكرة أم أنها مأخوذة بكلام مصطفى؟.. المشكلة الوحيدة التى قابلتهم، هى المال بالطبع، فالمبلغ ليس بهين، فى الأحياء كحينا هذا، لا يستطيع الناس الإدخار والحفاظ على مبلغ من المال فى المنزل، لذلك عادة ما يلجأون من حين لأخر للجمعيات ... الجمعية هى نظام إدخار متعارف عليه فى مصر، يجرى هكذا: الشخص الذى يبدأ الجمعية و يحصل على المال فى البداية يكون الرئيس، أحيانا حين تقع إمرأه فى ضائقة مالية تذهب لأخرى موثوق فيها وتترجاها لتنظيم جمعية مخصوصة لها "عشان تفك ضيقتها" ، كما فعلت أم على حين هددها صاحب العقار بالطرد، الرئيس يجمع عدد معين من الأعضاء ويتفقون على مبلغ يتم دفهة بطريقة مُنتظمه_شهرياً ، إسبوعياً او يومياً_ وكل فترة مُتفق عليها يأخذ أحد الأعضاء المبلغ الذى تم تجميعه، ويستمر فى الدفع حتى يسدد المبلغ بالكامل ..وهكذا.. وفى حالة تأخر أى عضو عن الدفع ، يكون الرئيس هو المسؤل عن الدفع وتكلمة الجمعية لنهايتها بأمان..

تحتاج ام على ل ٢٧٠ جنبه، مبلغ مهول بالنسبة للفقراء، لتتمكن من الحصول عليه عليها توفير ١٨ عضو وإقناعهم بدفع ١٥ جنيها شهرياً، مهمة شبه مستحيلة، لكن أم على إستطاعت تحقيقها فى النهاية.. كنت أتمنى نهاية سعيدة بعد كل تلك المشقة، لكن للأسف تأنى الرياح بما لا تشتهى السفن، "الجمعية الكبيرة" كما تطلق عليها أم على، حدث فيها سقطة كبيرة بعد إنسحاب عشر أفراد منها، كلهم من طرف أم على، مصطفى نفسه، صديق مصطفى، على إبنهما، أحمد أخو أم على و صديقتها ام مجدى، ولكى لا

يتهم أحد ام على بالنصب، قررت إخفاء الأمر والتظاهر بأن الجمعية تستمر بالثمانى عشر عضو، لكى تنجح فى ذلك كان عليها التصرف فى ١٥٠ جنيها شهريا_قيمة إشتراك العشر أفراد_ لم تترك شخص يمكن أن تقترض منه إلا وفعلت ولكن فى النهاية لم تصمد، فلجأت للأعذار والحججن لتجعل المرأة التى دورها فى إستلام المال ترضى ب ٨٠ جنيها فقط، وقبلها الرجل الذى وافق على ١٢٠ جنيها وهكذا.. وبذلك تكون ورطت أم على نفسها فى دائرة من الأكاذيب وأنصاف الأكاذيب والأعذار التى بالتدريج حولتها لما يشبه المتسولة، وبطبيعة الحال لم تتحمل أم على الوضع الذى تسبب فى جرح عميق فى الروح، فقدانها لكرامتها وتعب أعصابها الذى تسبب فيه مصطفى أوصلها لقرار الرحيل بمجرد إنتهاء الجمعية، لم تعد تتحمل النظر فى وجه مصطفى، مصطفى الذى تعود خذلانها فى أبسط وأكبر الأمور .. أم السيارة، فما كانت إلا كذبة كبيرة، فبعد صرف ١٢٥ جنيها على إصلاحها، تأكد مصطفى أن لا امل فى إصلاحها، بعد تجارب ومحاولات ومصاريف، كلها بالطبع من ام على " هاتى خمسة جنيه كمان وهتتصلح... هاتى عشرة ... خمستاشر.. " وهكذا إلى أن وصلت الى ١٢٥ ، كيف وفرتهم؟؟ باعت قرطها الذهبى، ثم أنية المطبخ الألومنيوم وبعض الوسائد القطنية!! ولم يكتف القدر بتلك الصدمة، لكن الصدمة الأكبر حين إكتشفت ام على أن صديق مصطفى الميكانيكى ما هو إلا نصاب مثحترف، فى البداية إستغل طيبة مصطفى وأقنعه بأنه مريض ويحتاج الكثير من المال للعلاج ، ثم أتمها

بصفقة السيارة التى لم تكلفه مليم واحد.. فى مرة من المرات طلب هذا الرجل من مصطفى مال ليشترى علاج، أعطاه مصطفى ليشترى الرجل حُقنة تحت الجلد، لتفوجىء به يكسرها ويضعها فى كوب الشاى ليتناولها!! مخدر بالطبع، يستخدمها كمخدر، ومصطفى لا يفهم بل ظل يطال أم على بالمال ليساعد صديقه الفقير المريض، إلى أن إنفجرت به ذات مره "حراااام عليك، إنت بتديله أكل وفلوس وولادك بيموتوا من الجوع !" ، ولم يكتف بذلك، بل نهى الأمر بأخذه للسياره وبيعها.. وأعطى مصطفى فقط ثمانون ٨٠ جنيها ، " تمانين جنيه، مصطفى الغبى رضى ياخد الفلوس منه وهو ساكت، ضحك عليه ، لو كنت أنا أو أمين كنا عرفنا ناخد حقنا إزاى، أمين كان ذكى وبيفهم، إنما مصطفى .... وعلى وهدى طالعينله كده" .

كل من يعرف ام على كان يلاحظ التغير الواضح فى شخصيتها وتصرفاتها طوال فترة الجمعية، أعصابها لم تعد سلبق عهدها ن عانت الكثير من الخوف والقلق والعزله، حتى نومها إضطرب ، وإمتنعت عن الزيارات وإستقبال الزوار، فكلما طُرق الباب يهىء لها أنه شخص جاء ليطال بحقه فى الجمعيه، مر ١٤ شهر وبقى أربعه، أربع شهور من المعاناه. فى هذا الشهر عل أم على صرف الجمعية لفردان، الأول عادل، قريبها، الذى إتفق منذ البداية على المشاركة بنصيب فرد واحد لكن سيأخذ نصيبه على دفعتين، الأولى فى الشهر الثالث، والثانية فى النصف الأول من الشهر الرابع عشر، الدفعة الأولى كان مقرر أن تكون ١٣٥ جنيه لكن ام على إستطاعت تدبير ١٢٠ فقط، وفى المرة الثانية

توسلت إليه ليرضى ب ١٣٠ جنيه فقط ويتبقى له ٢٠ جنيها كدين عليها، وافق على شرط أن يحصل على ال ١٣٠ جنيه قبل العيد (عيد الفطر)... الثانى كان إبراهيم، كانت مشاركة إبراهيم ب خمس فرد (٥\١١) أى ٤٢ جنيه، لكن لأن إبراهيم إمتنع عن دفع ٣ أشهر(لمرضو وعطله عن العمل) لذلك إستحق فقط ٣٠ جنيهاً..

أكثر من مرة أشهد بنفسى تردد عادل وإبراهيم على منزل أم على للمطالبه بأموالهم، وفى كل مرة تختبق أم على أعذار واهية وقصص خيالية لتتهرب من الدفع، وتستخدم الأطفال فى إستجداء عطفهم، لكن لما طفح الكيل بعادل أرسل أحد أطفاله لأم على برسالة " بابا بيقولك هاتى اللى معاكى دلوقتى ، عايز أى حاجه حالاً" ، فى هذا الوقت لم تكن أم على تحتكم إلا على ٢٣ جنيها، وإرسال مبلغ قليل كهذا سيثير أعصاب وشكوك عادل...

يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٧٥ كتبت فى مدونتى اليومية:

وعدت إبراهيم ام على أن يمر عليها حوالى الساعة السادسة ليستلم امواله، كان إبراهيم يأتى يوميا منذ خمسة أيام بلا جدوى، فى الحقيقة ام على لم تكن تملك المال الكافى، فخرجت من المنزل هرباً من إبراهيم ،لكن إبراهيم مر عليها الساعة الحادية عشر منتصف الليل، فتوسلت له أم على ان ينتظر حتى بعد العيد لأن بعض أفراد الجمعية سافروا للسويس ولم يدفعوا لها _كذبت أم على- لكن إبراهيم لم يقتنع ولم يهدأ ، وأخبرها أنه يحتاج المال ضرورى قبل العيد ليتمكن من السفر للريف ليقضى العيد مع العائله، وهددها بفضيحة و "دوشة" .

يوم ٥ أكتوبر عام ١٩٧٥ :

جاء أم على وأخذ ماله الذى إقتبصته أمىعلى من مال عادل، عادل مدين لها ب ١٣٠ جنيه ، لم تكن تملك منهم سوى ٦٢ جنيه، لكن فضيحتها امام إبراهيم أكبر، فعادل قريبها ويعلم الظروف ،اما إبراهيم غريب .. المرارة التى شعرت بها أم على لم تكن من السهل وصفها، تعرضها للخديعة والخذلان من أشخاص لم تتوقع منهم سوء صدمها كثيراً، فمثلاً سامى، إبن أختها، كان من المقرر تسليمه ٢٢٠ لكن أم على لم تكن تملك سوى ٢٠٠ جنيه فقط، لذلك طلبت منه ترك الخمسة وعشرون جنيها الباقيه كدين عليها على ان تسددهم حين يتيسر الأمر، وافق سامى فى البداية لكنها فاجئها فى الشهر الذى يليه بدفه خمس جنيهات فقط، اى إستقطع عشر جنيهات من المبلغ الشهرى "بالعافيه" على حد تعبير ام على ، وفى الشهر التالى لم يدفع أصلا، وبذلك يكون إسترد كامل ماله، وورط أم على !

فعلة سامى كانت سيئة لدرجة حسرت ام على على كل ما قدمت له، فهو ناكر للجميل من وجهة نظرها، فهى من قامت بإرضاعة ورعايته بعدما رحلت أمه، حاول سامى الإعتذار بقوله "معلش والله كنت محتاج الفلوس " لكن أم على لم تسامحه وحكت لى و للكثير من النساء عن جحوده ونكرانه للجميل " ده حتى مراحش يزو أهله هنا فى الجيزة يعيد عليهم، واحمد قال أكيد خايف يدفع العيدية" .

فى شهر أكتوبر ١٩٧٥ لم يكن لليمر يوم دون سماع ام

على تقسم أغلظ الأيمان أنها بمجرد إنتهاءها من الجمعية سترحل :

"محدش هيشوف وشى تانى، هروح مكان محدش يعرفه، وهيدوروا عليا مش هيلاقوونى، ومش هيفرق معايا بقى يجوعوا، إن شالله يموتوا حتى، عشان يعرفوا ان الله حق، أنا مهمهومش فى حاجه، أنا اللى ضيعت عمرى عليهم محدش بيفكر فيا، على مثلاً، حد غيره كان مفروض يقول " دى أمى اللى ربتنى وساعدتنى أقف على رجلى، وكان إستنى الأربع شهور دوول عشان يتجوز" بدل " هاتى هاتى "، أنا قلتله ده إنت اللى المفروض تدينى، إنت بقيت راجل، قاللى إننه ممهوش فلوس، قلتله وانا كمان ممعيش، بس إزاى ماهى خطيبته اهم من أمه، على ده أنا ياما دفعتله وسددت عنه، ده مرة إتغرم ١٠٠ جنيه عشان سايق من غير رخصه، مين دفعها؟ أنا.. كان ممكن أسيبه يتحبس.

مش واخد باله إنى خلاص هتجنن، طول الوقت بفكر فى الدين اللى عليا وإزاى أسدده، ده أنا خلاص مبقاش فيا صحة، وكلة بسبب مصطفى ، أنا عايزة أساعده عشان عياله بس، أنا مش عايزة حاجه، هما اللى عايزين يتبسطوا، كان لازم تشوفى نوسه إمبارح فرحانه قد إيه بالفستان اللى إشترتهولها بالفلوس اللى (إنتى) إديتهالى، اما مصطفى.. تخيلى قاللى إيه لما قلتله عايزة فلوس أجيب بها لبس العيد للعيال " أن شالله ما عيدوا !" ، ولما سألته هنعمل إيه فى فلوس عادل وإبراهيم : "قاللى إنت عارفه إنى معييش فلوس، إتصرفى" ، صرخت فيه وقلتله" ده كله بسببك" قاللى " معلش!" .. كنت هموت من الغيظ. وصرخت

فيه تانى وقلتله " وهتعمللى إيه معلش، من إمتى معلش بتاعتك دى بتفيد؟؟!" .

أرض الأحلام

لو لم تكن كل تلك الظروف القاسية التى تمر بها، لكانت أم على تعمل من أجل بناء قطعة الأرض التى تمتلك ، بالرغم من إنتقاد كل المجتمع لمثل هذا الفعل، لكنها لا تهتم بما يقول الناس، ستدافع ام على عن فكرة العمل بأن زوجها هو الذى دفعها للعمل بعدم مسؤليته وظروفه السيئة، إمرأة فى مثل ظروفها لماذا تتأخر عن عمل قادر على تحسين معيشتها بشكل ملحوظ، وترضى بحياتها البائسة وفقرها لمجرد مراعاة التقاليد!

لذا تبقى قطعة الأرض حلم قريب المنال رغم كل الظروف التى تباعد بينها وبينه، فأم مجدى مثلا جارتها، بنت منزل وإنتقلت إليه بتكلفة ألف جنيها فقط، أى أكثر قليلا مما كلفتها تلك السيارة المشؤمة، تتحسر أم على على حلمها الضائع، ليس فقط أم على، لكن كل من يمر عليها ويرى ضياع حلمها أمامها، مصطفى وحده بفشله المتكرر من تسبب فى ذلك، تعلم ام على جيداص ان لولا جهودها وتخطيطها لفقدت أم على الأرض،"كان مصطفى باعها من زمان"..

لنبدأ من البداية، الحكاية بدأت عام ١٩٦٣ عندما عرض إثنان من أصدقاء مصطفى عليه شراء قطعة أرض مثلهمن الأرض بجانب الأهرامات بمساحة مائة متر مربع، مقابل ٥٠ جنيها دفعة أولى،مقدماً، والباقى ،٢٥٠ جنيه، على أقساط

شهريه، خمسة جنيهات كل شهر، "زى ما توقعت، أصحاب مصطفى دفعوا الأقساط وبنوا بيوتهم وعزلوا" أما هم فكانوا يدفعون من حين لأخر كلما تيسر لمصطفىن لدرجة أن صاحب الأرض هددهم ببيع الأرض لأخر إن لم ينتظموا بدفع القسط، مصصطفى فكر فى ترك الأرض ، لكن أم على ردت " سيبهالى أنا" وإقترضت ودبرت مبلغ من المال لتضمن لصاحب الأرض أنها ستدفع له القسط فى الموعد المحدد، بالفعل سددت أم على جميع أقساط الأرض ونوت البناء، لكن تصريح البناء يكلف ٣٠ جنيها إضافيا، وهى لا تملك، لذلك أجلت رغبتها، عام ١٩٧٦ كادت الأرض أن تتسبب فى طلاق أم على ومصطفى:

"مصطفى كان عايز يبيع الأرض عشان يشترى عربيه جديده، عربيه جديده أه، عشان ينصب علينا واحد تانى، قال إن فيه راجل عايز يشترى الأرض منه ب ألف جنيه، وإحنا إشتريناها ب ٣٠٠ ، يعنى إحنا الكسبانين، وقاللى هاتى العقد، قلتله "على جثتى"، وطلبت الطلاق بس هو مرضيش، قلتله "الأرض دى لا بتاعتك ولا بتاعتى، دى بتاعت العيالن إحنا معناش فلوس نبنيها، بس يمكن ربنا يقدرهم هما ويبنوها"، وهددته إنى هبلغ عنه البوليس وهفضحه قدام الدنيا كلها، تانى يوم خدت العقد وإديته لأم بدر، صاحبتىن وكده مصطفى مش هيقدر يجيبه، مصطفى قال لهدى تفتش البيت كله وتجبله العقد، بس ملقتهوش، قلتلها هى ومنى، أنا مخبياه فى مكان مش هتعرفوه إلا لما أموت".

تظل مشكلة اكبر تؤرق أم على، وهى أن لا الأطفال ولا

مصطفى يريدون الرحيل والعيش هناك، ذات مرة ذهبت مع أم على بنتيها الأكبر لزيارة الأرض، كانت أم على تشيد بالهدوء والسلام المحيط بالمكان فى حين تلعن البنات الملل والهدوء القاتل وإنعدام الحياة .. بالنسبة لأم على هذا كل ما ترغب فيه، هدوء وسلام ، منزلها وحدها بعيدا عن تطفل الجيران. أما مصطفى، الرجل الصامت، لم أسمعهى مرة يشكو من المكان أو يمدحه، لكن الأغلب أنه راضى تماما عن الحى الذى يسكن فيه، بالنسبة لمصطفى، الشارع الرئيسى القريب مليء بالمقاهى والمحلات والورش، بالمقارنة مع قطعة الأرض الجديدة، ستجدها منعزلة، وعلى عكس أم على، مصطفى لا يملك ذرة طموح ليصبح صاحب منزل.. أما أم على فبغم رفض كل أفراد الأسرة لفكرة الإنتقالن تصر على بناء ولو دور واحد وتركه.. ام على تذهب على الأقل مرتين فى العام لترى الأرض وتتفقدها ، هى تقول أن رؤية الأرض يمدها بشعور طيب، على الأقل يعطيها مساحة للحلم.

الجزء الثالث

الحياة الإجتماعية فى الحى الخلفى

كل فرد يحسد الأخر على ما يملك

منذ اليوم الأول لى فى عالمهم والناس تحذرنى من الإختلاط بالناس! "متروحيش عند حد"، "الناس مش بتحب الخير لبعض أبداً"، بمرور السنين بدأت هذه المقولة تدخل فى حيز القناعة عندى، ليس لأنها صحيحة ، ولكن

لأن الناس هنا يتعاملون على أنها صحيحة!

عندما تواجه إمرأه أخرى بإبتسامة حقا صافيه وجميلة عادة لا تنخدع الأخرى بتلك الإبتسامة، هى تعلم جيدا أن تلك الإبتسامة ما هى إلا محاولة لإخفاء حقيقة مشاعرها، مجرد ستار لإخفاء الوجه الأخر، هى متأكدة من فعل الحقد والحسد، فالحقد هنا تحول بمرور الوقت لشيء طبيعى ومطلوب، إن لم تشعر إمرأة بحقد الأخرى عليها، ستعتبر هذا إهانة وتقليل من قيمة الشيء الذى تملكه ! ليصبح الحقد فى حد ذاته شكل من أشكال التقدير..

فى حالات نادرة جداً تعتبر المرأة التعبير عن الإعجاب بشيء ما أو الفرح به صادق وحقيقى، مثلا فى حالة إظهار المودة او الكرم فة موقف سابق (كأن تكون أهدتها هدية أو أقرضتها بعض المال دون النظر للمقابل)، فى هذه الحالة فقط تستقبل المشاعر بنفس مطمئنة، لكن فى بيئة كتلك نادراص ما يحدث هذا أصلاً..

بجانب الأطفال، عادة ما تكون هناك دائرة ثقة ضيقة جدا لكل إمرأة، صديقة أو إثنتان، من الممكن أن تكون أخت او أخ، والعديد لا يملك أصلا من يثق فيه سوى الأطفال، أم على تعتبر من المحظوظات حتى عام ١٩٧٥،فقد كانت تملك أخت ،وصديقة، وجارة، الأخت ماتت، والصداقة إنتهت ، وفى عام ١٩٨١ توفيت "أم جمال"، التى كانت أقرب الناس لقلب أم على، حزنت ام على بالغ الحزن عليها.. إعتادت أم على ان تقول أن أم جمال كانت ذات قلب أبيض وروح سمحة لأنها مسيحية "قبطيه"، فلو كانت مسلمة لما كانت بتلك االروعة ."المسلمين مبيحبوش الخير لبعض،

بيحسدوا بعض على أى حاجه .. أى حاجه مهما كانت صغيرة"، وهذا_للدهشة_ شعور منتشر فى هذا الوسط!

غيرة

"الغيره هنا حاجة طبيعية، زى الأكل والشرب واللبس، الناس بتغير من أى حد، شكلة احلى ، محبوب أكتر.. لو اى ست شافت عند واحدة سرير أحلى من بتاعها مثلاً، لازم تجيب زيه، حالاً ، مينفعش معاها طيا ستى إستنى، يا ستى أصبرى، إنتىمش محتاجاه أوى !" لازم حالاً ! الرجال هنا يتهمون النساء بالكثير، مثل عدم إحترامهم لذاتهم ونقص ثقتهن بأنفسهن، لكن على رأس القائمة تأتى تهمة التبذير، الرجل يتهم المرأة بتضييع أمواله على أشياء لا تحتاجها، وعدم شعورها بمشقة جلب المال وما يبذله ليحصل عليه، فمثلا " لما يكون السمك غالى اوى تجرى ع السوق تشترى سمك عشان تورى الجيران وتقول جوزى جابلى".. حين تشكى أى إمراة من الحى الذى تسكن فيه، أكثر شكوى مسموعة هى أن الشكوى من تطفل الجيران وفضولهم لمعرفة ما عند الأخرون، وحين تختلف إمراتان وتنقطع العلاقة بينهن تجد إحداهن تُشهر بالأخرى قائلة " دى كانت دايما قاعدة تبحلق فى اى حاجه جوزى بيجبها وتجرى تقول أنا عايزة زيها!"

عُرفت الغيرة منذ بدء الخليقة، فأدم وحواء كانوا أخ و أخت، وكل اخ واخت غيور، وبما ان الناس كلها تنحدر من نسل أخ وأخته ، فالغيرة بطبيعة الحال أصبحت شعور فطرى يولد مع كل إنسان.

المصريون لا يفرقون بين الحقد والغيرة، كلاهما تحت

مسمى الغيرة، وهذا يرجع لفكرةٍ أن العطاء المادى هو أقوى وسيلة للتعبير عن الحب، فمثلاً، حين تغير سيدة من زوجة إبنها، لا يكون السبب أن إبنها يبادل إمرأته الحب ، لكن السبب يكون أنه "بيصرف عليها ".

الغيرة تخترق الهواء وتنتشر بشكل كبير فى هذا المجتمع، مشاطرة مع الفقر، يجد الناس ان الغيرة هى سبب تعاستهم وبؤس حياتهم، فالغيرة تقتل المودة والتعاون " كل واحد عايز مصلحته بس".

كلام الناس

الإقتناع بفكرة الغيرة شىء متأصل فى الطبيعة البشرية، الناس عادة ما تعتبر الغيرة حافز أو محرك داخلى يتصرفون على أساسه، أو تفسر بها تصرفات الأخرون .. يرتبط بالغيرة ثلاث ظواهر يمكن الفصل بينهم نظريا، لكن على المستوى العملى يتشابكون: كلام الناس، النميمة،و الحسد. فالشخص الغيور عادة ما يتكلم عن الأخر وينشر عنه الأخبار والأكاذيب وإن لم يستطع تحقيق ما يتمناه بالتاكيد سيحسده! ..الحسد والنميمة ما هما إلا أبناء شرعيين للغيرة، والثلاثة يأدون لنفس النتيجة، الثلاثة يكونون حلقة مُفزعة.

لشرح تأثير كلام الناس ومدى قوتهن يحكى الناس هنا تلك الحكاية :

"مرة جُحا كان رايح السوق هو وإبنه والحمار، جُحا رَكِب إبنه الحمار ومشى جنبهم، الناس قالت، شوف الراجل ماشى جنب الحمار وهو ممكن يركبه! إزاى إبنه هيحترمه بعد كده؟!، جحا إتضايق، قام نزل إبنه من ع

الحمار وركب هو وخلى إبنه يمشى، الناس قالت: شوف الراجل الأنانى راكب وسايب الواد الصغير ماشى! جُحا إتضايق، قام شال إبنه وركبه قدامه على الحمار الناس قالت : شوف الراجل اللى معندوش رحمة، هيموت الحمار! ، جحا إحتار، قام نزل من ع الحمار هو وإبنه ومشيوا هما الإتنين جنب الحمار، الناس شافتهم قعدوا يضحكوا عليه ويقولوا: شوف الراجل معاه حمار وماشى ع الأرض إزاى؟!، جحا بقى هيتجنن .. يعمل إيه ؟ يعمل إيه ؟؟ فى الأخر قرر يشيل الحمار على كتفه ويمشى .. لما الناس شافوه ضحكوا عليه وقالوا: شوفوا الراجل المجنون! "

الحكمة من القصة، أن الناس تتحدث وتثرثر، منذ بدء الكون والناس تتحدث، وحتى نهاية العالم سيظل الناس يتحدثون، الحل الوحيد هو التجاهل التام لكلام الناس وإتباع عقلك وضميرك.. لكن بصراحة، الكلام أسهل من التطبيق، كل منا يستنكر كلام الناس وتأثيره السيء، لكن القليل القيل منا من يستطيع مقاومته، كما فعلت أم على مثلا حين تحدت التقاليد وزوجها وقررت العمل، لكن للحق، أم على حالة خاصة، فهى فأى إمرأة أخرى فى مثل ظروفها ستفكر ألف مرة فى العواقب الوخيمة التى ستترتب على فعلتها، وكأن كلام الناس حاجز مادى عليك الإنحناء لتفادي الإصطدام بيه..

لكلام الناس قوة لا يستهان بها، للأسف قوة هدم لا بناء، فكلام الناس قادر على تدمير علاقة صداقة أو إفشال مشروع زواج مثلا، كذلك سمعة الفرد تتوقف على كلام الناس، مهما كانت أفعاله.. الناس تتكلم ..

كلام الناس يقيد الحرية، فكثيراً ما تسمع تلك الجملة " بس يا ترى الناس هتقول إيه؟" ، "هتقول" هنا بالمعنى الحرفى للكملة، لا يعنون بها سيعتقدون مثلاً، فالناس تتحدث فعلياً وتنتقد وتتناقل الأخبار مما يقيد حرية الأخر... كيف؟؟ على سبيل المثال: حين تهتم أم بغذاء أطفالها أكثر، تجد الناس يتحدثون عن إهمالها للمنزل أو لملابس الأطفال "شوف سايبه العيال مبهدلة إزاى؟ مش كان أولى تلبسهم كويس" ، وإن فعلت العكس " مضيعة الفلوس ع الأكل و العيال محتاجه اتتغذى" ، محاربة كلام الناس كمحاربة طاحونة هواء، الفوز مستحيل.

حين قررت أم على العمل لإثبات ذاتها وتكذيب مزاعم زوجها بأنها سبب فقر المنزل بتبذيرها وعدم حكمتها، قال الناس عنها " كانت بتشتغل عشا تبنى بيت "، تعليق الناس هنا هو صورة نمطية لكلام الناس الذى تفوح منه رائحة الغيرة والحقد، ليس لأن أم على قررت العمل، ولكن لأنها بالفعل تملك قطعة أرض، بالتالى فكرة العمل لبناء المنزل أمر بديهى_بالنسبة لهم_ لكن لو فقط فكروا للحظه فى حال أم على لأنتبهوا لأن ما يتناقلونه مجرد ترهات، فأم على عليها العمل لمدة أربع سنوات متواصلة مع إدخار كل مليم تحصل عليه فقط لتتمكن من إقامة أساسات المنزل! ، لكن كلام الناس لا يستند أبداً لفهم او لمنطق، إنما هو مجرد تنفيث، فعمل ام على كسر كل العادات والتقاليد المتعارف عليها فى مجتمعها.

حين قررت أم على العمل لإثبات ذاتها وتكذيب مزاعم زوجها بأنها سبب فقر المنزل بتبذيرها وعدم

حكمتها، قال الناس عنها " كانت بتشتغل عشان تبنى بيت "، تعليق الناس هنا هو صورة نمطية لكلام الناس الذى تفوح منه رائحة الغيرة والحقد، ليس لأن أم على قررت العمل، ولكن لأنها بالفعل تملك قطعة أرض، بالتالى فكرة العمل لبناء المنزل أمر بديهى_بالنسبة لهم_ لكن لو فقط فكروا للحظه فى حال أم على لأنتبهوا لأن ما يتناقلونه مجرد ترهات، فأم على عليها العمل لمدة أربع سنوات متواصلة مع إدخار كل مليم تحصل عليه فقط لتتمكن من إقامة أساسات المنزل! ، لكن كلام الناس لا يستند أبداً لفهم او لمنطق، إنما هو مجرد تنفيث، فعمل ام على كسر كل العادات والتقاليد المتعارف عليها فى مجتمعها.

الناس عادة تستخدم المعلومات المُدركة فى سياقات تتفق مع فهمهم الشخصى أو تفسيرهم الذاتى لتلك المعلومات، لتبدوا فى النهاية تفسيرات منطقية إلى حدى ما وممتعة من جانب أخر، حتى لو كان إستمتاعهم بالكلام هذا على حساب معاناة أو مشاكل أخرون، مما يؤكد نظريات الناس التى تربط بين الغيرة وكلام الناس، فالغيرة هى الدافع الرئيسى لإنتشار الكلام والشائعات .

نميمة (خبص)

النميمة أو "الخبص"، تختلف بطريقة أو بأخرى عن كلام الناس، فالنميمة لها مصدر محدد، أما كلام الناس فينتشر ويتناقل دون معرفة مصدره الأصلى، بل أحيانا يكون بلا أصل، كلام الناس كالريح التى تهب فجأة وتنتشر فى الأرجاء، أما النميمة فهى مثل عاصفة باردة تهب من زاوية

معلومة. النميمة تتضمن بداخلها تورط فى تجسس، وتلصص وخيانة ثقة الناس، النمامة "الخباصة" هى إمرأة أفشت سراً او معلومة كان المفترض أن تحتفظ بها لنفسها، الصورة النمطية للخباصة هى صديقة للأسرة تخون ثقة من إئتمنوها ، لتفشى خصوصيات المنزل " بتجييب سيرة البيت" .

أم على إمرأة حكيمة، أخبرتنى ذات مرة أنها تعودت ألا تسأل عندما تدخل بيت كضيفة "عاملين إيه؟" ، بالرغم من طبيعية السؤال وبراءته، لكن أم على تتجنب السؤال لإبعاد شبهة الفضول والتلصص عنها، فى الحقيقة، النصيحة الذهبية لإبقاء علاقاتك بالناس بريئة وسالمة، هى تجنب الزيارات بالمرة، فالزيارة هى فرصة عظيمة للقيل والقال، حين تقول إحداهن: " مش كانت عندى وقالت كذا كذا." ، من الصعب إنكار التهمة، فالحقيقة إنك كنت هناك بالفعل!.

الناس هنا حريصون بشكل مبالغ فيه فى علاقاتهم، نادراً ما ترى أكثر من صديقة أو إثنتان للمرأة الواحدة، ويهتمون إهتمام بالغ بإخفاء أحوالهم واخبارهم الشخصية، لكن عادة ما يتعمدون غظهار ونشر إنتصاراتهم ونجحاتهم، فى المقابل تخيم السرية على إنكساراتهم وتجاربهم الفاشلة.

الحسد

الحسد هو صورة أخرى من صور الغيرة، تمام مثل الغيرة وكلام الناس، الحسد متأصل فى البشر منذ قديم الزمن، الناس تحكى حكاية من الأثر عن إبنة النبى محمد-صل الله عليه وسلم- فاطمة، التى أنجبت توءام ذكور، ذات مرة

أوحى الله لها أن تبعد الطفلين عن المهد لأن هناك من سيأتى لزيارتها، "الحاسوديه"، وتضع مكانهما حجرين وتغطيهم، نفذت فاطمة أوامر الله، وإستقبلت المرأة "الحاسودية"، نظرت المرأة للحجرين المغطيين بين ذراعى فاطمة وقالت "يااه، إنتى عندك ولدين يا فاطمة!"، فلما رحلت المرأة رفعت فاطمة الغطاء لتجد الحجريين مهشمين !

الحسد ينطلق من عين الراءى ولسان المتكلم لا إرادياً، لكن الناس تعتقد انه من الممكن التحكم فى تلك الطاقة الشريرة بطريقة أو بأخرى، كأن لا تطيل النظر لى شيء تعجب به، أو لا تتحدث كثيراً عن ما يملك الناس أو عن نجاحاتهم، تجنباً للأذى، لكن الناس تشكو أن المصرين يفعلون العكس تماما.

أم على تحكى عن الحسد قائلة: "الناس بتحسد الفقير والغنى، محدش سايب حد فى حاله، لو واحدة جابت كيلو طماطم الناس" بتقر "عليها وتقولها "جايبه منين الطماطم الحلوة دى؟"، الغيرة فى دمهم، الواحدة منهم تقول " شوفوا جوزها كل يوم يفضى شنطته فى حجرها"_ كناية عن كثرة المال الذى يحضره_ أو، "جوزها كل يوم داخل بأكياس الفاكهة قد كده"، بيتكلموا من غير ما يعرفوا، أنا بسأل نفسى دايماً،" وهو إنتى شفتيه وهو بيفضى شنطته فى حجرها؟" ، يمكن تانى يوم الراجل ميديش الفلوس لمراته، ويصرفها ع السجاير والحشيش، عشان الناس حسدتها..

حين يقلد الناس أو يحاكى طريقة شخص ما فى الحسد،

يفعلونها بطريقة كاريكتيرية مُدهشة، يفتحون ذراعيهم على مصراعيهم و يلقون برأسهم للخلف ويصيحون .." دى عندها كل حاجة" ، " حلو الفستان ده أوى، جبتيه منين ها؟ أنا عايزه واحد زيه" .

تقول أم على: " الناس بتتكلم وهى متعرفش حاجه، لما بيقولوا عليا " هى إيه اللى ناقصها عشان تشتكى، ده جوزها عنده ورشة"، أقول لنفسى، ما هما مش عارفين اللى فيها، هما ممكن يكونوا زارونى مرة ولا مرتين، إنما هما عايشين معايا وعارفين الظروف؟، أوقات بقول للناس " مالكوا فيه إيه؟ بتتكلموا ع الناس كده ليه؟" ، انا قلبى أبيض وبحب الخير للناس، بس الناس قلوبها سودا، لما ام جمال جابت البوتجاز قلتلها " ألف مبروك عقبال ما تجيبى تلاجة"، ولما جابت التلاجة قلتلها " عقبال غسالة الأطباق"، أنا بفرح للناس ، بس هما ..... ياريتك شفتى أميرة عملت إيه لما أحمد قالها تفرجنى ع البالطو اللى جابهولها من ليبيا، عملت نفسها مش سامعة، وأحمد قالها كذا مرة لحد ما قامت فتحت الدولاب وقفلته تانى، مفرجتنيش عليه كويس، يادوب لمحته، أصل عشان هيا بتحسد الناس فاكرة كل الناس زيها، فاكرانى هههحسدها...

الناس بتحسد أم مجدى وبتقول عليها عندها فلوس ومش ناقصها حاجه، بس أنا بقولهم حرام عليكوا دى عندها عيال كتير وبيتها كله مشاكل، انا نفسى عزيزة، الغنى غنى النفس، عشان كده ربنا هيكافئنى..

المقارنات السيئة: لماذا يبدو البعض افضل ؟

الإيمان بالحسد له عواقب وخيمة على الجميع وخصوصا

الرجال، ليس لأن الرجال يؤمنون بالحسد أكثر، بالعكس، لكن لأن النساء يدركن كيف يتعامل الناس مع ممتكاتهم ويخبؤنها عن أعين الناس، لذلك فدائما ما تصور لهن خيالاتهم صورة أضخم عما يمك الغير، وبالتالى، صورة أعظم عن سبب كل تلك الثروة، أى الرجل، وكيف هو عامل مجتهد وداعم جيد لأسرته..

كم من مرات أسمع تلك الجملة " هو مش باين، بس دى دولابها مليان هدوم " ، والواقع أن ذلك غير حقيقى بالمرةن السبب وراء ذلك إعتقاد النساء أن الأخريات يملكن أكثر مما يظهرن ..

١٥

المادية والحاجة

مؤشر

يبدوا التناقض جليا فى علاقة الناس بمتلكاتهم العادية والأخرى الأقيم، الخوف من الحسد يمتزج بشكل غريب مع حب الناس لعرض والتباهى بما يملكون، المكتسبات الجديدة أو القيمة عادة ما توضع فى مكان ظاهر فى المنزل ليراه الزوار، الثلاجة مثلاً، التى لا يحصل عليها إلا السيدات الميسورات الاتى غالبا ما يعمل أرزواجهن فى إحدى دول الخليج، توضع فى الصالة لا المطبخ !، افأى زائر محترم ينأى بنفسه عن القرب من المطبخ حتى لا يُتهم بالتطفل، البوتجاز يعتبر فى الثانى فى ترتيب مؤشرات المستوى المادى بعد الثلاجة وقبل التلفزيون، بالإضافة، من الممكن أن يقحم الناس أنفسهم فى أشياء غير مهمة بالمرة، فقط لكيلا

يدع مجال للأخرون للتفوق عليهم أو الظهور بمظهر أفضل منهم!

تتباهى المرأة هنا بكل شيء، ليس فقط ما تملك، لكن أيضا ما سوف تحصل عليه أو تشترى، وكيف ان ما لديها أفضل وأكثر مما لدى الجيران، من الطبيعى جدا فى هذا الحى ان ترى إمرأتان تبارز كل منهما الأخرى بمنتهى الوضوح وفى العلن، فتسمع "أنا باكل أحسن، وبشرب أحسن وبلبس أحسن منك"، أو ترد "أنا جوزى بيكسب اكتر من جوزك" .

لكن ما يدعوا للتعجب، أن المجتمع المصرى رغم الحياة الحضرية تظل المادة هى أساسه، وقيمة الفرد تتحدد بناءاً على ما يملكه،"الناس بتهتم بالمظهر مش الجوهر"، لكنها طبيعة قاسية للأسف، فمن لا يملك ببساطة "لا يساوى". فى حالة التعامل فى نطاق أوسع، لا يستطيع الناس التخلص من سمات الفقر التى تكشف عن نفسها فى طريقة المشى، الكلام، الملابس الرخيصة، خشونة الجلدن وتعابير الوجه القاسية والمبالغ فيها، فى جرس أصواتهم ولهجتهم، ومع ذلك، بينهم وبين أنفسهم، فى وسطهم الأصلى، يستطيعون إلتماس أحترام الذات وإحترام الأخرين بوسائل بسيطة، كالفروق الدقيقة فى جودة مفارش السرير مثلاً، الدولاب، أو زوج من الأحذية القيمة ، مما يعنى "انا دفعت اكتر"، فى حين ان الجميع هنا حقا فقير، ولا يملك إلا القليل جدا من كل شيء.

إدراك المصريين لطبيعة الجوانب البشرية الخفية حقا مثير للعجب والإعجاب، الإزدواجية، التناقض ،والتضارب

وخصوصا مع انفسهم او ذويهم..

، الواقعة التالية كنت أحد أطرافها:

أم نجوى، أحد جيران ام على، أخبرتنى أن أم على خبزت ١٥ كيلو من الكعك للعيد هذا العام! ،فرديت عليها بأن ما تقوله مستحيلن أم على لم تخبز الكعك أصلا هذا العام!! ، غعترضت ام نجوى وقالت أن ام على إعتادت صنعكميات كبيرة جدا من الكع كل عام، فأكدت لها انها لم تفعل العام الماضى ولا الذى يسبقه، وانا أشهد على ذلك بنفسى، هى لم تخبز ولو كعكة واحدة هذا العام ، فردت ام نجوى: " اها، ماهى مخبزتش عشان بتشتغل معندهاش وقت" _بلهجة إستنكارية_ .

ليس هناك عيبا فى إساءة تفسير سلوك الناس، او التعارض المنطقى فى وجهات النظر، فى الواقع، الكثير من إرتباكك أو عدم فهمك يرجع إلى الأخرون، فالكثير من تصرفاتهم لا يمكن التنبوء بها، ستحاول ولكن لن تعرف..

فى الحقيقة طريقة التعامل مع شىء واحد هنا مثيرة للدهشة، فمثلا لو رأيت شخص يخاف الرتفعات، يرتدى زلاجات ويحلق بها وفوق مرتفعات مختلفة هنا وهناك، فالتفسير إما ان هذا الشخص مجنون أو فى الأصل لا يخاف المرتفعات، لكن المصريون غير ذلك، فهم حقا يخافون الحسد، وفى نفس الوقت يعشقون التباهى بما يملكون ، يفعلون ذلك وهم فى قمة رعبهم من عيون الحاسدين.!

أعتقد ان التفسير لذلك، ان هذا الرعب غير حقيقى أو مثلة كمثل شخص غير متدين، هو يعلم جيدا عقاب الرب، لكنه لا يتعامل بناءا على ذلك، هكذا المصرييونن

يؤمنون بشدة بالحسد، لكن لا يدعوه يسطر على حياتهم أو تصرفاتهم، كما ان الناس هنا تستخدم فكرة الحسد كشماعة لتعليق إخفاقاتهم أو سوء حظهم، فمثلا حين يتناثر زيت قلى السمك على يد إمرأة التفسير الوحيد لذلك_بالنسبة لها_ أن الجارة التى راتها تشترى السمك حسدتها! انا وأنتى سنطبخ السمك اليوم، لكن حظى العثر جعل الجارة ترانى لتحسدنى، اما أنتى فكنت أكثر حظا منى .. وهكذا ..

الإنسان = ما يملك

فكرة إخفاء الشخص ما يملك فى مجتمع كهذا تبدوا عبثية، ببساطة لأن قيمة الفرد وإحترامة تتحدد بناءا على ممتلكاته، القصة التالية ستوضح ذلك أكثر:

"واحدة صاحبتى، نادية، كانت زعلانة جدا و صعبان عليها نفسها عشان واحد جه يتقدملها وهو لابس صندل، تخيلى! صندل من أبو ٣٠ قرش زى اللى العيال بيلبسوه فى الشارع، حتى مش من "باتا" بجنيه ! ، لو قبلته الناس هتقول " وافقت عشان عايزة تتجوز وخلاص" !.

الظهور بمظهر الأفقر هو العار الأكبر فى هذا المجتمع، خصوصا فى الوسط الواحد، بين الجيران مثلا. النضال الأكبر فى الحياة، هو ان يظهر الفقير بمظهر الأفضل بين الفقراء مثله ، مما يجعل البعض يتساءل، ماذا لو حاول الفقراء كلهم الوقوف فى وجه المجتمع المادى الأكبر ومواجهته بحقيقة وضعهم، لكن للأسف، نشأتهم فى ظل الثقافة المصرية التى تُمجد المظاهر، تجعهل إهتماهم بأقتناء

أشياء أقيم أساسى، حتى لو كان هذ غير حقيقى ومجرد تظاهر بالغنى، مما يجعل لعنة الفقر أثقل على انفسهم بطريقة لا تحتمل، والأسباب كثيرة.

حين تبدأ الثقة بين الناس تتراجع، تعلو المادة لتصبح هى الحاكم الأول للعلاقات، لا صوت يعلو فوق صوت الماديات، حتى النوايا الحسنة والأفعال الجيدة تنصهر فى مقابل الممتكلات المادية، لتصبح هى المؤشر الأول للشخصية والدافع الأكبر لإستمرار العلاقة، السبب الثانى، حين يشعر الفرد بألم الحاجة يعرف وقتها جيدا الأشياء التى يتمناها الأخرون، وحين تشعر بالغيرة من شخص أخر، تُدرك بالتالى أن الأخر سيشعر بغيرة ما نحوك، ثالثاً، حين تبدأ علاقاتك الحميمة فى الإنحصار، الطريق الوحيد لكسب شعبية أكبر وتكوين صداقات جديدة هى إظهار أقيم ممتلكاتك وكل ما يدلل على حححجم ثروتك ، وأخيراً والأهم ، الممتلكات المادية تشبع رغبات داخلية فى الشعور بالأمان، أو كما يقول البعض "المادة هى مفتاح السعادة".

حين تتباهى أم بملابس اطفالها الجديدة وتسمع النقد " شوفى مضيعه فلوسها ع اللبس إزاى..؟" ، تعتبره إنتصار فى حد ذاته، لتشعر بالدفء هى وأطفالها المنبعث من نار غيرة الحاسدين.

قلة حيلة النساء

الفقر لعنة، والفقير دائماً ذو وضع إجتماعى متدن ، الحقيقةن لم تسعنى الظروف للتعامل على للكثير من الرجال، لذلك خبرتى عن مجتمع الذكور فى الحى قليلة

جدا، لكن لاحظت أن بعض الرجال يحجمون عن الإختلاط وتبادل الزيارات، معظمهم يخشى دخول الأصدقاء المنزل حتى لا "يعرف أسرار البيت" ، او يقول " دى مراتة وحشة" ، او " العفش قديم ومبهدل" ، لذلك يفضل الرجال مقابلة الأصدقاء خارج نطاق المنزل أو حتى الحى، تجنبا لإحتمالية دخول البيت، الموقف هذا بمقام شاهد على مخاوف الرجال، كما يوضح الإختلاف الكبير بين الرجل والمرأة فى طريقة تعاملهم مع مخاوفهم، وحساسياتهم الإجتماعية.

كمال شاب من أفضل الأسر حالا فى الحى، يدرس فى كلية فنية،هو شاب أنيق مهندم يرتدى أخر صيحات الموضة، فى المقابل إخوتخه وأخواته لا يهتممن بالملبس بالمرة، بل يرتدين الملابس المهلهلة معظم الوقت، أخوات كمال يتهمونه باالأنانية ، لكن فى لحظات الصراحة مع أنفسهم يعترفون بأن تصرف كمال عادل جداً، " كمال كل صحابن مهندسين ودكاترة وظباط، لو ملبسش كويس وبقى زيهم مش هيصاحبوه".

مجموعة من أصدقاء كمال اتوا للحى لزيارته، كان المكان غريبا عليهم، فسألوا الجيران وكل من يقابلوه على منزل شخص يدعى كمال، لكن توقفوا قليلا حين إصطدموا بورشة أحذية صغيرة فى مكان منخفض محاطة بالقمامة، بدا المشهد عبثى جدا، سأل أصحاب كمال صاحب الورشة ، فوصف لهم المنزل بمنتهى التلقائية وحسن النيه، تخبط الأصدقاء فى بين الحارات حتى وصلوا للمنزل المقصود،

فنادى أحدهم على كمال ولم يرد أحد، حتى ظهر أخو كمال الأصغر فى البلكونه يقول " محدش إسمه كمال هنا" ، ثم تراجع " كمال مش موجود"، إستغربوا الطفل ولكن كرروا المحاولة، فظهر لهم عم كمال يؤكد ان لا أحد يدعى كمال يسكن هنا، لكن الزوار لم يقتنعوا وأصروا على وجود كمال هنا بناءاً على كلام الجيران وصانع الأحذية والطفل أخو كمال! ، أخيرا نزل الأب وأخبرهم أن أحدسكان المنزل له قريب بعيد يدعى كمالن إذا كنتم تقصدونه فعليكم زيارته فى الهرم_منطقة أحسن حالا_ هز أصدقاء كمال رأسهم بطرية ذات معنى وإنصرفوا!

للرجال أن يتصرفوا كما تصرف كمال، يتأنقون ويتنصلون من بيئتهم الطبيعية ويعيشون حياة مزيفة بعيدا عن حياة الحى الخلفى، أما النساء فمقيدين، محاصرين ببؤس الحى وفقره، بداية من حوائط منازلهم المتهالكة القذرة إنتهاءاً بالبقع على ملابسهن، الطبقة الإجتماعية التى نشأت فيها بالإضافة لجنسها نفسه، كونها أنثى يقيد حُريتها بكل الطرق، نظرياً، النساء هنا أحرا فى التنقل داخل مطاق القاهرة ،لزيارة أقاربهم فى الأحياء المجاورة مثلا، اما على أرض الواقع، فهى مُلزمة برعاية أطفال ومنزل وزوج، زوج لا بد ان يجدها فى المنزل عند وصوله، وعلاوة على ذلك، الخروج من المنزل بالنسبة للمرأة غير مألوف بالمرة، ويعتبره المجتمع عارا!، وإن حاولت المرأة الحياد عن تلك القواعد غير المكتوبة يطاردها شبح "السمعه" ،"دى بتتسرمح!" ، المقاهى هنا للرجال فقط، وإن كان على إمرة أن تقابل أخرى فلا يمكن ان يتم اللقاء خارج حدود (منزل)... والمنزل

يعنى كنبة بلا فرش، سجادة ممزقة، وبقع الطماطم على الملابس، لذلك فلا عجب من أن إهتمام النساء بحاجيات المنزل والأثاث أكثر كثيرا من إهتما الرجال، فالرجل لا يهمة هيئة المنزل أو الأطفال بالمرة، بل إهتمامه الأكبر يكون لمزاجة الخاص وسهراته وأصدقائه.. وحين يفشل الزوج فى دوره كممول للأسرة، تقع المسؤلية كاملة على عاتق الزوجة لإنجاز ما فشل فيه الرجل، ببساطة لأن المرأة هى من تشعر بالخجل والعار، جين فشل مصطفى فى توفير الإيجار، أم على هى من تعرضت للحرج، وحين طفح الكيل صرخت فى مصطفى: " ماهو مش إنت اللى بتتفضح، المرة الجاية هبقى أبعتهولك ع الورشة، عشان يفرج الناس عليك"، ام على تهدد، لكنها تعلم أن تهديدتها جوفاء، فرد فعلها الغريزى على مدار سنوات زواجها هو ان تهرع لإنقاذ السفينة من الغرق، لم تستطع ولو لمرة واحدة التخلى عنهم ،لذلك هى لن تعتمد على مصطفى، لأنها تعلم ان تسليمه الدفة يضمن الغرق.

مهمة أم على الإنقاذية تكلفها الكثير من العناء والمرارة، لا تفوت أم على فرصة الشكوى من مصطفى لكل الأقارب ، اما التشهير به فى العلن والكلام عن عيوبه لكل الناس من شأنه ان ينعكس بالسلب عليها شخصيا_ كزوجة تحاول الحفاظ على هيبة زوجها_ وعلى الأطفال، كل ما تريده ام على هو النجاة بالبيت والأطفال إلى بر الأمان، أما مصطفى.. فتحقيره لا يفيد بشىء..

حلم أم على ببيت خاص بها، هادىء وأنيق وبعيد عن كل تلك الفوضى، يتناقض بشكل صارخ مع الواقع الذى تعيشة، فالفوضى هى السمة الرئيسية الغالبة على طبيعة حياة أم على، فهى دائمة الشكوى من كثرة المشاكل والضوضاء والفوضى التى تأكل فى الجسد والروح، تعلم أم على جيدا أن الفوضى والضوضاء ليست نتيجة لضيق الحى او مدى إكتظاظة بالسكان، فهى تؤمن أن الناس تحتاج للقرب، للعيش جنبا إلى جنب، أقرب مهما كبرت المساحة، القرب والحميمية يجرى فى دماء المصريين، ربما يرسخ شعورهم بالأمان والإنتماء، لكن السبب الرئيسى لفوضوية حياتهم هو المال، أو نقص المال بمعنى أدق، فعدم وجود مبلغ شهرى محدد مثلا يمنعهم من التخطيط والرؤية المستقبلية، وبالتالى من تحقيق أحلامهم ، ومع ذلك ، يظل الحلم ببيت جديد أقصى آمال أم على فى الحياة، ببساطة لأن منزل جديد لا يعنى مجرد جدران وموقع مختلف، إنما يعنى حياة جديدة ، فالسعادة بالنسبة لأم على_ كما هى بالنسبة للكثير منا_ حلم بعيد يوجد حيث لا نوجد ..

نموذج من حياة ام على كما دونت فى يومياتى:٢٧-٩-١٩٧٥

تبدأ أم على يومها بالشكوى من مدى سوء ليلتها، الليلة كانت أسوأ من أى ليلة مضت، إضطرت للقيام أثناء الليل أكثر من مرة لتغير ملابس نوسا بعد أن بللتها أكثر تلك الليلة بسبب البرد، الساعة السادسة من صباح اليوم إضطرت أم على للصحو مبكراً لشرب الشاى مع مصطفى والأطفال قبل ذهاب مصطفى للعمل والأولاد لمدارسهم،

لكن التعب غلبها فلم تستطع الصمود وذهبت للنوم مرة أخرى، فى الواقع لم تستطع أم على النون من كثرة التفكير فى الديون وسدادها، فى الواحدة بعد منتصف الليل أيقظتها زوجة أبيها مطالبه إياها بالجنية والنصف التى اخذتهم هدى منها لتشترى بلوزة جديدة..

"وحياة النبى ما معايا ولا مليم"، وبعدين أنا قلت للبت دى متشتريش هدوم تانى، عندها الهدوم أكوام أكوام وإخواتها قاعدين تقريبا عريانين!، إمبارح عفاف قعدت تعيط عشان معندهاش جزمة، عندها صندل قديم ومقطع ، قالتلى وهى بتعيط " إنتى بتخلينى فُرجة، الناس بتضحك عليا" ، هدى طماعة، مبيملاش عنيها حاجه، وعايزانى أنا ياللى غرقانة فى ديونى أديها فلوس عشان تجيب بلوزة جديدة ! "مرات أبويا ردت :" إنتى أمها ومسؤلة إنك ترديلى فلوسى، لإما بقى تقرصيها من ودنها عشان تتربى ومتاخدش حاجه من حد ، وبرده تتدفعى الفلوس"، قلتلها ممكن تاخدى نص جنيه دلوقتى والباقى هتصرفلك فيه بعدين؟، أنا ع الحديدة (مفلسة تماما)ر، بس هى مرضيتش تاخد النص جنيه وقالتلى :" أنا عايزة فلوسى كلها مرة واحدة"، وهى بصراحة عندها حق، لو خدت منى الفلوس حبة فى حبة الفلوس هتضيع فى كلام فارغ، إنما لو خدتهم مرة واحدة تقدر تجيب حاجه محتجاها، لحمة أو دوا.."

إعتدلت أم على على طرف السرير ونفضت "الجلابية" التى ترتديها وتفوح منها رائحة العرق والطعام، لليوم السادس على التوالى ترتدى أم على نفس

الملابس، لكن اليوم ستغيرها، فاليوم هو الخميس وغدا يوم الأجازة الإسبوعية، وأخبرتنى أن أنور جاء اليوم من المدرسة مبكرا يبكى، ولما سألته عن سبب حضوره المبكر وسبب دموعه، أخبرها أن المُدرس طرده بسبب الثقب فى كم القميص، حاول الطفل إقناع المُدرس أن أبوه سيشترى له ملابس جديدة للمدرسة الإسبوع المقبل لكن المدرس نهره وأريله للبيت..

**إعتادت الناس تغيير ملابسها يومى الخميس حتى تبدأ يوم الإجازة بملابس نظيفة ، شىء عادى ان يرتدى الكبار هنا ملابسهم إسبوع متواصل دون تغيير، أما الأطفال فيجب أن يكون الزى المدرسى الخاص بهم نظيف ومهندم ومفرود.*

ذهبت أم على لتعد لنفسها كوب من الشاى فى الوقت الذى بدأت معه سيول الشكوى فى الهطول:

" مصطفى ساب النهاردة خمسة وتلاتين قرش للأكل، ومسابش حاجه عشان الدوا" ، إنه اليوم العاشر منذ أن ذهبت للطبيب وكتب لها روشتة ولم يحضرها مصطفى، بدأت حالتها فى التدهو حقا، دائما ما تشعر بدوار وعدم إتزان، لكن مصطفى لا يهتم، اوصاها الطبيب بمحاولة العيش حياة منظمة، تصحو مبكرا وتتناول إفطار جيد ومعه حبة الدواء،يبدوا الأمر مستحيلا،لأن أم على تنام ساعات قليلة جدا، فى كل مرة تذهب للنوم مبكرا يبدأ الأطفال فى الصراخ " ماما فين (...)؟، ماما هاتيلى(.....)" *وفى الصباح عندما تستيقظ تطلب كوب من الشاى* لتتناول العلاج، لكن عليها أن تكرر الطلب أكثر من عشر مرات حتى

يهتم أحد ويسمع !، نصحها الطبيب أيضا بتناول الكثير من الطعام الغنى بالبروتين_لكن كيف فى بيت مثل هذا، بالأمس إشترى مصطفى عشر بيضات مقابل ٣٣ قرش، وجبن وزيتون ب١٧ قرش، القسمة كانت هكذا: مصطفى بيضتان وأم على بيضتان وبيضة واحدة لكل طفل، لكن أنور وعفاف ونوسه لم يكتفوا بالبيضة وطلبوا المزيد، مصطفى سمح لأنور بتناول قضمة من بيضته، فقسمت أم على بيضتها الثانية بين نوسه وعفاف، وهكذا ذهب البروتين!

اليوم ترغب أم على فى "طعمية" للإفطار، طلبت من عفاف (التى كانت تختبىء بجانب النافذة لتأكل قطعة جوافة سرقتها من أعلى الثلاجة) فردت عفاف "حاضر ياماما" ،إنتظرت أم على دقائق ولم تذهب عفاف ، نادتها مرة أخرى فردت" طيب يا ماما" ولم تتحرك ، جربت الأم منى علها تكون أكثر حظا، فإمتعضت منى من كثرة طلبات الأم وعدم طلبها من هدى، فجربت الأم هدى، التى كانت فى غرفتها، فلم تسمع، او إدعت ذلك، وهكذا الحال فى كل مرة تحتاج الأم لشىء، عليها تكرار الطلب على الأقل عشر مرات حتى يستجيب أحد... ظروف أم على الصحية الجديدة أجبرت البنات على القيام بواجبات المنزل التى إعتادت الأم القيام بها، هدى ترتب الأسرة وتعرض المفارش للهواء، منى تغسل الملابس فى يوم الأجازة ، وتمسح الأرض أيضا، اما عفاف فهى الأكثر نشاطا والأخف لذلك فكل أعمال التسوق ملصقة بها_والإقتراض من الجيران أيضا_، الحقيقة أن عفاف من الممكن أن تخرج لشراء

الأغراض أكثر من ١٥ مرة فى اليوم الواحد، بسبب عدم النظام بالطبع، أما الطبخ وإطعام الحمام فمهمة الأم، أم على ..

العالم اليومى للطفل

عالم صغير

خلال الخمس وعشرون سنة التى قضيتها فى القاهرة، طرأت بعض التغيرات الهامة على عالم الطفل الصغير، تطوران فاصلين كانا الأهم على الإطلاق: التلفزيون والمدرسة، كلاهما ساعد فى توسيع مجال رؤية الطفل وإدراكه بطريقة صعب فهمها إلا من عاصر حياة الطفل قبل وبعد، لكن قبل فحص مدى تأثير التلفزيون والمدرسة على حياتهم، دعونا نرجع بالزمن قليلاً، حيث كان هؤلاء الشباب أطفالاً ، الوقت الذى ترعرع فيه أطفال ام على..

عالم الطفل، عالم صغير بفرص محدودة لتنمية مهارات وإمكانيات الطفل، بشكل أساسى، الطفل محصور بين الشقة والحارة، وبعض بيوت أقارب الأم أو أصدقاءها الذين يزورهم من حين لأخر، لكنهم لا يلعبون مع الطفل حين الذهاب إليهم، الأحياء مزدحمة جدا ولعب الأطفال غائبة تماما، زيارة الأقارب بصحبة الأم يعنى ان يجلس الطفل ويستمع لأحاديث النساء، شكواهم وتمنيتهم، الذى يبدوا فى الغالب شيء ممتع، لكن بعيدا عن تلك الزيارات، الفسحة وأشكال المتع الأخرى نادرة فى حياة الطفل.

الحياة داخل الشقة رتيبة ، مليئة بالأشخاص المحبطين،

الذين يقاوموا اى نشاط او حركة للطفل داخل الشقة، الكبار عادة ما يحبطون أى محاولة للعب تجنبا للمشاكل والإتلافات، لذلك تكون الحارة هى المنفث الوحيد للأطفال، وهى أخر املهم فى بعض الترفيه، الحارة توفر مساحة للتنفس، للعب والحركة، وتعطيهم فرصة للصراخ والصياح كما يحلو لهم، فى حين أن الشقة مقارنة بالخارة، تكون مكان نظلم ورطب، و خانق.

حين كسر على زجاج النافذه أثناء لعب الكرة داخل الشقة، حاولت ام على إقناع مصطفى أن الطفل يحتاج لبعض اللعب والترفيه، يجب السماح له باللعب داخل الشقة " إحنا لا عندنا جنينة ولا بنخرج، وأنا بمنعه من نزول الحارة، الإزا وهيتصلح، بس ع الأقل لازم نفرح إن الواد بيسمع الكلام"، لكن مصطفى احبطها برده: " إنتى بتتكلمى كأنك عايشة فى بيت أبوكى، البيت ده إحنا مأجرينه، إحنا كده ولازم نعيش كده، وإلا إنتى عايزة صاحب البيت يرمينا فى الشارع؟" .

من العجب أن السعادة والترفيه من وجهة نظر الأطفال تتمحور حول اللعب فى الحارة، وضد الآباء الذين يمانعون ذلك، يقتنص الأطفال اى فرصة صغيرة للهروب من الشقة، لكن فى العادة لا يبتعدون عن محيط المنزل ضماناً للأمان، حيث تستطيع الأم إنقاذهم بسهولة حين يواجه أى منهم المخاطر، الأولاد يلعبون كرة القدم بالعلب الفارغة، والبنات يلعبن "الإستغماية" او فقط يجلسن ويشاهدن الأولاد، فى العادة يصطدم الطفال ببعضهن أثناء اللعب أو يتخبطون بعنف، بالمصادفة، لكن تظل شبهة

التعمد قائمة بينهم، فيصرخ الطفل مستنجداص بأمه، التى بدورها تأتى لشكو الطفل المهاجم لأمه، متهمة إياها بعدم إحسان تربية إبنها.. الحجة دائما تكون " غلط او صح، ده إبنى "، والنتيجة تكون صدام عنيف بين الأمين يصل إلى حد التشابك بالأيدى وإبلاغ الشرطة، فى حين أن " العيال بيتصالحوا وبينسوا بسرعة، وبيرجعوا يلعبوا مع بعض عادى" .

الحقيقة، جملة "العيال إتخانقوا" ن تكون مبرر او سبب معظم عداءات الأمهات لبعضهن، حين ينضج الأطفال ويمتنعوا عن اللعب فى الحارة، تعود العلاقات كسابق عهدها و تتحسن كثيراً.

سألت أم على مرة، لماذا تتدخل الأمهات فى خلافات الأطفال؟ أليس من الأفضل تركهم لحالهم ومشاهدة تصرفاتهم ؟ فأجابت :" أه، كده هيبقى أحسن، بس العيال هنا فظيعة، الكبير فيهم بيضرب الأصغر منه جامد، بيستقوى عليه، ولو الأم متدخلتش بينهم، ممكن المرة اللى بعضها يضربة أكتر ويأذيه، بس برده المفروض أم العيل اللى إنضرب تشتكى لأم اللى ضربه عشان تتصرف معاه، أمه بس هى اللى هتربيه."

البيت مقابل الشارع

فكرة أن الأم مسؤلة عن تصرفات أطفالها، إلى حد الشجار مع الأمهات الأخريات من أجل منع الأطفال أنفسهم من الشجار والإشتباك لها صدى مهم، إنها ببساطة تفسر عدم وجود شباب يكونون أو يقودون عصابات ضد بعضهم، الأطفال عادة لا يتركون لتكوين عصابات او

أحزاب، فالطفل ينتمى لأمه وعائلته_ حتى الذكور فى سن المراهقة، أحيانا يلجأون للعائلة باكين، فى هذه الحالة تسمح ثقافة المصريين للذكور بالبكاء_ ، لذلك حين يشتبك الطفل فى مشاجرة، الأم والعائلة هى من يلجأ إليهم، لا أقرانة من نفس جنسه، وهذا سبب عدم إبتعاد الطفل عن المنزل أثناء اللعب، اللعب خارج المنزل مسموح فقط بشرط التواجد بالقرب من المنزل، حتى تستطيع الم سماع صرخات طفلها وإستغاثته، لتركض لإنقاذه!.

تلك هى الطريقة التى تحمى بها الم أبناءها من الإنحراف، العنف غير مسموح بالمرة، أحيانا تمتد عتابات النساء، الأمهات، لبعضهن إلى شجار وسباب بألفاظ هجومية، او حتى إلى التشابك بالأيدى، لكن هذا فقط بين النساء، أما الأطفال ممنوع منعا باتاً.

لماذ حرص الآباء الزائد على منع أطفالهم من اللعب فى الشارع؟؟ الإجابة بكل وضوح " عشان قرفهم وقلة الأدب بتاعتهم" ، الأطفال فى الشارع دائما ما يُصفون ب "وسخين"، الآباء الذين لا يوفرون جهدا لحماية اطفالهم من الشارع عادة يغرسون بأذهان أطفالهم تلك الفكرة.

المصريون يرسمون خط فاصل واضح بين "البيت" و "الشارع"، ويحرصون كل الحرص على الحفاظ على خصوصية المنزل، وكأنهم يبعدون الشر والسوء المتواجد خارج حدود البيت..

البيت يمثل كل شىء طيب: اللغة المهذبة، حسن السلوك، النظافة والنظام، والدفء، فى حين أن الشارع بالتالى يمثل كل السوء: الوقاحة، القذارة، والقبح، لذلك

علامة أن يكون الطفل جيد ومهذب هى أن يكون تربى داخل المنزل.

فى الواقع، الأطفال الذين يلعبون فى الشارع ليسوا بأسواء من غيرهم، بل غالبا ما ينبثق منهم شباب ناضج مسؤل وصالح، لكن السبب فى تواجدهم فى الشارع هو الفقر الشديد، الإختلاف الوحيد بينهم وبين هؤلاء الذين تربوا داخل نطاق المنزل، ان فقر الأهل يعوق بين رغبتهم فى الحفاظ على الأبناء خارج المنزل وبينهم، فالأم لا تستطيع أن تغلق باب الغرفة وتمنع الطفل من الخروج للتبول مثلا، فى حين أن الحمام فى الخارج، والأم نفسها مجبرة على الجلوس فى الشارع للحياكة، حيث الضوء.. وهكذا.

لكن الأخرون لا يرون هذا بتلك الطريقة، فى الصراع الأهم لتنشئة الطفل بأفضل شكل، تتهم الأمهات_والآباء_" الأخرون " بالقذارة " قرفهم وقلة أدبهم" فى محاولة منهم لترسيخ فكرة أن من بالشارع هم الأسوأ، بغض النظر عن ظروف الفقر التى إضطرتهم للتواجد بالشارع، فى معركة الحفاظ على الأبناء والأمل فى تربية تؤدى لمستقبل أفضل ، يزرع الآباء فى أبناءهم الأخلاق ويحاولن إبعادهم عن الوقاحة وقاذورات الشارع بكل الطرق حتى وإن كانت الطريقة هى ترسيخ فكرة أنه الأفضل " إنت أحسن منهم، هتبقى أحسن منهم"، حتى لو إحتقر الأطفال أقرانهم .

العصر الجديد: التلفزيون

كان من الشائع حتى أوائل ثمانينيات القرن الماضي أن ترى أطفال يتكئون على أسوار البلكونات ويسترقون

النظر من الشبابيك كمشاهدين حاقدين للعبة التي تجري أحداثها في الحارة والتي تتحيز للأطفال ساكني الأدوار الأرضية. لقد كانت "حياة الشارع" مصر لتسلية الجميع بما فيهم البالغين الذين اعتادو أيضاً على الاستسلام للمشاهدة دون أي مقاومة. إلا أن هذا يعتبر شيء من الماضي فالتلفزيون الآن يستحوز على اهتمام الجميع. دخل التلفزيون للحي لأول مرة في منتصف الستينات إلا أنه لم يصبح ملكية عامة حتى الفترة الممتدة من أوائل حتى منتصف الثمانينات. الآن، يعمل التلفزيون عادةً في كل بيت من الصباح حتى المساء حيث يملئ الفراغ الذي يقضيه أفراد مجتمعي في لعب الأطفال والقراءة والاستماع للتسجيلات وممارسة الرياضة ومشاهدة الأفلام وممارسة الأنشطة المدرسية الإضافية وقضاء الأجازات وغيرها. يعرض التلفزيون المصري مسلسلات وبرامج ترفيهية محضة تقدم الكوميديا والموسيقى والرقص طوال الوقت وكأنها حقنة فيتامين حقيقية لهؤلاء الذين لديهم من المعاناة ما يكفيهم ويزيد.

في الحقيقة ساعد التلفزيون على تحرير الحياة المنزلية من الرتابة والملل فلم يعد معظم الأطفال يهتمون بالخروج للعب حيث يفضلون الجلوس والتسلية. إذاً ينطبق الوصف الموضح أعلاه عن الحياة المنزلية البائسة الكئيبة على الحياة خلال أول خمسة عشر عاماً قضيتهم مع هؤلاء الأشخاص وقد اخترت أن أضعها ضمن حكاياتي للتركيز على الفرق بينهما وبين الحياة بعد دخول التلفزيون فالتغيير

كان هائلاً وشعر به الآباء والأبناء على حد سواء كأنه تحول في الحياة نفسها. لنأخذ على سبيل المثال محاولات أم علي الفاشلة لتجعل مصطفى او علي يأخذانها مع الأطفال لمشاهدة الأفلام كما وعدتهم حتى لا ينزلوا إلى الشارع؛ أصبحت هذه الوعود الآن شيء من الماضي ولم يصبح الأطفال يتشاجرون ويصرخون من الضجر كما اعتادوا. يقدم التلفزيون التسلية التي تبقيهم هادئين وأحياناً مأسورين في البيت لساعات دون انقطاع. ويعد التلفزيون نعمة كاملة بالنسبة للأمهات المرهقات من الصراع المستمر حتى الانتهاء من اليوم لأنه يملئ عقول الأطفال بالصور والضحك مما يحول انتباههم عن كآبة الحياة المنزلية وعن مأساتهم. حتى النساء لم يعدن يتشاجرن كما في السابق لأن أطفالهن لم يعودوا يلعبون في الشارع بنفس القدر إذاً لم يصبح الدافع "صح أو غلط يا ولاد" موجود لتشتعل المشاجرة بشكل متكرر كما كانت فالسابق.

إلا أن الوقت الذي كبر فيه أطفال أم علي يختلف عن ذلك. اشترت عائلة أم علي التلفزيون عام ١٩٦٨ أي أنه من أوائل الأجهزة في المنطقة، لكن ما يعرضه كان محدود جداً في هذا الوقت لذلك نشأ الأطفال وهو يشعرون بالملل والنكد مثل كثيرين غيرهم. بنيما ارتبط أطفاله الصغار بها ارتباطاً شديداً فيتبعونها كأنهم ذيلها ويتأففون للحصول على الاهتمام ويتسولون ويتسلون بالطعام طوال الوقت. وكانوا أيضاً يتحرشون بأخواتهم الكبار ويقاطعون زيارات أمهم بطلباته التي لا تنقطع من أجل الاستحواز على

الاهتمام. قبلت أم علي وكذلك زائريها حق هؤلاء الأطفال في التدخل في أحاديث البالغين مما نتج عن عدم الانضباط والنظام الذي تدينه الأمهات أنفسهن.

الألعاب

هناك ذكرى حدثت عام ١٩٨١ لا تزال محفورة في ذهني. كانت نوسى، البالغة من العمر ثماني سنوات في هذا الوقت، تبحث على شيء ما على الأرض. نظرت إليها فوجدتها قد عثرت على حجارة وقطعة خشب صنعت بهما كفتي ميزان ثم أحضرت جريدة وبعض السكر والتوابل وحزم صغيرة مغلفة. وجلست نوسى لتزن هذه الأشياء. لم يكن هذا سوى مثال على طفلة رأيتها تستخدم خيالها لابتكار لعبة. كانت نوسى سعيدة جداً واللعبة بسيطة جداً حتى أنني لم استطع مقاومة الصورة التي رأيتها بخيالي عن خطوط إنتاج الموازين اللعبة في المتاجر الموجودة بوطني إضافةً إلى غرفة ألعاب ابني التي تفيض بالألعاب.

إلا أنني عندما طلبت من نوسى في اليوم التالي وأنا منبهرة إنبهاراً حقيقياً أن تري لعبتها إلى إحدى صديقاتي، لكن أمها أزاحتها جانباً وقالت أنها لا شيء، مجرد قطعة خشب وحجرة.

لم يكن الأطفال يمتلكون ألعاب غير تلك التي يصنعونها بأنفسهم حتى منتصف الثمانينات. فأنا لم أرى أي أب أو أم يعطيان لطفلهما لعبة حتى عام ١٩٧٩. حينها عادت أول دفعة من الآباء من هجرة العمل في ليبيا وأحضروا معهم عرائس نائمة كبيرة بشعر أصفر حقيقي. وصلت العرائس

في أغلفة سيلوفان وبقيت في أغلفة السيلوفان معلقة عالياً على الجدران كنوع من أنواع الزينة.

وهناك عروسة أخرى كان مصيرها أكثر بؤساً. وصلت العروسة الفخمة من مكة بشعرها الذهبي الأشقر وعيناها الطفولية كهدية لأحد البنات التي ساعدت أمها سيدة على اقتراض مال لتذهب به إلى الحج في مكة. إلا أن أخوات هذه الفتاة لم يأخذوا أي هدايا لذلك عندما رأيت العروسة المرة القادمة بعد أسبوعين، كانت ذراعيها وساقيها منزوعتان وفمها وعيناها مضروبتان للداخل ووجهها ملوث بالحبر؛ باختصار قتلت قتلاً عادياً. أحد الآباء عمل في السعودية لمدة خمس سنوات حتى كسب أموالاً كثيرة ولم يعرف كيف ينفقها لذلك اشترى ألعاب لأطفاله. إلا أن جميع الألعاب تكسرت فوراً وهذا الشيء أدهشني لأن أطفال هذا الرجل مؤدبين وحريصين على ما يخصهم. فقالت لي الأم تفسيراً لذلك: "هم كسروا اللعب عشان عمرهم ما كانوا متعودين عليها. العيال هناك تعرف تحافظ على لبسها عشان هما اتعلموا كده، دي بقت عادة. لكن اللعب ميعرفوش قيمتها."

جميع الألعاب التي أهديتها للأخفطال حتى منتصف الثمانينات أصبحت في وضع مضني فوق الثلاجة أو التلفزيون. إنها ليست للعب كما أن الأطفال لا يهتمون بها كثيراً في تضاد صارخ مع محافظتهم على الملابس التي أهديها لهم. فالألعاب ليست سوى للعرض، أما الملابس فهي تجعلك جميلاً ومحسوداً. ويستمر هذا التفكير حتى اليوم فحتى الطفل البالغ عامين فقط يُظهر سعادة غريبة

بالملابس. إلا أن الزمن يتغير فمع زيادة التعليم، أصبح الوالدان (خاصة الأب) يقدران قيمة الألعاب بالنسبة للأطفال. الألعاب تعتبر حافز لتطوير الأطفال عقلياً وفكرياً. إلا أنها لا تزال شيء ثمين يميل الآباء إلى إخفائها على الرف أو إتاحتها للأطفال تحت إشراف الكبار.

الأيام تشبه بعضها. حلم الأطفال في وقت فراغهم أن يذهبوا مع آبائهم وأمهاتهم إلى الحديقة أو إلى حديقة الحيوان أو إلى الأهرمات للتنزه. زيارة الأقارب في الريف أيضاً مرغوبة بنفس القدر وصعبة التحقيق بنفس القدر. فالتذاكر غالية ويجب أيضاً شراء هدية. وهكذا تضع الحواري قيود ضيقة على حياة الأطفال. العائلة تفتقر إلى المال إضافةً إلى القدرة على التعاون في تنظيم أنشطة مشتركة. الأجازات مثل الأيام العادية تماماً يتم قضائها في المنزل. عادةً يقام اختفال بالختان وهو عادة تتم مرة واحدة في حياة الطفل (للأولاد في سن الثانية وللبنات من سن العاشرة حتى الثانية عشرة). وفي العشرة سنوات الأخيرة أصبح الاحتفال بعيد الميلاد "ضمن" الاحتفالات التي تُقام للأطفال حيث أصبحت هذه العادة الغربية دليل على حالة التمدن والحداثة في مصر كما هو الحال في الكثير من الدول النامية. إلا أن هذه العادة لها أثر كبير في زيادة الفوارق أكثر بين العائلات المرفهة والعائلات الأخرى إضافةً إلى زيادة شعور هذه العائلات بالخجل لأن أغلب العائلات لا تمتلك ما يكفي لإقامة مثل هذه الحفلات.

إلا أن ما ينتظره الأطفال هو العيد الذي يستمر لثلاثة أيام بعد رمضان ويعد العيد أهم أجازة في السنة. بالنسبة

لبعض الأطفال، يعد العيد أسعد وقت حيث يتجولون بملابسهم الجديدة القيمة ويستمتعون بالكيك والحلوى. أما بالنسبة للبعض الآخر، فهو كابوس حيث يختبئون في خجل لأن أهلهم لا يستطيعون إعطائهم أي شيء جديد. ربما يبدو العيد لأي شخص يتابعه أنه شلال من الفرحة يغمر أطفال القاهرة، بينما في الحقيقة من يحتفل بالعيد هم فقط الأطفال الأكثر حظاً. فمصراع الكاميرا يخفي تراجيديا العائلات التي تنتحب فيها الأطفال وتشتكي الأمهات وهن غاضبات من إهمال الآباء. حتى العائلات التي تحتفل، تؤثر نفقات العيد على علاقاتها تأثيراً سيئاً. وكما قال أحد الآباء في نهاية العيد في أحد السنوات: "الحمد لله خلص! الشهر دا والشهر اللي قبله كنا غرقانين فالمصاريف والقروض فالدنيا كلها كانت خناق وقرف." الآباء بالفعل غالباً ما يقاطعون بعضهم البعض أثناء العيد بسبب الشجارات على نقود شراء الملابس للأطفال. لكن بعكس التوتر الذي يسببه الاحتفال بالعيد، هناك حفلات الخطوبة والزفاف التي توفر متعه مجانية للجميع عندما تُقام في الحارة حيث تستمر الموسيقى والغناء والرقص عادةً حتى وقت متأخر من الليل لإمتاع الحاضرين.

المدرسة: طريق إلى المستقبل

وسط هذا الملل والرتابة، تحولت المدرسة بالنسبة للأطفال إلى نشاط مسلي ومحبب. فُرض التعليم الإبتدائي المجاني في مصر عام ١٩٢٣ إلا أنه لم يصبح متاحاً لعامة الناس حتى منتصف الستينات ولم يحضر جميع الأطفال في

المدارس بما فيهم أطفال أفقر العائلات إلا في أوائل الثمانينات. عشق الأطفال المدرسة في الستينات والسبعينات على الأقل في أول سنوات الدراسة. لم أسمع أبداً أي فتاة تقول أن تنتظر الأجازة أو أجازة نهاية الأسبوع. المدرسة هي ما ينتظرونها حيث يستطيعون رؤية أصدقائهم وهناك يحدث كل شيء. فساحة المدرسة هي المكان الوحيد الذي يستطيعون اللعب فيه كما يشائون دون خوف من عقاب الأهل. وقد زاد الطلب على التعليم في مصر زيادة هائلة بسبب التطلع إلى الميزات التي يقدمها التعليم. فهو الذي يستطيع أن يصعد بك السلم الاجتماعي لتصبح من الطبقة المتوسطة عن طريق الحصول على وظيفة حكومية توفر لك الأمان الوظيفي والاجتماعي وهو ما لم يكن متاح في مصر. يقول الأطفال من صغرهم أنهم يذهبون للمدرسة ليصبحوا موظفين حكوميين.

يمكن أن تكون المدرسة في السنوات الأولى مجرد متعة خالصة. إلا أنها تتطلب بمرور الوقت عملاً جاداً وتسبب القلق والتوتر. فالامتحانات لا تؤخذ إلى في الصف الخامس (السادس سابقاً) حيث يحدد أداء الطفلة ما إذا كانت تستطيع مواصلة الدراسة في المدرسة الثانوية العامة أم يجب عليها دخول مدرسة خاصة بتكلفة كبيرة يتحملها الأهل. لكن مع انخفاض جودة فصول التعليم العام التي تحتوي على خمسين تلميذ في المدارس الإبتدائية وفي المدارس الثانوية قد يصل العدد إلى تسعين تلميذ، أصبح من الشائع أن يأخذ الأطفال دروس خصوصية بدايةً من الصف الأول.

وقد أثر ذلك على شعور الأطفال تجاه المدرسة. الآن يذاكر معظم الأطفال بجد من السنة الأولى ويحفزهم أهلهم ويجبرونهم على أداء الواجب طوال الوقت. وبعض الآباء يخفون الألعاب ولا يتيحونها للأطفال سوى في أوقات الأجازة (d. von der Lippe, n.d.). يعد التعليم المصري كارثة بكل المقاييس بسبب كثرة الأعداد في المدارس والمدرسين الذين لا يتقاضون أجر جيد ولا شيء يرفع من روحهم المعنوية. ولولا الجهود المشتركة بين الآباء والتلاميذ والمدرسين الخصوصيين، لانهار النظام. إلا أن الدروس الخصوصية تزيد من الضغط على الأطفال الذين لا يحبون أعباء العمل وكذلك لا يحبون تحميل آبائهم مصاريف مالية. أصبحت المدرسة التي كانت متعة الأطفال في السابق، مصدر لأحاسيس مختلطة.

الخوف من السقوط يبدو كبيراً وزاد في السنوات الأخيرة. عندما يسقط الأطفال في الامتحانات، يتجنب الأطفال وأمهاتهم الاتصال بأي أحد ويختبئون خجلاً. المدهش ليس سقوط الكثير من الأطفال واضطرارهم لإعادة الصف (يُمنح التلميذ ثلاث فرص في كل صف)، المدهش هو أن الكثير ينجحون من الأصل. لقد رأيت أطفال يتمتددون على بطونهم تحت السرير في الظلام الكامل لأداء الواجب كما أنه لا يوجد مساحة للعمل في وسط الصخب الذي يملأ بيتهم. التطلعات والإنجازات التعليمية رائعة والأمهات بشكل خاص يبذلن جهد هائل لمساعدة أطفالهن في طريقهم إلى حياة الطبقة المتوسطة.

ظهر تطور جديد على مدار العشرة سنوات الأخيرة وهو

الحضانة. أصبحت الحضانة أحدث شيء لتأهيل الطفل للمدرسة. تبرعمت الحضانات مثل عش الغراب في جميع أنحاء القاهرة مما يعكس مدى اهتمام الآباء بصنع مستقبل أطفالهم. ورغم ارتفاع تكاليف الالتحاق بالحضانة، يناضل الآباء حتى الفقراء غير المتعلمين منهم لمنح أطفالهم هذه الفرصة. وفي الحقيقة القدر الذي يتعلم به الأطفال مشكوك فيه لأن هناك مدرس واحد ومساعد له مسئولان عن مئات الأطفال لمدة أربع ساعات. بالنسبة للطفل، تعني الحضانة جنة من الحرية والمرح سواء كان يذهب إليها ويعود ماشياً أو بالحافلة، حيث يشترك في اللعب والكثير من الأنشطة المثيرة. لقد رأيت الكثير من الأطفال المتجهمين المنطوين يتحولون إلى شخص آخر عندما يدخلون الحضانة. إنها توفر الإثارة التي لا يوفرها اللعب في الحارة لكن مع اختلاف صارخ وهو أن الحضانة دليل على الوضع الجيد والاحترام.

الذكاء والكفاءة الاجتماعية

ترى الأمهات بشكل عام أن الحياة هي أفضل مدرسة وأن المدرسة الأكاديمية مجرد وسيلة لصعود السلم الاجتماعي. فتعليم الأطفال كيف يعيشون يعني تعريفهم بحقائق الحياة. يندمج الأطفال في القاهرة "في الحياة" بطرق تمنعها عادات ومفاهيم الطفولة في الطبقة المتوسطة في الغرب. الأطفال هنا لديهم علاقات عديدة بالبالغين من جميع الأعمار والمستويات – نساء في الغالب – ويجب عليهم أن يتصرفوا جيداً (بدلاً من أن يكونوا "أطفال")

وينتظمون عندما يحيدون عن النظام؛ ويتعلمون الاحتشام واحترام الكبير وتقدير الحكمة التي يمنحها الزمن؛ ويتعلمون أيضاً كبت رغباتهم الفردية أمام احتياجات وسلامة الأسرة التي تعد مصدر إحساسهم بالإنتماء والأمان. يتمتع أطفال القاهرة بذكاء وكفاءة اجتماعية تساعدهم في حياتهم. فهم يتعلمون "نماذج" للتعامل مع السيناريوهات والمواقف الاجتماعية المتنوعة ويتعلمون مجموعة من الطرق العملية لحل العديد من المشكلات مثل كيفية تسوية النزاعات والمساهمة في جمعية أو تنظيمها والتعامل مع الزوج. كما يتعلمون رعاية الأطفال وتصبح لديهم مهارات في تكوين العلاقات ومواهب الخطابة التي تحتل مكانة أساسية ومهمة في مجتمع تحدد فيه مهارات الاتصال قدرة الشخص على الحصول على الكثير من الموارد النادرة مثل الصداقة والقروض والائتمان والوظيفة .. الخ. ويتعلم الأطفال أيضاً أنه لا توجد طريقة سوى مساعدة النفس من أجل النجاح في الحياة فالله يساعد العبد الذي يساعد نفسه. من الطبيعي أن يختلف كل شخص عن الآخر ولا ينجح الجميع بنفس الدرجة، إلا أن المدهش هو مدى تطور هذه المهارات بشكل عام بين الشعب. لذلك فإن افتقار الأطفال لفرصة تطوير قدراتهم الفكرية يتم تعويضه بطريقة ما عن طريق تحقيق الامتياز في مجالات أخرى لها أهمية أكبر بالنسبة ويعد هذا جزء كبير من السبب في مرونتهم. وهذا لا يقلل من معاناتهم وصراعهم. فالفقر يسبب ألم دائم ويحبط جهود الأطفال ليصبحوا شيء ما ويفتخرون بأنفسهم. أما المراهقة فهي

وقت خاص للتجربة في مصر كما هي في العديد من المجتمعات. عانت بنات أم علي الثلاثة من صعوبات خاصة في الحياة. وتوضح قصة كل منهن بطريقتها الخاصة الصعوبة المضاعفة لأن تكون الفتاة فقيرة وصغيرة في نفس الوقت.

الجزء السادس

ثلاث طرق من البؤس

١٩

موت أمين

فى حياة ام على مأساة لم ولن تتعافى من آثارها رغم مرور الزمن، أصبحت حياة أم على تنقسم إلى "قبل" و "بعد" ليلة وفاة أمين إبنها منتحرا وهو فى التاسعة عشر من عمره، لم تؤثر حادثة على صحة وأعصاب أم على كما أثرت حادثة إنتحار إبنها، حتى مرض السكرى الذى أصابها وإلتهم صحتها شيئا بشيء حتى كان سيودى بها للعمى لم يكن له نفس تأثير موت أمين، فى الواقع حين زار الموت البيت، أخذ أمين كله، وأخذ جزء منها .

أخر مرة رأيت فيها أمين كانت قبيل وفاته بخمس أيام ، حين كنت أودع الأسرة بعد مكوث حوالى شهر معهم فى القاهرة، كان مضطرب ومشدود بطريقة غير طبيعية، كما كان فى حالة خصام مع والديه وإخوتة البنات، لذلك لم يكن فى الإمكان توقع قرب الكارثة، إنتحارة كان صدمة لكل من يعرفه، فى العام التالى خكت لى منى القصة كاملة: "كان قبل بداية الدراسة بشوية صغيرين، امين كان

بيشتغل فى محل ملابس عشان يكفى مصاريف لبسه، هو كان بيهتم باللبس اوى، وكان دايما شكلة حلو ونضيف.. فاكراه؟.. ماما كانت دايما تقوله إنت رايح المدرسة تتعلم مش رايح عرض أزياء، بس أمين كان صح، هو كان فى المدرسة الثانوية،(ثانوى تجارى) وكل اللى فى المدرسة ولاد أغنيا وبيلبسوا كويس، لو هو مبقاش زيهم كانوا هيتريقوا عليه، أمين كان محوش كل فلوسه عشان يشترى هدوم، مكانش بيشرب سجاير ولا بيرة.. كان بيدخل جمعيات عشان يحوش الفلوس، جمعايت مع ماما، المرة دى كان عامل جمعية يقبضها عشرين جنيه، كان مشترك بنفرين، قبض نفر فى الأول خالص، وعلى دخول المدارس قال لماما إنه عايز يقبض النفر التانى، ماما قالتله مستحيل، ده دور عمك أحمد، إتعصب جدا وقالها إن شالله تدينى نص الفلوس طيب، قالتله ما ينفعش، كده هعمل مشكلة مع عمك أحمد، أمين إتعصب جدا وكان هيتجنن، أتخانق معاها ومبقاش يكلمها، وبقى عصبى جدا وبينخانق مع أى حد يكلمه ، وهو عمره ما كان كده...

وفى يوم بعد الخناقة مع ماما ب خمس أيام، صحانى من النوم بطريقة غريبة ، شدنى من دراعى جامد_حتى دراعى إزرق_ وقاللى قومى إعمليلى شاى، قولتله طيب هعملك شاى بس كان ممكن تصحينى بالراحة شوية ! إتعصب عليا وضربنى فى وشى كتير _كانت اول مرة أمين يضربنى فيها، امين كان طول عمره طيب وهادى_ هددته إنه ممكن أروح لبابا الورشة وأقوله إنه بيضربنى، بس صاحبة ماما_ كانت متخانقة مع جوزها وقاعدة عندنا_قالتلى " متروحيش

لأبوكى كده، يمكن يكون مشغول ويتخض لما يشوفك جايه عليه بتعيطى كده"، بس لما بابا رجع بليل حكتله عالللى أمين عمله، قام بابا زعق لأمين وقال له: " لو حد من إخواتك عمل حاجة ضايقتك تيجى تقوللى وأنا هتصرف، إنما لو إيدك إتمدت على واحدة فيهم مرة تانية أنا بقى اللى هربيك"، أمين زعل جدا وخاصمنا كلناه، الكلام ده كان قبل موته ب عشرين يوم، مكانش بيكلمنا طول الفترة دى، ولما يكون عايز حاجة_ شاى مثلا_ كان بيقول للصغيرين، عفاف أو انور..

اليوم اللى مات فيه أمين كان على فى أجازة من الجيش، قال لماما إنه نفسه فى سمك ع العشا، ماما قالتله حاضر، وراحت هى وأم مجدى الهرم يبصوا ع الأرض بس إتأخروا هناك، ولما رجعت كان بتوع السمك قفلوا، المهم على دخل عليها المطبخ لقاها بتحمر بطاطس، إتنرفز وقعد يقولها كلام صعب خالص،" إنتى بتكدبى وبتاخدينى على قد عقلى، إنتى مهملة وقاعدة فى البيت مبتعمليش حاجه، بتضيعى وقت وخلاص.... " وكلام زى كده كتير، ماما مستحملتش كلامه وإنفجرت فيه هيا كمان، وقالتله إن هو كمان قاعد يأمر ويطلب ومبيمدش إيده فى جيبه يدفع مليم فى البيت، فى الوقت ده دخل امين عليهم ووقف فى صف على وهو كمان قعد يزعق فى ماما ويشتموها هما الإتنين، ماما قالتلهم إطلعوا بره البيت حالاً، لو مطلعتوش بالذوق هنادى أبوكوا يطردكوا ، على قاللها " فى داهية البيت كله"، وخرج هو و أمين ..

وعرفنا إنهم كانوا بيتقلوا من صاحب للتانى، وبالليل

خالص راحوا عند واحد صاحب على كانوا هيناموا عنده، بس مكانش عنده غير سرير واحد، فعلى قال لأمين روح إنت البيت وأنا هنام هنا ، أمين قاله لو بابا زعقلى لما أروح "أنا هعمل فى نفسى حاجه"_(تهديد بالإنتحار)_ و هو مروح عدى على بيت محمود أعز صحابه، كانت الساعة واحد بعد نص الليل بس محمود مكانش فى البيت، أمين قال لأم محمود خليه يعدى عليا الصبح الساعة تسعة " عايزه ضرورى"..

الليله دى كانت صعبه، محدش فينا قدر ياكل غير بابا، أنا وهدى كان ع السرير بنتقلب مش عارفين ننام، وماما كانت قاعدة تعيط فى أوضتها لوحدها، الساعة ٢ بليل سمعنا خبط ع الباب، هدى جت تفتح لقت بابا_للمفاجأة_ صاحى وقام فتح الباب لقاه أمين، زعقله، وبصراحة كان يستحق الزعيق_ وقاله لو عمل اللى عمله ده تانى هيطرده من البيت خالص ويبقى يتصرف هو فى حياته لوحده، وبعدها كلنا روحنا ننام، كلنا إلا ماما، فضلت تعيط فى أوضتها، أمين قعد يتقلب ع الكنبة ومش قادر ينام، بعد شوية قام دخل المطبخ، صاحبة ماما دخلت وراه تسأله إذا كان عايز حاجه، قالها "لأ انا بس هعمل شاى"، قالتله أعملهولك انا بس هو مرضيش، وبعدها مسمعناش غير صوت صريخ ماما، كلنا نطينا من سرايرنا مفزوعين وشوفنا النار طالعه من الحمام (حوائط الحمام قصيرة لا تصل للسقف)، بابا كسر الباب بكل قوته ولما شاف أمين إنفجر فى البكا ومقدرش يتحرك من مكانه، وأنا وهدى جرينا ع البلكون وقعدنا نصوت ونقطع فى هدومنا وشعرنا، ماما الوحيدة

اللى كان فيها عقل، شدت أمين بعدته عن النار ولفته فى بطانية وخدته على حجرها وقعدت تبوس راسه وتحضنه وتعيط وهو كان ثوته خلاص راح من الدخان وكان يادوب قادر يتكلم بصوت ضعيف وقالها " سامحينى ياماما، سامحينى متزعليش منىن أنا خلاص هموت" ..

إتصلنا بالإسعاف، العربية جات مشغله السارينه بتاعتها، لسه صوتها فى ودنى، وخدوه وكل ما يروحوا لمستشفى منلاقيش مكان، لحد ما ودناه مستشفى فى العباسية متخصصة فى الحروق، دخلوا امين فى غرفة إستقبال، ودخل معاه عمى أحمد وخالد خطيب هدى بس، منظر امين كان بشع ومكانوش عايزين حد يشوفه، بابا مدخلش، الصدمة شلت تفكيره وخلته زى المجنون، بس ماما كانت مُصرة ترشى الدكتور عشان يرضى يدخلها، بس خالى احمد خدها وبعدها، كان خايف عليها تنهار لما تشوف المنظر..

إحنا ركبنا تاكسى وروحنا البيت، كان الساعة ٣ الفجر، بعدها ب ٣ ساعات ماما وبابا وخالى أحمد وأم مجدى وخالد خطيب هدى راحوا المستشفى تانى، خالى احمد راح يكلم الدكتور لوحده، الدكتور قاله إن امين مات بعد ما مشينا بشوية، خالى أحمد رجع بيعيط بس مقالش إن أمين مات، قال إنه بيعيط من المنظر اللى شافه " إبنك هيبقى كويس"، بس هو محتاج راحة وهنبقى نزوره بكرة، بس فى الطريق خالى احمد كان منهار من العياط لدرجة إنه مقدرش يسوق العربيه، نزل ونده واحد صاحبه يسوق بداله، فماما فهمت إن أمين مات ، كلهم رجعوا البيت بيعيطوا ويندبوا،

كانت رجليهم مش شايلاهم، بالعافيه واقفين، أنا وهدى سمعنا صوتهم من بعيد، جرينا ع البلكونه وقطعنا الجلاليب اللى علينا وقعدنا نصوت، عيطنا بطريقة محصلتش قبل كده_وإن شاء الله_ مش هتحصل تانى، الناس كلها جات علينا، كل الناس كانت بتعيط، حتى اللى منعرفهمش..

فى المستشفى، حطوا جثة امين فى التلاجة، الدكتور مرضيش يديهولنا، قالنا لازم البوليس يحقق فى الحادثة الأول، بس خالى احمد إداهم رشوة، فلوس كتير، وخدنا الجثة، كنا ناوين ندفنه من ورا ماما، كانت عاملة زى المجنونه، بتعمل حركات غريبة بوشها وكانت مذهولة وبترق لأى حد يكلمها، خفنا عليها متستحملش تشوفه بيتدفن، بس هيا قلبها كان حاسس، وإحنا كان مفرض نفهم ده، ماما كانت دايما بتحس بأى حاجه هتحصل لولادها من قبل ما تحصل..

الصبح وإحنا رايحين الجنازة_ندفن أمين_ محمود صاحبه جه الساعة تسعة، شوفتى، كان امين قايل لأمه خليه يجى الساعة تسعة عايزه ضرورى، محمود دخل البيت وأنا كنت نازله ع السلم، شفت محمود قمت إترميت فى حضنه ومسكت فى رقبته وقعدت أصرخ وأقطع فى هدومى وأقول " أمين ماات ، محمود ماات، أمين ماات ، محمود مات .." وحسيت بدماغى بتلف، محمود إفتكرنى إتجننت ، بس واحدة ست جت وقالت لمحمود اللى حصل، محمود مستحملش الخبر وأغمى عليه، وشالوه ودوه الجنازة وهو مش قادر يقف على حيله..

جنازة محمود كان فيها ناس كتير أوى، الجيران اللى فى

حارتنا واللى فى الشوارع اللى جنبنا، وصحاب أمين كلهم، اللى نعرفهم واللى منعرفهمش، لما خلاص كانوا هيحطوا امين فى التربة، كذا واحد من صحابه نطوا جواها وقالو "لأ أمين مماتش، هتدفنوه إزاى، هو مماتش.." وأغمى عليهم، وأنا وهدى أغمى علينا، فشالونا ورجعونا العربية تانى..

بليل فى العزا، حصلت مشاكل كتير وخناقات، قرايب بابا كانوا عايزين يجيبوا "معدده" (نواحه)، بس خالى أحمد وقفلهم وقالهم حرام عليكم إحنا عايزين الليا تعدى بسلام، ولما أصروا خالى أحمد زعق فيهم جامد وقالهم " اللى هيجيب سيرة معدده هطلع عينه وهبهدله، صُحاب الحزن قاعدين ساكتين مش حاسين بحد، وإنتوا عايزين تكدبوا على نفسكوا تمثلوا الحزن"، اللى حصل إن كلام خالى أحمد هو اللى مشى ومحدش جاب معدده، بس من ساعتها وقرايب بابا وخالى أحمد متخاصمين ومبيتكلموش..

بعد الجنازة، ماما إخرست(فقدت النطق) لمدة سبع شهور، كانت أيا فظيعة، كانت هتموت من الحزن، وبابا مكفاهوش الى فيها وكمان إتهمها إنها هى اللى قتلت أمين، قالتلة لأ ده على، على لو مكانش طلب سمك اليوم ده مكانش كل ده حصل، بس هيا قالت كده عشان هى مكانتش فى وعيها، لما بدأت تركز وتشد حيلها شافت الحقيقة، أمين مامتش عشان إتحرق بالنار، أمين مات عشان معاده جه ..

ماما كانت بتقل لبابا لما يقولها إنتى اللى موتيه " إنت بتسأل النهاردة وهتسأل بكرة، وهتنسى، إنما أنا أمه، أنا

هفضل طول عمرى فاكراه" ..تانى يوم بعد الجنازة، واحد صاحب أمين جه تحت البيت وقالنا "إنتوا اللى قتلتوه" ، قلناله،" إنت جيت النهاردة تقول كده وهتروح وتنساهن إنما إحنا هنفضل فاكرينه طول العمر".

موت أمين كان خامس، وأسوأ، موت فى عيلتنا فى فترة قصيرة جدا، ٣ شهور بس، ٣ شهور مات فيها خمسة من العيلة، أولهم كان خالتى شادية، ماتت وهى بتعمل عملية اللوز، كان عندها ٢٨ سنة بس، بعدها إبن عم بابا مات فى حادثة، كان سواق لورى والعربية إتقلبت بيه فى الصحرا، بعد كده جدى أبو ماما مات، بس ده ع الأقل مات موتة ربنا، موتة طبيعية يعنى ، بعدها ب ٣ أيام المصنع اللى بيشتغل فيه إبن خال ماما فى إسكندريه إتحرق وهو مات جواه...

لما أمين مات مكانش لسه الأربعين بتاع جدى عدى، بس كل ده إحنا إستحملناه عشان موتهم مفهوم ، حاجات عادية، إنما أمين ... محدش مصدق إنه مات كده..

فى ال٣ شهور دول حصلنا مصايب كتير غير الموت، مرة الغسيل بتاعنا كله إتسرق، وكان فيهم أكتر ٣ بنطلونات بيحبهم أمين، كنا بننشر الغسيل عادى ونسيبه ينشف طول الليل، بس من ساعتها مبقيناش نسيب منديل حتى ع الحبل، كمان إتسرق مننا سجادة تمنها ٢٥ جنيه ، كان زبون عند بابا إدهاله تسديد حق، بدل الفلوس، بس السجادة كانت كبيرة أوى، فبابا قال هنشيلها لواحدة من البنات لما تتجوز، لما خالتى شادية ماتت كنا ناشرينها ع الحبل تتهوى، بس كلنا إتلخمنا فى موتها ومحدش جه فى باله يشيلها من

ع الحبل، فإتسرقت!، بابا قعد يلوم ماما وماما تلومنا إحنا البنات، بس فى الحقيقة محدش كان قادر يفكر فى حاجه وكلنا أعصابنا كانت بايظة..

بعد موت أمين، الناس قالولنا نعزل ونسيب البيت، عشان بيتنا بقى مسكون وعفريت أمين فيه، عشان مماتش موته طبيعية، بس هنروح فين؟ هنجيب منين، لازم ندفع (خلو) كبير وإحنا معناش فلوس . ماما قعدت شهرين متدخلش الحمام فى البيت بعد موت أمين، كانت بتروح عند أم جمال، أنا وهدى كنا بنخاف برده، بس كنا بنتكسف نروح لأم جمال، فكانت واحدة بتقف حارس للتانية قدام بابا الحمام...

أول كام شهر بعد موت أمين، خالى أحمد وستى(جدتى) قعدوا معانا فى البيت عشان كنا خايفين، بس مافيش عفريت طلعلنا، وده بيأكد أن أمين مماتش فى الشقة و كلام مامان إن أمين مماتش محروق، أمين مات عشان معاده جه..

مرة ماما دخلت الحمام وحاجة مسكت فى جلابيتها، ماما إترعبت وإفتكرته عفريت أمين، بس مسكت فى نفسها وكتمت صرختها .. باليل .. امين جالها فى الحلم وقالها "متخافيش يا ماما .. أنا معاكى!".

مرض عفااف

فى عيون امها، عفاف فى شبابها تمثل الجمال عينه، فى أى وقت تتحدث فيه ام على عن فتاة وتريد وصف جمالها تقول " جميلة، حلوة كده زى عفاف" ، بالفعل كانت عفاف جميلة، بعينيها الواسعة اللوزية، جلدها الذهبى الناعم، وخدودها الممتلئة بغمازاتها المميزة، جسدها طويل،

ناعم، بصدر جيد الإستدارة_ صفات مستحبة فى المرأة_ ، لكن للأسف، فى مقابل جمالها الآخاذ، كان على عفاف أن تدفع ثمناً.

ترى الأم أن السبب كان غيرة أخواتها الأكبر سنا من جمالها، طالما هددوها " إياكى تتجوزى قبلنا"، كانت عفاف أصغر من أصغرهن بسبع سنوات، والعادات تفضل زواج الأكبر فالأصغر، من غير المستحب زواج البنت الصغرى قبل أختها، لكن يمكن تخطى العادات إذا كانت الصغرى مرغوب فيها بشطل كبير، كما قالت أم على " اللى ميعرفوش بيفتكروا عفا الكبيرة، عشان طويلة وفايرة" (فايرة تعنى تتمتع بأنوثة عالية رغم صغر سنها).

فى يومياتى من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٨ دونت ان هدى ومنى جعلوا حياة عفاف جحيماً، فطالما أمروها وكلفوها بأعمالهن، إستولين على ممتلكاتها الخاصة، وكثيرا ما وبخاها بقسوة، وكم حاولت عفاف التمرد والسخط، لكن كانت معركتها خاسرة ، فى يوم ١٧ أكتوبر عام ١٩٧٥ كتبت، " أستطيع تخيل كيف ستعامل عفاف نوسه حين تكبر قليلاً" ، نوسه كانت فى الرابعة من عمرها حينها.

لكن الأحداث أخطأتنى، زادت الضغوط على عفاف، للدرجة التى لم تستطع تحملها فمرضت، تحكى أم على القصة من البداية قائلة:

" كنت فى المستشفى بعد ما ولت العيل الى مات فى بطنى، كنت تعبانة جدا من الحمل والمشاكل بتاعت البيت، زهقت، فقولتلهم محدش يجى يزورنى، مش عايزة أشوف حد منكم، وقلت لمرات أبويا تمنعهم إنهم يجوا، بس عفاف

هى الوحيدة اللى جاتلى، جت وراسها مفتوحة، أبوها حدفها بالكرسى وعورها فى جبينها عشان كانت بتلف فى الشوارع،
سألتها : .. طب إنتى كنتى فين؟؟
ردت وهى بتعيط :" والله يا ماما ما كنت فى حته"
_"طب كنتى بتعملى إيه؟"
"مكنتش بعمل حاجه"
_ " طب يعنى هيكون أبوكى ضربك ليه؟"
" معرفش ياماما، البيت بيذلنى"
_" إيه اللى بتقوليه ده، بتتكلمى كأنك عايشة مع مرات أبوكى"
" لأ ده ألعن"
بس بعدها فهمت إنها كانت عيانة، عندها مرض نفسى، وزعلت من نفسى أوى إن مفهمتهاش م الأول، ياريتنى ما كنت ضربتها، إحنا مكناش مصدقين إنها ممكن تكون عيانة بجد، أصلها عذبتنا وتعبتنا معاها، كانت بتخرج م البيت الساعة سبعة ولا تمانية بالليل، وتقول إنها رايحة لحد من قرايبنا، وتتأخر ومترجعش إلآ الساعة إتناشر، واحدة، او إتنين كمان بعد نص الليل، كنت أنا وعلى نجرى فى الشارع زى المجانين، نسأل اللى رايح واللى جاى" مشوفتش بنت صغيرة شكلها كذا ولابسة كذ؟" ، والناس طبعا هتتكلم، لما نسأل نعرف إنها راحت فعلا عن قرايبنا ، بس قعدت دقيقة عند كل حد ومشيت، ولما ترجع ونسألها كنتى فين مكانتش بترد، على ضربها مرة لحد ما بقها جاب دم وورم بقى قد كده (تصف بتعبيرات وجهها)، وأبوها

ضربها بجزمتة والبونيات لحد ما البت يا عينى إزرقت، كنا بنعمل كده عشان خايفين عليها، البت بنت بنوت (عذراء).

عشان أبقى صريحة معاكى، أنا معرفش هى لسه بنت ولا لأ ..

عفاف أكتر حد من عيالى تعبنى معاه، كنت دايما بقول إنها بتهرب م البيت وتلف فى الشوارع م اللى بيتعمل فيها، إخواتها كانوا بيشدوها من شعرها، قبل ما تقصه، ويضربوها بصنادلهم، ويحدفوها بأى حاجه قدامهم عشان تنطق تقول كانت فين، ومفيش حاجه نفعت، أنا دلوقتى فهمت إنها فعلا مكانتش تعرف زى ما كانت بتقول."

تعتقد أم على أنها تعلم جيداً سبب حالة عفاف، فعفاف دائماً "ساكتة، تاخد الحاجات على قلبها وتكتم، مش ى إخواتها، كلهم بيتكلموا ويطلبوا ويزنا، هدى بالذات كانت فظيعة، كانت دايماص تأمر عفاف كأنها الخدامة بتاعتها.. " إغسلى، إكنسى، إمسحى، إجرى إعملى كذا، هاتى كذا .." عفاف كانت مسكينة يا عينى، بتزعل طبعا، بس واحدة مكانها كانت إتخانقت وصرخت وإشتكت لصحابها وأهلها، بس عفاف عمرها ما عملت كده، طالعة زى أمين، حتى وهو صغير كان كده، عاقل وهادى ، إلإتنين كده، عاقلين وفاهمين الدنيا، بس مبيقدروش يتكلموا ولا يشتكوا..

لو بس عفاف كان ليها صحاب تتكلم معاهم وترفه عن نفسها، كانت هتبقى أحسن، بس هى دايما كده وحيدة وساكتة، حتى لما أمين مات وجسمة إتحرق وشافته، فضلت

مصدومة وساكتة منطقتش، أما إخواتها البنات جريوا ع البلكونة يصوتوا و يخرجوا اللى فى قلبهم.

عفاف يا عينى أستحملت كتير من إخواتها البنات، بالذات هدى، دايما تهددها "إياكى تتجوزى قبلنا"، وكانت بتقولها "عشان إنتى بتاكلى أكلنا عمال تتخنى"، وده صح، كانت بتاكل من أكلهم، بس عشان مكانتش بتبقى عارفه هى بتعمل إيه، بس الكلام ده قبل ما يسدوا نفسها عن الأكل، دلوقتى هى مبتاكلش خالص، خست خمسة كيلو مرة واحدة، ول خست أكتر هوديها للدكتور..

هدى أختها عندها الهدوم أكوام أكوام، وهى يا عينى بتلبس اى حاجه، وهدوما مبهدلة/ أوقات بتعيط وتقوللى"إنتوا عايزين الناس تضحك عليا"، هى وأخواتها المفروض يلبسوا سوا، زى ما إنتى عارفه، بس هما مبيرضوش، بيقولوا إنها يتوسع الهدوم، عشان هى تخينة، دلوقتى بقى هى عايزة كل حاجة تبقى بتاعتها لوحدها، عايزة يبقى عندها زى أخواتها بس ليها هى بس، أنا شرحتلها إن ده مستحيل، وأن هما عندهم حاجات كتير عشان هما بيشتغلوا وبيجيبوا فلوس.

بس عفاف بتفرح بأى حاجه أجيبهالها، عشان كده كل فترة بحب أجبلها حاجه كده صغيرة عشان أفرحهها، بقولها " بصى يا عفاف، شوفى جيتلك إيه"، تفرح ووشها ينور زى الشمس، مها كانت الحاجة صغيرة، إنما منى ولا هدى ... !!

بس فيه مشكلة كبيرة، عفاف متعودة تدى حاجاتها للناس، لما واحدة من صحباتها تقولها " الله يا عفاف حلوة أوى" ، تقولها " إتفضلي خديها!" ، بتتكسف من الناس،

بتخاف لا يقولوا عليها بخيلة، ياما فهمتها إن مش عيب الواحد يحافظ على حاجاته لنفسه، ممكن تقوللى إن دى هدية من ماما او من بابا ومتديهاش لحد، بس أخواتها لسه بيخافوا يدوها حاجاتهم لا تديها للناس..

عفاف نسايه(كثيرة النسيان)، بتنسى هى حطت الحاجات فين، ومزاجها وتركيزها بيتغير بسرعة جدا، ممكن تنمسك كتاب المدرسة تذاكر فيه، وبعد دقيقة واحدة تسيبه، بس هى بتتحسن دلوقتى، الحمد لله، إشترتلها شنطة للمدرسة، مستعملة، بس حالتها كويسة، إشترتهالها بجنية، بدأت تروح تذاكر عند صحباتها، وبدأت تتكلم شوية، بتكلم منى، بس فين وفين لما تكلم هدى.

السنة اللى فاتت (١٩٧٨) إترفدت من المدرسة، كانت بترقص فى الفصل، المدرس قال غنها كانت بتعطل الحصة، طردوها وقعدت فى البيت نص سنة ، ولما روحت أرجعها، المدرس قالى إنها تحت المراقبة لمدة أسبوع، لو إحترمت نفسها وقعدت هادية فى الفصل هخليها، لو محصلش هرفدها تانى، بس هى رقصت تانى، مسكينة عفاف، دى الحاجة الوحيدة اللى بتحس إنها أحسن فيها، عفاف بترقص أحس من اى حد، فبترقص عشان تحس إنها مميزة، وديت عفاف للدكتور وكتبلها جواب للأستاذ بيقولوا فيه إن عفاف لازم ترجع المدرسة وتتعلم، صحتها أهم وهى تعبانة ولازم نراى ده، س المدرس مرضيش برده، لكن أنا قللته إن الدكتور قال لو عملت أى مشكلة تانى هيوديها للبوليس !!..

عفاف بتحب ترقص، من وهى صغيرة كان باين إنها

بترقص حلو أوى، لما كانت تيجى مزيكا ع التلفزيون كنت أعل الصوت وأقولها أرقصى، فى الأول كانت بتقول إنها بتتكسف، بس انا قولتها "الكسوف عيب" ، الرقص بيفرحك، لما بترقصى بتخرجى المشاكل من جواكى..

بسيب عفاف على راحتها، تروح المدرسة وقت ما تعوز، وتغيب وقت ما تعوز، مش مفروض أغصبها على حاجه، أصلا ده كان سبب مشاكلها، إنها عمرها ما عملت اللى هى عايزاه..

مع إنها إتحسنت كتير دلوقتى، بس أنا عمرى ما هرتاح إلا لما تخف خالص، والفكر بيطاردنى بالليل والنهار: " ياترى هتخف خالص، أنا خدتها لدكاترة كتير، دكتور بجنيه، ودتور بجنيه، ومرة دكتور بعشرة، دفعتلها عشرة جنيه، وسألتهم كلهم " هى مجنونة؟"، يقولولى لأ ، أرتحت شوية، بس لما لقيتها مبتخفش، الشك رجعلى تانى، أنا لازم أعرف إذا كانت مجنونة ولا لأ، أخر دكتور روحناله، اللى بعشرة جنيه، إتحايلت عليها يديها جلسات كهربا، سمعت إنها كويسة وهتخليها تخف على طول، بس هو مرضيش، سأل عفاف : " عاملة إيه؟" ، قالتله " زى الزفت" .. فرد وقاللى "شفتى، هى مش مجنونة، هى بس محتاجه شوية عطف وحب وتريحوها شوية."

عفاف الآن تتمتع بالحب والراحة، جزيئا بسبب إنشغال أختيها الأكبر فى العمل، وغيابعهم عن البيت معظم الوقت، لكن السبب الأكبر هى حب وعطف أمها عليها، لم يكن على عفاف بذل أى شىء للحصول على حب امها، فهى منذ ولدت وهى الإبنة الجميلة المريضة، أم على لم

تكن تدرك ما عليها فعله، لكنها الآن تفهمت مرض عفاف، لتساعد إبنتها على الشفاء أضطرت أم على لتحمل الكثير من باقى أفراد العائلة..

بفضل أمها، أتوقع خروج عفاف من مرضها أقوى، أكثر ثقة فى إمكانياتها، وأقدر على تنظيم حياتها والتغلب مصاعبها..

أتيحت لى الفرصة فيما بعد لأرى تحقق توقعى، بالفعل إكتسبت عفاف بمرور الوقت ثقة أكثر بالنفس، وقدرة أكبر على الصمود فى وجه الحياة، لكنها أيضا خسرت الكثير نتيجة مرضها، أصبحت الحياة أكثر حدة وخرجت عن سيطرة الأم، ولم يهنأ المنزل بالسلام أو الراحة حتى بعد زواج الأختين الأكبر، فى ذلك الوقت كانت قد بدأت نوسه، الأخت الأصغر العنيدة فى إستلام زمام المعركة بعدهن..

ظلت لعنة المرض تطارد عفاف متمثلة فى أصوات داخل عقلها تتهمها بكونها غير عذراء، تمت خطبتهها على رجل ليس كما تمنى والداها، احبطهم كثيراً وعانوا كثيرا من تحكمه الزائد وحبه للإمتلاك، لكن الحق أنى إحترمت عفاف كثيرا فى كثير من المواقف حين رفضت تحكمه وإعترضت على الطريقة التى يعاملها بها، وقتها تأكدت فعلا من مدى جودة المدرسة التى تعملت فيها عفاف.. أمها..

فى النهاية تزوجت عفاف من ذلك الرجل، جزئياً بسبب تقدمها فى العمر الخوف من عدم توفر فرص أخرى للزواج، لكن من المحتمل ان تكون احبته، فى كل الأحوال،

رجل غير متزوج، أفضل من العيش بدون رجل، فبدون رجل حلم كل أنثى بالأمومة لن يتحقق، الجميع يتمنى أن ترزق عفاف بطفل عن قريب، لن أتفاجأ إن وجدت عفاف أم مزدهرة، فعفاف تمتلك من الحس المرهف و قدرات إدارية ما يؤهلها لذلك..

منذ تزوجت ، لم تعد تلك "الأصوات" تطاردها، فعفاف تأكدت انها "عذراء".

٢١

تديُن هدى

أول مرة رأيت فيها هدى (١٩٦٩) كانت فتاة مرحة فى التالتة عشر من عمرها، تتحدث عن كل شىء وأى شىء، وتلفت أنظار الجميع، بين أصدقاءها كانت محبوبة وذات شعبية كبيرة، لكن امها كانت تشتكى من كونها غبية، تافهة وسهلة الإنخداع، بعد سنتين، تحولت تلك الشخصية، أصبحت هدى نحيفة كمن تتبع حمية قاسية، وبدأ مرحها يتراجع ليحل محله العند والمعارضة، المقصود بالعند فى الأساس كانت الأم، لكن هذا لا يمنع أن أخوتها عانوا كثيرا أيضاً..

وجهها تغير كثيراً، ليس فقط بسبب فقدان الوزن، برزت ذقنها وإرتفعت، وضاق فمها، وغيرت شكل حواجبها لتصبح كالخيط، بدأت فى إستخدام كميات رهيبة من المكياج وكانت تقضى ساعات أمام المرآه، طريقة لبسها أصبحت مستفزة وملفتة، أقل ما يمكن وصفه، أنها كانت ترتدى بناطيل ضيقة جدا للدرجة التى تحدد شكل ملابسها الداخلية، كانت تعتبر فتاة مثيرة، تجذب الرجال إليها

كالمغناطيس، تحيرت امها فى أمرها، لم تكن راضية عن شكلها، أصبح شرف العائلة على المحك، لكن الكلام مع هدى كان دون جدوى، كما تقول أمها :"محدش فارق معاها، عايشة مع نفسها كده"

إستمرت هكذا، كمصدر فزع وإزعاج للعائلة كلها، لمدة عشر سنوات، كانت أخواتها يحرصن كل الحرص على عدم إغضابها، ما كانت هدى تهتم إلا بالأولاد، والملابس، والنوم !

لكن حظها فى سوق الزواج كان قليل، المتقدمين لخطبتها يتركونها بعد التعامل معها وإكتشاف مدى عندها وجموحها، هدى تصلح كفتاة للمغازلة والعلاقات العابرة، أما كزوجة وشريكة عُمر فلا، أدركت هدى انها من المحتمل أن تصبح عانس... مرت السنين وتقدمت هدى بالعمر أكثر، أصبحت فى السادسة والعشرون من عمرها، أصيبت بالإكتئاب وتم عمل غسيل معدة لها مرتين بعد محاولات إنتحار بجرعات زائدة من الدواء، مرتين يحضرها زملاءها من العمل فى سيارة أجرة بعد أن تفقد وعيها أثناء العمل، كانت هدى مرتعبة من فكرة أن تتزوج اخواتها الأصغر قبلها..

ربيع عام ١٩٨١ خُطبت منى، حاولت أم على جاهدة أن تزوج هدى قبل منى، لكن بلا جدوى، فهدى كانت ترفض بشدة فكرة أن "حد يجبلها عريس" ، هى فقط من سيختار الرجل الصحيح.

بعدهت بوقت ليس بكثير، تحولت شخصية هدى مرة أخرى، أصبحت تواظب على الصلوات الخمس، وتقرأ

القرأن بلا كلل، أصبحت ملابسها بعيده عن اللوم، إستبدلت البناطيل الضيقة والبلوزات المكشوفة الصصدر بجونلات طويلة واسعة، وبلوزات تغطى رقبتها، وغطت شعرها_إرتدت الحجاب_،وهجرت الماكياج ، وإرتدت فقط الأحذية المنخفضة المسطحة، وبالرغم من كل تلك المواصفات المتحفظة، لم تكن ترقى ملابسها للمثالية التى ترغبها، أخبرتنى هدى كم تتمنى أن ترتدى لباس فضفاض لا يكشف إلا وجهها وكفيها، كما قال الرسول، وأكد القرآن، لكنها لتصل لتلك المثالية عليها أيضاً أن تمكث فى المنزل و تمتنع عن الكلام مع الغرباء من الرجال، حتى أقاربها، لكنها لا تسطيع فعل ذلك، لذا سيكون من النفاق أن تلتزم بالزى المفروض ولا تلتزم بباقى التعاليم، وهى فى حاجه للخروج للعمل لكسب المال لتجهيز نفسها للزواج، لذلك قررت أن تترك مساحة مقبولة بينها وبين كل الرجال ولا تتحدث مع زملاء العمل ولا الرجال فى المواصلات حتى يرزقها الله بالزوج وتصبح ربة منزل وتلتزم بكامل تعاليم دينها كإمرأة..

أوضحت لى هدى سبب تحولها الدينى المفاجىء هكذا، ان رجل، زميل لها فى العمل، أنار لها الطريق الصحيح، إعتاد الرجل ان يقرأ القرأن فى العمل، وذات مرة طلب منه أن تسمح له بقرأة بعض القرآن عليها، فقرأ لها آيات تتحدث عن عِظم نب ان ترتدى هكذ وتتزين لغير زوجها، إرتعبت هدى وبكت كثيراً، فهدأ الرجل من روعها وأعطاها بعض الكتب لتقرأها بنفسها وأخبرها أن عليها ان تسأله عن أى شيء لم تفهمه، بعدها بدأت هدى القرأة،

تقرأ وتبكى، كانت محاصرة بأفكارها عن كم كانت مذنبة ومرعوبة من عقاب الله، لكن الآن، كما أخبرتنى، هى سعيدة وتعلم أن الله سيغفر لها، لأنه بمجرد أن أنار لها الطريق السليم لم تتردد فى إتباعه.

تشعر هدى بالآسى، والمرارة لأن والديها لم يجبراها من قبل على الصلاة :" الصلاة دى أهم حاجه فى الدنيا، القرآن بيأمر الأب والأم إنهم يعلموا ولادهم يصلوا خمس مرات فى اليوم، المفروض يبدأوا يعلموهم من ست سنين، وبعدين يضربوهم من عشر سنين، وبعد كده لو مصلوش يطردوهم بره البيت، كان مفروض بابا وماما يعملوا كده، هما الإتنين متدنينن، وكانوا بيصلوا طول السنين دى ."

يختلف الإسلام عن المسيحية، فالإسلام يعتمد على الأفعال أكثر من المعتقدات الداخلية، أن تكون مسلم يعنى ان تسلم نفسك لله بأداء الخمس أركان الأساسية وهى : " شهادة أن لا اله إلا الله، وأن محمد رسول الله،والصلوات الخمس، و آداء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن إستطاع إليه سبيلا " ، الإسلام إذا يعتمد أقل على الفهم، فمن يقوم بآداء الخمس أركان هو مسلم.

بالنسبة لإيمان هدى، هى تؤمن ان قدرها فى الحياه يقرره الله، الله يحميها ويحرسها، وهى تمتلك دليل على ما تعتقد، على سبيل المثال، مرتين كانت تخطط للكذب على والدها بسبب تأخرها خارج المنزل، " لكن فى المرتين أجى ملاقيش بابا فى البيت، فمكدبش، ربنا مش عايزنى أرتكب معصية"، لم تعد هدى قلقة بشأن تأخر زواجها، هى تعلم أن الله سيرسل لها الزوج الصالح فى الوقت المناسب.

أم على غاضبة من هدى، هى تؤمن بأن الله يساعد من يساعد نفسه، وهدى لا تترك الفرصة للناس ليتوسطوا بينها وبين شخص يرغب فى الزواج، وفى النهاية الأمر متروك لها، هى من ستقييمه وترفض أو تقبل، لكن هدى عنيدة كعادتها :

" الحاجات دى مينفعش حد يتوسط فيها، ولا اى حاجة تانية، ده كله بإيد ربنا" ، هدى تعلم انها لن تهرب من قدرها إن كان مقدر لها أن لا تتزوج وتواجه العنوسة بعد أن تمت السبعة وعشرون عاما.

تزوجت هدى بعدها بثلاثة أعوام، بإختيارها من رجل طيب ووسيم، لكن ما الفائدة، كما تقول أم على، إن كان لا يستطيع تحمل نفقات المنزل، هدى تحمل نفسها أكثر من طاقتها، وتعمل دوامين فى اليوم الواحد، تدعى ام على كل يوم الله أن يريح إبنتها ويجعلها تترك العمل لتستريح وتمكث فى البيت مع الأطفال، لكن زواج هدى محفوف بالتوتر والنزاعات، أحد الأسباب أن هدى " أحسن" من زوجها، أفضل منه فى التعليم والعمل، لكن زواجهما بدأ كزراج عن حب، لذلك فلا يزال رغم المصاعب، لكن ام على ترى أن " إيه فايدة الحب لما تكون مش قادر تأكل عيالك؟" .. أعتقد أن هدى تفكر نفس التفكير.. فى صمت..

الطفولة والشباب، ١٩٣٤ – ١٩٤٩

لا تتحدث أم علي تقريباً عن طفولتها أبداً. يبدو أن ذكريات الطفولة مدفونة تحت محيطات من أحداث زواجها وحياتها الحالية التي تسيطر عليها سيطرة كاملة. لا أستطيع

أن أحصر عدد المرات التي سألتها فيها عن طفولتها لأحصل على نفس النتيجة الميئوس منها. فهي لا تكاد تبدأ بإخباري حتى تخرج من الموضوع فوراً عن طريق ربطه ببعض الأحداث والعلاقات الموجودة في الحاضر وينتهي الأمر بتأملها لهذه التفاصيل. وبالمقارنة نجد أن الماضي مدينة بعيدة.

إلا أنه في المرات القليلة التي أنجح في إقحامها في الحديث، ترسم نفس الصورة عن الأم القوية الصارمة والأب الضعيف غير المسئول والأخت الأنانية الكبرى، فريدة، وهي – زينب – الفتاة الصغيرة اللطيفة المستعدة لمساعدة الآخرين الذين يستغلونها بسبب طيبتها. أما أفراد الأسرة الآخرين – ثلاث أخوات أكبر منها وأخت أصغر وأخ – فلا تضعهم في حسابها تقريباً.

والمتناظرات في حياتها الآن واضحة. فهي تركز على مدى الشبه بين مصطفى وبين أبيها؛ وكم تشبه هدى فريدة؛ وكم تشبهها هي منى الطيبة الصبورة. أم هي – أم علي – فهي تشبه والدتها لكنها ليست بنفس القوة والتمسك بالمبادئ. إلا أن الأم كان لها تأثير إيجابي ضخم عليها؛ فقد كانت الأم مستقلة مادياً أي أنها لم تكن أسيرة لنزوات وإهمال زوجها. وقد استطاعت أن تدبر حياتها بنوع من النظام مما جعلها تهرب من اليأس الذي يدمر كل شيء.

ولدت أم علي في السيدة زينب وهو أحد الأحياء القديمة

في وسط القاهرة ويبعد بمقدار حوالي نصف ساعة بالسيارة (باستثناء أوقات الذروة) عن المكان الذي تعيش فيها الآن. وهي من أصول حضرية قديمة كما تقول. فقد أنتقلت والدتها إلى المدينة عندما كانت طفلة صغيرة مع والدتها الأرملة التي أتت من الريف بحثاً عن عمل. أما والد أم علي فقد ولد في السيدة زينب وينتمي للجيل الثاني الذي يعيش في المدينة من عائلته.

لم تكن لوالديها علاقة قريبة قبل الزواج. "بس إحنا مكانش لينا علاقة بأهل بابا لن ماما مكانتش بتطيقهم."

ربما يكون أكثر ما يعجب أم علي في والدتها هو قدرتها على حفظ النظام. "مكنتش بتسمح لنا أبدا وإحنا صغيرين نفضل صاحين بعدج الساعة تمانية، ولا ناكل بعد ما ننام، إتربينا ع الطاعة وإحترام الكبير، وعمرها ما حصلت وحد فينا كل أو طلب ياكل قدام الضيوف" هكذا تقول أم علي معبرةً عن حزنها لسلوك أولادها البغيض.

كانت زينب طفلة وحيدة ليس لها الكثير من الأصدقاء وتشعر بأنها سجينة في بيت أمها. الأعمال المنزلية كانت مقسمة تقسيماً صارماً: الأم تطبخ وتغسل وفريدة تكنس وتنظم وزينب تشتري احتياجات المنزل. لكنها إذا تأخرت لحظة واحدة بالخارج بسبب مشاهدتها لفاترينات العرض على سبيل المثال، تضربها أمها عندما تعود للمنزل.

ذهبت زينب للمدرسة لمدة عامين ثم بدأ يظهر عليها علامات الأنوثة مما اضطرها لترك المدرسة حيث خشيت والدتها أن تجذب نظرات الرجال الفاسقة.

أحب والدها زينب أكثر من أولاده الآخرين "لأني كنت هادية جدا" كما تقول أم علي. لكنه لم يتدخل أبداً في تربية الأطفال حيث كانت الأم هي المسيطرة تماماً. ولم تكن الأم ترحم حينما تغضب. هناك ذكرى محفورة في عقل أم عليه وهي عندما تشاجرت مع فريدة لأن زينب أيقظتها وطلب منها أن تأتي للتسوق معها حتى تساعدها في حمل المشتروات؛ فانفجرت فريدة وسخرت منها قائلة أنها ليست أكثر من حمارة خلقت لتحمل الأشياء! انفجرت زينب هي الأخرى وهددت بضرب فريدة وعندما تحدتها فريدة، ضربتها بالفعل. ولولت فريدة فأتت الأم مسرعة وضربت فريدة وقالت لها أن تخرج من البيت للأبد، إلا أن الجيران تدخلوا ليصلحوا الأمر بينهما.

كانت زينب وفريدة تتشاجران دائماً لأن فريدة، كما تقول أم علي، كانت دائماً سيئة المزاج ومشاكسة. فكلما طلبنا منها المساعدة تقول بغضب: "إنتوا فاكرينى خدامة؟، خلى زينب تعملها "، طيبتي واستعدادي لتقديم المساعدة جعل عائلتي تستغلني. على سبيل المثال، عندما كان يذهب الجميع للتنزه أو لزيارة أقارب أمي في الريف، كان علي أن أبقى لأرعى أبي. أخواتي كن يذهبن مع أمي مرة بعد أخرى أما أنا فلم يكن مسموح لي الذهاب إلى أي مكان. ذهبت

مرتين فقط لزيارة أختي فوزية (التي تزوجت في الريف) وهذا لأنها فقط لأنها كانت تحتاج لمن يساعدها مع أطفالها! والدها ووالدتها كانا يتشاجران دائماً "لكن ده مكانش بيفرق معانا" تقول أم علي؛ لأن أمي كانت تحصل على الأموال ذاتياً. الملوك (أخوتها الروحيون) كان يعطيها كثيراً. فقد كان أبي مثل مصطفى تماماً؛ يدخن حشيش ويشرب ويسكي وأمي لم تكن سعيدة معه أبداً. إلا أنه كان طيب جداً، فهو لم يكن يريد لي الزواج من مصطفى وأمي هي التي أجبرتني على ذلك لأنها عندما كانت تتخذ قرار، لا شيء يمكن أن يثنيها عنه.

عندما بلغت زينب السادسة من عمرها حدث شيء غير حياة العائلة للأبد. مات أخوها، سيد، وهو في الحادية عشرة من عمره في حادثة قطار. أصبت الأم بحزن عميق وجلست لمدة سبع سنوات دون أي حركة ولم تصبح قادرة على العمل. قالت أن يديها مربوطة كما لو كانت مكبلة بالقيود. إلا أنها كانت رغم ذلك قادرة على التحدث وإدارة شئون العائلة. وفي هذا الوقت أتى إليها الملك (أخوتها الروحيون) وقالوا أنها يجب أن تبدأ في العمل في التنبؤ بالحظوظ مقابل أجر. وقد كانت بالفعل تخبر الناس بحظوظهم عن طريق ورق اللعب (الكوتشينه) لكن بدون أجر. أمرها الملك في هذا الوقت أن تأخذ أموال مقابل خدماتها. ومنذ هذا الوقت استطاعت العائلة أن تعيش حياة جيدة من الناحية المادية فلم يحتاجوا أبداً إلى طعام أو ملابس. إلا أن الملك وضعوا شرط واحد وهو أن تنام الأم

في غرفه بمفردها. تقول أم علي أنه منذ هذا الوقت أصبح الوالدان لا يمارسان الجنس سوى مرتين أو ثلاث مرات كل عام. تزوج الأب بعد ذلك بفترة قصيرة "بسبب كلام الناس" كما تقول أم علي. "الناس إبتدت تقول إن أمى إتجننت، وبابا لازم يتجوز واحدة تانية عشان تنام معاه" .

الزوجة الجديدة كانت كبيرة ولم تنجب منه أطفال. انتقل الأب للعيش معها وكان يأتي المنزل مرتين كل أسبوع لرؤية أولاده. وفي أحد المرات اشتاقت له زينب وفريدة كثيراً فذهبا لرؤيته في شقة زوجته. تأخرت الفتاتان، فأتت الأم مسرعة لإحضارهما. وعندما رأت طفلتيها يجلسان على الأرض يمضغان قطع من الخبز، شعرت بالإهانة بعد أن تهجمت على المرأة الأخرى وكان على الجيران التدخل من أجل التفريق بينهما. افتتن الأب بزوجته الجديدة وانقطع عن العمل حيث كان يعمل في الشرطة. كان ذلك أيام الإحتلال البريطاني "لما كان البلد فيها نظام وظبط وربط" وقد تم تهديده بالفصل إذا لم يُطلق زوجته الجديدة. طلقها الأب بالفعل لكنه عاد ليتزوجها مرة أخرى في السر. وحُكم عليه بالسجن لمدة شهر بسبب السجناء الذي كانوا تحت مسئوليته وهربوا نتيجة ذهنة المشتت كما انتقل إلى رتبة أدنى. ذهبت العائلة لزيارته في السجن، لكن المرأة الأخرى أتت هي الأخرى! قامت مشاجرة بين الزوجتين واتهمت كل منهما الأخرى بأنها السبب في اضطرابه وحيرته اللذان وصلا به إلى إهمال وظيفته. تسلم الأب بعد خورجه من السجن إنذار آخر بأنه سيفقد وظيفته إذا لم يطلق زوجته الجديدة. وطلقها بالفعل لكنه استمر في

زيارتها سراً كما تقول أم علي. وانتقلت العائلة في هذا الوقت إلى الجيزة هرباً من المرأة الأخرى وخوفاً على أحمد، أخو زينب الرضيع، حيث قاموا بوضعه تحت رعاية أحد خالاته بعد أن فقدت والدته لبنها نتيجة لصدمتها في موت ابنها الكبير لكنه هذه الخالة أهملته. وهناك في الجيزة كان للأم أخت أخرى تستطيع رعاية أحمد.

أم علي حزينة لأن والدتها ماتت بعد زواجها من مصطفى بخمسة وستين يوم فقط. فلولا موت الأم، كان يمكن أن تحررها من زواجها غير السعيد كما حررت أختها فوزيه من زوجها عبدو. توفيت الأم نتيجة لعدوى أصابتها بعد عملية الزائدة الدودية. عندما أدركت الأم قرب موتها باعت جميع ممتلكاتها وتبرعت بها للفقراء. قالت أنها لا تريد أن تترك ورائها شيئاً من الممتلكات الدنيوية لأنها سوف تسبب شجارات بين أفراد العائلة.

"قال يعني مكانوش هيتخانقوا كده كده من غير سبب" هكذا تقول أم علي.

٢٣

أميرة: زوجة الأخ التي لديها ما يكفي من المشاكل

لا يمكن أن تذكر أم علي أخيها الحبيب، أحمد، دون الانزلاق في حديث طويل مفصل عن زوجته، أميرة. وأنا أيضاً لا أستطيع. فقد أردت أن أتحدث عن أحمد ومكانته في

حياة أم علي، لكن كيف أفعل ذلك وأم علي ترى أن زوجته هي التي تقرر العلاقة بينهما وليس هو؟ إذاً أميرة يجب أن تكون لها الأولوية.

كم هو غريب أن تستطيع تقديم بيان تفصيلي كامل عن المرأة دون مجرد الإشارة إلى الرجال، بينما لا يمكن تقريباً وصف أي رجل دون الإشارة المستمرة إلى زوجته و/ أو والدته و/ أو أخته. فهناك خلف كل رجل أمرأة تغزل. لا شك أن جزء من السبب في ذلك هو المنظور الذي يتبناه هذا الكتاب حيث يركز على البيت والحي. إذا أردت أن أصف مملكة الرجال، يمكن ترحيل النساء إلى مرتبة أقل، لكن عند التعمق في التفكير لا أستطيع أن أجزم بذلك! ففي الحي على الأقل، يعتمد سلوك الرجال اعتماداً واضحاً على النساء.

هناك العديد من الشهادات على ذلك. أحدها هي العبارة التقليدية التي تستخدم لتفسير أي شيء خاطئ يقوم به الرجل: "هي سلطته". يُنظر للرجل على أنه تحت السيطرة الكاملة للمرأة حيث يفتقد الحكم المستقل لذلك تلعب المرأة سواء كانت زوجة أو أم أو بنت دور كبش الفداء في جميع المواقف بدون استثناء تقريباً. وعندما انحرفت أم علي عن هذه القاعدة وألقت باللوم على مصطفى نفسه فذلك جزئياً بسبب عدم وجود أم أو أخت له تلعب دور كبش الفداء.١ إلا أن تمسكها بفكرة أن الرجال يمكن التلاعب بهم بسهولة ظهر في إصرارها على أن جرح مصطفى لها في بداية زواجهما لم يكن خطأه، بل خطأ

أصدقاءه. كما أن أمه وأخته اللذين قاما برعايته هما المسئولتان عن سلوكه السيء.

ويظهر هذا الاعتقاد الذي يرى الرجل تحت سيطرة المرأة في عبارات أخرى شائعة جداً مثل: "الراجل بيسمع كلام مراته" و "الراجل بيمشي ورا مراته" و" الست هي اللي متحكمة". المفهوم السائد هو أن الرجل متراخي وضعيف مثل الطفل.

تعمل عقلية كبش الفداء على تحقيق أغراض نفسية واضحة. فبإلقاء اللوم على الآخرين نحمي علاقتنا بمن نحب. على سبيل المثال، عندما يفعل أحمد شيء ما يجرح أم علي، لا تريد هي أن تراه كمؤشر على نقص حبه لها. فكرة أنه "بيحبني بس هي سلطته" تخرجه من هذا المأزق.

أميرة جميلة؛ حتى أم علي تعترف لها بذلك فهي تقول دائماً: "أيوه هي أميرة حلوة وذكية لكن إيه الفايدة هي مش عارفه إزاي تظبط حياتها وتعيش جوزها فسلام وهدوء!" تشعر أم علي، مثل جميع النساء، أن زوجة أخيها تفشل فشل ذريع في منح أخيها العناية والحب اللذان يستحقهما. "شوفي أحمد، رفيع زي العصاية وميت من التعب. أنا قلت لأميرة إنها لازم كل يوم الصبح تشربه كباية لبن. إنما هي بتقول إنها متقدرش عشان العيال لازم هما كمان يشربوا لبن وهي معهاش فلوس لكل دا. دي بتظلمه أوي، يعني لو أحمد تعب ومعرفش يشتغل خالص؟ هتأكل العيال منين

"مغرورة" ربما تكون هذه أفضل كلمة تصف قامة أميرة وهيئتها. فهي متوسطة الطول ممتلئة الجسم مما يجعلها مطابقة للشكل الأنثوي المثالي. والآن تشعر هي نفسها بأنها أصبحت ممتلئة الجسم جداً إلى حد ما وتشتكي من أن الست ولادات تسببوا في تمديد معدتها. بلغت أميرة الآن الخامسة والثلاثين من عمرها. إلا أنني لازلت أعتقد أنها تمشي مثل الملكة. تتميز أميرة بعينها الواسعة الداكنة التي تشبه حبة اللوز وأطول وأجمل شعر رأيته في حياتي على ما أتذكر. وهي بيضاء وملامحها رقيقة. إذا تواجدت أميرة في ظروف أخرى أكثر ملائمة لكانت جميلة بحق٢. كما أنها ذكية جداً بشكل واضح، لكنها هادئة (لم تكن تستطيع أن تنطق كلمة واحدة في بيت والدتها)، ومنظمة في أفكارها تنظيماً استثنائياً. والأكثر من ذلك أنها مخلصة جداً لزوجها. أعرف أن أم علي نادراً ما تعترف لها بذلك لكن لابد أن أقول الحقيقة: فعلى مدار السنوات التي كنت أدخل وأخرج فيها من بيت أميرة، نادراً ما سمعتها تنتقذ زوجها وهو شيء غير مألوف. في الحقيقة أميرة لم يكن لديها الكثير من الدوافع لتنتقد أحمد بسبب الطريقة التي ناضل بها ليحقق الرفاهية لأسرته، إلا أن ذلك لا يقلل من عظمة إخلاصها أبداً. بكل بساطة، أعتقد أنها تحبه.

أم علي نفسها قد توافق على ذلك. "بس،" سريعاً ما تضيف قائلة "بتحب أمها أكتر!" ثم تبدأ في خطبة طويلة

عن مدى ظلم أميرة لزوجها لأنها تجعل لأمها الأولوية عليه. والمجتمع يدعم أم علي في هذا الرأي القائل بأن الزوج يجب أن يأتي أولاً. وهناك أيضاً من ينتقد أميرة لقولها: "ماما أهم عندي من جوزي لإن هي اللي إدتني الحياة وربتني."

وهما متزوجان منذ عشرين عام أي في عام ١٩٨٢. تقدم أميرة صورة متحركة عن كيفية حدوث هذا الزواج.

كنت في الثالثة عشر من عمري فقط عندما تمت خطبتي. وأمي هي التي أرادت أن تزوجني. فهي التي أغرت أحمد الذي اعتاد أن يشتري منها الفول. قالت له في أحد الأيام: "عندي بنت صغيرة حلوة؛ بيضة وشعرها جميل." فقال أحمد أنه يريدها واتفقا على أن يأتي لرؤيتي مع أخته، أم علي. أنا أيضاً أردت أن أتزوج فقد كان علي أن أقوم بأعمال شاقة في بيت أمي كما أنها اعتادت على توبيخي وضربي ضرباً قاسياً. وعندما أخبرتني أن هناك شخص سوف يأتي لطلب يدي، فرحت فرحاً شديداً وقلت لها: "أيوه أنا عارفه هو مين! الشاب الوسيم الأبيض أبو عنين خضرة وشعر أصفر!" فقالت أمي: "لا، لا! دا أسود وعنيه بني وأصلع تقريباً!" ففكرت للحظة ثم قلت لها: "بشعر ولا من غير شعر، موافقة!" وهذا يوضح مدى حرصي على الخروج من بيت أمي!

هناك كانت أميرة تعيش في كشك خشبي من غرفة واحدة بلا نوافذ مساحته متران في ثلاثة أمتار مع أمها وأبيها وأختيها الصغيرتين. أبيها كان رجل كبير ومريض

لذلك اعتمدت الأسرة على ما تكسبه الأم من بيع الفول. بينما أميرة كانت تبقى في المنزل لتعتني بالبيت والأطفال. نجحت والدتها في التجارة كما تقول أميرة وليس عندي شك في ذلك. فلم يكن المارة يستطيعون مقاومة سرعة بديهتها وجرئتها ونشاطها فيصبحون زبائنها. مرت السنوات واعتدت على هذه السيدة تدريجياً حتى أصبحت أشعر بتعاطف تجاهها. إلا أنها نفرتني منها لسنوات، كما فعلت مع آخرين غيري، بصوتها المرتفع وطريقتها العدوانية البذيئة إلى حد ما. يمكنني أن أتخيل نصيب أميرة من التوبيخ والضرب. لكنني رأيت والدتها بعد ذلك تتأمر على أحفادها!

وأقامت الأم في شقة أميرة!

في البداية كانت مجرد زائرة لديهم تمكث حوالي ست عشرة ساعة يومياً لمدة ثلاث عشرة سنة. بعد ذلك حزمت أمتعتها وانتقلت إلى الشقة للأبد ومعها ابنتها الصغرى التي لم تتزوج. وقد قاد هذا أحمد لليأس والغضب، نعم، قاده للقنوط بمعنى الكلمة.

يصرخ أحمد قائلاً: "البيت باظ". رأيته وهو يذهب لأم علي مقطعاً قميصة في يأس كامل، "هعيش إزاي كده!". فقد كان يأتي أحياناً هناك ليأخذ القيلولة لأن منزله يمتلئ بضوضاء تخرق الأذن. ولا ينفعه أن تكون صفته رجل البيت، فسلطة النساء أساسها عملي وليس أيدلوجي. الرجل يستطيع أن يتوعد ويهدد بالطلاق كما يحلو له، لكنه عملياً مربوط بأم لستة أطفال. وكلاهما يعلم ذلك جيداً.

"أعمل ايه؟" يقول أحمد متنهداً، "اتجوز تاني وأجيب للولاد مرات أب؟ عشان يبقى البيت مستشفى مجانين أكتر مما هو!" كما أنه لا يمتلك المال الكافي لذلك! الرجل لا يمكنه أن يعيش بمفرده مع أولاده الصغار. نعم لا يستطيع حتى وإن كان بدون أطفال. يُنظر إلى المرأة على أنها تمتلك قدرة مثالية على إدارة الحياة وحدها، بينما الرجل يعتمد على المرأة في أعمال المنزل وفي إشباعه الجنسي حتى تكتمل رجولته! لذلك فإن أحمد مجبر على تدبر الحياة في حدود الثلاثين متر مربع تشاركه فيهم ثلاث نساء بالغات وستة أطفال، وفي أحيان كثيرة أخت أميرة الكبرى وأولادها الذين يأتون لزيارتهم من الريف.

وأم علي يملأها الغضب والسخط.

أميرة تظلم أحمد ظلماً عظيماً لأنها لا توفر له السلام ولا تعطيه فرصه للراحة. فعائلتها هناك دائماً وأبداً. أحياناً ينفجر أحمد أمامهم فيتراجعوا ليوم أو يومين [هذا عندما كان لديهم الكشك المكون من غرفة واحدة الذي تربت فيه أميرة ليلجأوا إليه] ثم يواصلون بعد ذلك زياراتهم المتكررة مثل السابق. لا تعرف أميرة كيف تعتني بزوجها. يجب أن تؤدي واجبها تجاه أولاً ثم تأتي والدتها. يجب عليها أن تتأكد من وجود كل ما يحتاجه وأن المنزل مليء بالسلام والانضباط عندما يعود إليه ثم تتركه يقرر كيف يريد قضاء وقت فراغة؛ لا أن تشتكي عندما يقول أنه يريد أن يذهب هناك أو هناك، كما تفعل أميرة عندما يقول أحمد أنه يريد زيارة إحدى إخواته! إنها تضايقه بعبارتها المتكررة: "ألا هو

مفيش تاكسي النهارده؟" [إشارة إلى وظيفة أحمد المسائية].٣ عندما تستمر المرأة في التذمر ومضايقة الرجل، فإنها تخلق بداخله العناد.

قد يتفق الكثيرون مع أم علي في أن أحمد يعيش حياة لا يُحسد عليها، إلا أن البعض قد يتعاطف مع أميرة. تقول أقرب صديقة لها: "يعني تعمل إيه؟ تقول لأمها تمشي؟ مستحيل!" فأميرة متورطة في صراع بين التزاماتها تجاه والدتها وتجاه زوجها.

أما فيما يتعلق باتهام أم علي لأميرة بأنها تتذمر لزوجها ليعمل بجد أكثر وأنها تتدخل في حريته، أعتقد أنه اتهام غير عادل. فأميرة من واقع خبرتي ليست أسوء أو أفضل من أي امرأة أخرى. أميرة لا تزال صغيرة وطموحة وأحمد أظهر قابليته للانقياد. تقول أميرة: "الرجالة زي الأطفال. لو هيتعلموا، لازم يتوجهوا ويتعاقبوا من صغرهم وإلا هيمشوا في الطريق الغلط طول حياتهم!" وأم علي توافق على ذلك بلا شك.

بدأت العلاقة بين زوجة الأخ والأخت بداية خاطئة. فقد خاصمت أم علي والدة أميرة قبل حتى إتمام زواج أحمد من أميرة بسلام ونتج عن ذلك ألا يحضر أي فرد من عائلة أحمد حفل الزفاف. تمت دعوة أخواته الأخريات، لكنهن ساندوا أم علي مساندة قوية وقاطعوا الموضوع بأكمله. تقول أم علي وهي ممتلئة بالرضا: "حتى أبويا مراحش!"٤

هناك مجموعة من الصراعات تشكل جذور هذا الموضوع. أولاً شعرت أم أميرة بالإهانة لأنه مرضت ذات مرة ولم تأت أم علي لزيارتها، بينما تقول أم علي أنها ذهبت لكنها وجدت باب الكشك مقفول. حاول أحمد الإصلاح بينهما قائلاً: "يمكن كانت عند الجيران بتتفرج على التلفزيون!" وضعت أم علي بعد ذلك مولود جديد فأتت إليها أم أميرة لتحييها بهدية كريمة عبارة عن نصف كيلو من اللحم وبعض الأرز. لم يمر وقت طويل حتى قامت أم أميرة بختان ابنتها. ولأن أم علي لم تأت إليها بيديها فارغة عندما وضعت مولودها الجديد، أرسلت إليها أحد أطفالها بخمسة وعشرين قرش ورسالة تقول فيها: "ماما بتسلم عليكي وبتقولك اشتري لنفسك دوا مؤقتاً!" تقول أم علي أنها بالطبع كانت تقصد أنها سوف تذهب مرة أخرى بنفسها ومعها هدية أكبر تتناسب مع الهدي التي قدمتها لها أم أميرة؛ وأنها عندما أرسلت ابنتها كانت تقصد أن ترسل لأم أميرة تحياتها دون تأخير. إلا أن الطفلة نسيت أن تقول الكلمة الحاسمة "مؤقتاً" مما تتسبب في كارثة.

ظنت أم أميرة أن الخمسة وعشرين قرشاً هي كل ما تنوي أم علي تقديمه لها فاشتعلت غيظاً. واندفعت عاضبةً إلى أم علي توبخها توبيخاً شديداً، "بقى أنا أديكي لحمه وانت تديني خمسة وعشرين قرش! الله يلعنك!" إلا أنهما تصالحا مرة أخرى بعد عدة شهور وكانت خالة أميرة هي من تريد الإسراع بالزفاف هذه المرة. إلا أن القدر كان له رأياً آخر، فقد توفي والد أميرة مما يعني أنه يجب تأجيل الزفاف لعام آخر طبقاً لتقاليد الحداد. وذهبت أم علي

لتقدم تعازيها واللي يتلسع من الشوربه ينفخ في الزبادي. الآن أثبتت لها أن الهدية التي قدمتها كانت هدية مقبولة المعايير. كما ذهبت إليها مرة أخرى في الخميس التالي من أجل الاستماع للقرآن، لكنها للأسف لم تذهب في ذكرى الأربعين. قالت أم علي أنها لم تستطيع لأن مصطفى كان مريض وطريح الفراش، إلا أن أم أميرة غضبت مرة أخرى. وعندما قابلتها في الشارع صرخت الأرملة: "يارب جوزك يموت!"

الآن عانت أم علي بما فيه الكفاية. وعندما دخل مصطفى المستشفى بعد ذلك بوقت قصير، أمرت أحمد أن يقول لأم أميرة أن تبقى بعيدة فهي لا تريد أن تتصالح معها.

٦

لكن مع تأخر الزفاف لعام آخر، تصالحت العدوتان مرة أخرى. وفي يوم من الأيام ذهبت أم علي لزيارة أم أميرة وكان أحمد في هذا الوقت عاطل عن العمل وأم أميرة تصر على الحديث في هذا الموضوع باستمرار. تضايقت أم علي وطلبت من أم أميرة أن تصبر وتتفهم الموقف. قالت أنها يجب أن تدرك أن أحمد لم يقبل أو عرض ظهر أمامه لأنه كان يحمل مصلحة أميرة في قلبه! فردت أم أميرة بغضب "مصلحة! كأن لينا مصلحة في وجوده!" انفجر أحمد عندما سمع ذلك واشتعلت المشاجرة بكامل طاقتها! شعرت أم علي بإهانة عميقة. تقول أم علي مستشهدة بالمثل الشائع: "عيب نتخانئ قدام الضيوف." أخذت أم علي عباءتها وخرجت وهي تشعر بالإهانة أيضاً لأن أم أميرة وبخت أخيها الحبيب أمامها. ومنذ هذا الوقت لم تبذل أم علي أو

أم أميرة أي مجهود للمحافظة على العلاقات، بل حافظت كل منهما على المسافة الفاصلة بينهما. فاختلافهما في المزاج والطريقة كبير جداً لدرجة يصعب معها التوفيق بينهما.

تزوج أحمد بأميرة أخيراً. كان هو في الرابعة والعشرين وهي في الرابعة عشر وقد رفض المأذون عقد الزواج في البداية لأنها لم تبلغ السن القانوني. "بس أمي قطعت شهادة ميلادي وخدتني للدكتور وقالتله إن شهادة ميلادي ضاعت وطلبت منه يعملي واحدة جديدة. الدكتور كشف على جسمي وإداني ١٨ سنة."

إلا أن الزواج لم ينجح كما كان متوقع له خاصةً في مراحله الأولى لأنه يعتمد على مدى نجاح العائلتين المرتبطتين به. فإذا كانت هاتان العائلتان غير متفقتين وبينهما خلافات لا يمكن تسويتها، فستجذب كل عائلة الطرف الخاص بها في اتجاه معاكس وتقوده إلى المؤمرات والحيل التي يرون أحياناً أنها ضرورة لا مفر منها. بدأ الزوجان حياتهما المادية وهي مليئة بعدم الثقة المتبادلة والأفكار النمطية المتأصلة والمترسخة عن الطبائع العنيدة للرجل والمرأة. المهم هو من يكسب اليد العليا من البداية. يمكنني أن أتخيل بكل وضوح كيف كان على أحمد وأميرة اللجوء لأمهاتهما ذهاباً وإياباً (فأم علي بالنسبة لأحمد تعد بمثابة والدته) من أجل الحصول على النصيحة وحشد السلاح. تتحدث أميرة عن فترة خطوبة سعيدة لكنها تتحدث عن فترة مريعة في أول الزواج:

القشة الأخيرة كانت عندما عاد أحمد إلى البيت ليلاً وأراد ممارسة الجنس فركلني كما لو كنت حمار! قلت له أن بإمكانه هز ذراعي فقط، لكنه رد متهكماً أنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له. وبالفعل قام بما أراد وأزعجني إزعاج لا نهاية له. على سبيل المثال عندما كنت حامل في شهري الأول، كان أحمد يطلب معكرونة كل يوم وهو يعلم أنني لا أطيق رائحتها وأتقيأ كلما شممتها؛ لهذا كان يطلب مني إعدادها كل يوم. ومنذ هذا الوقت لم أعد أطيق رائحة المعكرونة!

إنه ليس خطأ أحمد، فزوجة أبيه هي من دفعته للتصرف بهذه الطريقة لأنها أرادت الاستيلاء على أموالة وتمنت أن يطلقني. (إذا كانت أميرة تعتقد أن أم علي هي الملامة على ذلك، فلم تكن لتخبرني.) استمرت أميرة قائلة، ذات مرة اختفى أحمد في الإسكندرية لمدة شهرين دون حتى أن يخبرني بمكانه. اضطررت أن أبيع خاتم وعقد خطبتي لأدفع مقابل الطعام والإيجار. يأست في النهاية وانتقلت للعيش مع أمي. وعندما عاد أحمد، طلب مني أن أعود إليه فقلت أن عليه الحصول على وظيفة منتظمة أولاً مما أشعل غضبه. قال لي أنه حر في اختيار عمله حرية كاملة! فردت عليه أمي بأنها أيضاً حرة في اختيار زوج ابنتها! قالت أمي بعد ذلك أننا يجب أن نفترق بالمعروف كما تقابلنا بالمعروف. دفعت هي للمأذون وتطلقنا وانتقل هو للعيش مع أم علي مرة أخرى. عندما ولدت أميرة، ذهب أحمد ليرى ابنه. حمل أحمد الطفل ولاعبه وأحضر له ملابس. هكذا تصالح الأبوان وعاشا سعيدان معاً كما تقول أميرة.

رواية أم علي مختلفة إلى حد ما. فقد كان الصلح نفسه مشحون بالاختلافات كما تقول. طلبت أم أميرة من أحمد أن يدفع أربعين جنيه كمهر لزواجه من أميرة مرة ثانية. غضب أحمد فعرضت عليه زوجة أبيه أن تجد له زوجه أخرى. إلا أن أم أميرة علمت بالخبر وذهبت مسرعة إلى عائلة الفتاة وقالت لهم أشياء سيئة عن أحمد. عادت أميرة لأحمد في النهاية ودفع حوالي عشرة جنيهات كدليل على حسن نيته.

لولا أخلاق أم علي الجيدة، أعتقد أنها كانت لتقول أنها تستنكر عدم بعد أخيها عن أميرة. فقد كانت تتمنى له حياة أسعد من ذلك. إلا أنها تحترم أن هذه حياته وهو من يجب أن يحسم اختياراته.

تشعر أم علي بالمرارة أيضاً لأن عائلة أميرة – كما تقول هي – تتهمها بأنها استولت على الأموال التي كان أحمد يكسبها خلال السنوات التي قضاها معها.

يقولون أنني السبب في إنه لم يكن قادر على دفع مهر أكبر. ووالله إذا كنت السبب في شيء، فهو أن أحمد استطاع أن يدفع المهر من الأساس! فقد كان يكسب تسع جنيهات في المرة وأنا من اقنعته أن يدخل جمعيه بست جنيهات ليوفر المال من أجل زواجه في المستقبل. ومقابل هذا المال جعلته يشتري ملابس لنفسه. قال لي: "هعمل ايه بكل اللبس دا؟" فقلت له: "لما تتجوز ويبقى عندك عيال، مش هيتبقالك حاجه، عشان كده لازم تشتري لنفسك لبس يكفيك لآخر عمرك!" جعلته يصرف مدخراته في الملابس أولاً ثم في المهر. وتأتي هذه المرأة مرة أخرى وتقول أنني

استوليت على أمواله! نعم، هذا بالتحديد ما تفعله كما قالت لي الناس.

في ضوء هذا التاريخ، كان من الطبيعي جداً أن نتوقع ابتعاد أم علي وأميرة عن بعضهما. فقد تنتظر أم علي، بما أنها الكبيرة التي تستحق الاحترام، أن تُنشئ معها أميرة علاقات جيدة. إلا أن الاستراتيجية التي اختارتها أميرة تصب في مصلحتها كما هو واضح. فاحتفاظها بمسافة فاصلة يقلل من فرص الشجار والتدخل. كما أن أميرة لديها ما يكفي من المشاكل في حياتها الخاصة. ولو كانت أم علي مكانها، لكانت فعلت نفس الشيء.

لكنها ليست في مكان أميرة وتشعر بالإهانة.

لا تحب أميرة سوى عائلتها، عائلتها فقط! تزورني مرتين أو ثلاث مرات فقط كل عام وليس بيننا أكثر من مسافة عشر بيوت! أطفالها تقريباً لا يعرفون من أنا! إنها تؤذيهم بتنشأتهم دون أن تكون لهم أي صلة مع أقارب أبيهم. هل تعرفين ماذا يقولون عندما أذهب لزيارتهم؟ يقولون: "بابا في واحدة عيزاك!" واحدة! هل تتخيلي ذلك! ولا حتى يأتوا ليلقوا التحية، يجب على أمهم أن تطلب منهم أن يفعلوا ذلك! بعد ذلك يمدون أيديهم ويغمغمون بشيء ما ثم يجرون. سلوكهم غير لائق هؤلاء الأطفال! قد تظنين أنني غريبة تماماً عنهم!

حتى نوسا تفاجئت بعلاقتنا رغم صغر سنها. ففي يوم سألتني: "ليه أصلا بتزوري مرات خالي؟ مش انت مش عايزه تكلميها؟" حتى فتاة في السابعة من عمرها تدرك! تعتقد أننا يجب أن نذهب لنرى بعضنا البعض. تقول:

"كنت بتعملي ايه؟" وهكذا. إنها على حق، هذا ما يجب أن يحدث. لكن إذا لم تأت أميرة لزيارتي، لن أذهب لزيارتها!

عندما أتت في أحد الأيام لتسمعني الشريط الذي أرسله أحمد من ليبيا (حيث يعمل)، لم أكن قد رأيتها من ستة أشهر. وأنا واثقة أنها لم تكن لتأت لولا أن أحمد طلب منها أن تحضر إلي الشريط٧. نعم قلت لها في وجهها، لقد سمعتيها بنفسك "انا متأكدة إنك مكنتيش هتيجي لولا أحمد طلب منك!" فاعتذرت متحججة بأنها منشغلة بالأطفال. إلا أنها مجرد حجة. فيمكنها أن تحضرهم معها! فأنا سأكون سعيدة برؤيتهم! الحقيقة أنها لا تحب عائلة أحمد، تحب عائلتها فقط!

... عندما أزورها مرة كل فترة كبيرة، لا أكل عندها أبداً. إنها تستكثر الطعام على الناس! وعادةً لا تقدم لي شيء عندما أذهب، فيقوم أحمد بنفسه ليقدم لي شيء! ٨ حتى وإن قدمت شيء، توضح للضيوف أنها لا تريدهم أن يأكلوا. فتقول: "عا-ا-يزين تا-ا-كلوا حاجه؟" بدلاً من أن تقول: "اتفضلوا كلوا!" وإذا قلت لا، لا تكرر عرضها أبداً!

وأيضاً عندما أزورها لا تريني أبداً أي شيء جديد اشترته. إنها تخفي أشيائها! تعتقد أنني حسودة وقد أنظر لما عندها بعين خبيثة. وكأنني مثلها!

...إنها تضيع النقود التي حصل عليها أحمد بمجهوده دون أدنى تفكير في الكفاح الذي كافحه ليكسبها فتنفق الكثير على ملابس الأطفال. فقد اشترت مؤخراً، على سبيل المثال،

فستان العيد لابنتها البالغة ثلاث سنوات بثمان جنيهات! ثمان جنيهات! هذا جنون! فالطلفلة لم تعرف بعد كيف تقدر قيمة الأشياء كما أنه سيصغر عليها بعد فترة قليلة جداً!

أميرة أيضاً قاسية في نقدها لأم علي التي تعلم بناتها أن يكن مسرفات.

عندما كانت الفتيات صغيرات، ثلاث أو أربع سنوات، اعتادت أم علي أن تأخذهن إلى المتجر ليخترن ثيابهن. وعندما انتقدها أحمد، غضبت وقالت أن الفتيات يجب أن يلبسن كما يحلو لهن ولا يمكن أن تفرض عليهم ذوقها. يجب أن يكن أحرار في كل شيء. ونتيجةً لذلك لم يعد يرضيهن أي شيء إلى باختيارهن ودائماً ما يخترن بناءً على الشكل بصرف النظر عن السعر. هدى، على سبيل المثال، تشتري الحذاء بست جنيهات بدلاً من ثلاث أو أربع جنيهات. كما أن الفتيات يرتدين ملابسهن الداخلية بجنيه القطعة الواحدة بدلاً من خمسة وعشرين قرش ولا أحد يراها! والنتيجة أن أم علي دائماً مفلسة لأنها مدينة بالنقود التي اشترت بها بناتها ملابسهن. ولولا ذلك لفاضت النقود التي يعطيها لها مصطفى لإدارة البيت!

ما يجرح أم علي أن أميرة لا تظهر أي اهتمام بتطوير علاقة قريبة بها. "أحمد بيقول إن أميرة مش بتحب عيلته، لكن أنا قلتله لو هي مش بتحب عيلتك يبقى مش بتحبك إنت كمان عشان حبها ليك طبيعي يكون حب لينا إحنا كمان!" وفي الحقيقة تعلم أم علي جيداً أن استثناء القاعدة هو أن تكون علاقة الزوجة بأخت زوجها جيدة. فعادةً تحتفظان بمسافة بينهما كما تفعل هي مع أخت

مصطفى وكثيرات لا يكن على وفاق لفترات طويلة من الوقت. وتتوتر العلاقة بشكل خاص عندما تكون أخت الرجل أكبر من زوجته فحينها يكون للأخت حق مضاعف في استقبال الخدمات والاحترام نظراً لكبر سنها ولعلاقتها بالزوجة. تقول الكثير من النساء أنهن يفضلن عدم إقامة علاقات مع أخوات أزواجهن الأكبر سناً حمايةً لأنفسهن.

أصل الصراع بين الزوجة وأخت زوجها في الأساس سببه المال والمنافسة عليه. فأقارب الرجل من الإناث لهن حق أخلاقي في أمواله ومساعدته عندما يكن بحاجه لذلك وأخته كذلك لها حق قانون في مساعدته في حالات الطوارئ؛ على سبيل المثال في حالة الطلاق أو مرض الزوج أو موته. إلا أن العلاقة بين الزوجة وأخت زوجها تنحط حتى في غياب مثل هذه الظروف. ترى أم علي أن النساء بشكل عام يشعرن أن أخت الزوج تستغل حبه لتنتزع منه الهدايا والقروض. والندرة المزمنة تعني ضرورة حماية أي شيء مهما قلت قيمته لنفسك. تصر أم علي أنها لا تريد شيء من أحمد سوى الحب. ومن وجهة نظر أميرة، أن أم علي بهذه الطريقة تمثل تهديد هائل لأن الحب يعني تقديم هدايا.

٢٣٠

أحمد، الأخ الحبيب

أحمد شاب طويل القامة، نحيف نظرتة عميقة ثاقبة. لظهرة إنحناءة بسيطة تبدوا حتي عندما يمشي منتصبا. هو رجل

وسيم، بملامح مميزة،الشعر البني الرقيق الممشط بعناية من بداية الرأس حتى الخلف، والأعين البنية الرائعة التي تلمع بالمرح وروح الفكاهة ممزوجة بسحابة من اليأس المطلق.تقاربه مع أم علي بدا واضحا، عقله حاد و فهمه للحياة عميق ، يتحدث كما لو كانت معاناة البشرية جمعاء تركزت على نحو ما في جسده ، بالنسبة لأولئك الذين يعرفونه، لا تبدوا الفكرة ببعيد عن الحقيقة.. فكم كانت الحياة قاسية على أحمد. كان مجرد طفل عندما أصيبت والدته المنكوبة باللعجز والبكم بعد صدمتها فى وفاة ابنها الاكبر سيد، لذلك إنتقل أحمد لحضانة عمته، التى كانت لا تحسن معاملته ، كانت تضربه و تعتدي عليه، فإنتقل للحياة مع عمة اخرى.وحين أصبح فى الرابعة عشرمن العمر ، انتقل للعيش مع أخته أم علي التي كانت قد تزوجت للتو. كان سعيدا هناك. لكن بعد ست سنوات ، طالب به والده. وكان والده تزوج في الوقت نفسه ، ويريد مساعدة احمد له لإطعام أسرته. لم يكن أحمد يرغب فى الذهاب للعيش مع والده وزوجته ولكن إعتراضه كان بلا جدوى. فهو أب لديه الحق بأبنائه. وقع أحمد في غرام ابنة زوجة أبيه ولكن زوجة ابيه كانت قد اضاعت ماله " كانت مرات أبوه خلصت على فلوسه" كما قالت ام على،لم يكن معه ما يجعله يجترأ على التقدم لطلب يد أى بنت للزواج .لكن لأن عائلة أميرة كانت شديدة الفقر، فمن المتوقع ألا يبالغوا فى الطلبات، ولم يتكلف احمد سوى القليل من المال كمهر للعروس، أم علي تقول ان أحمد طلب منها أن تأتي أول مرة معه لرؤية

أميرة. هي وافقت،لكى لا تتركه وحده فى زيارة كهذة ، ولكن بعد ذلك عندما سألها عن رأيها ، رفضت الإجابة قائلة: "إنت اللى المفروض تحدد بنفسك، إنت اللى هتنام فى حضنها مش حد تانى! " فى إجابة هى الأكثر غرابة على الإطلاق ، لكن كما تعودت أم علي إمراة مميزة ، و أنا أثق بها.

عبر كل السنين التى عرفته فيها، رأيت أحمد وقد تملك اليأس منه، بائس ، نحيف للدرجة التى تجعل أضلاعه تظهرمن خلال قميصه ظهره إنحنى كما لو أنه يحمل عبء واثقال مستمرة.وهذا هو بالضبط شعوره.كم من مرات سمعته يكرر صارخاً : "من ساعة ما أبويا مات وأنا بدعى ربنا إنه ياخدنى زيه ! " بوفاة والده في عام ١٩٧٢ أصبحت مسؤولية أربعة أطفال صغار وأرملته ، بالإضافة إلى أطفاله هو شخصياً
الأربعة (أصبحوا ستة بعدهاا) والزوجة ،الحماه ، و اخت الزوجة على عاتق أحمد وحده! عندما قررت اخته فريدة الرحيل عن زوجها لانه اتخذ زوجة ثانية، وأصبح أحمد مسؤولا عنها أيضا. باختصار ، قدم له هذا ثلاثة عشر فم لإطعامهم ، بالإضافة إلى ذلك نفسه ، وشقتين لدفع إيجارهما. بينما كانت الأجور في ذلك الوقت تبلغ ١٤ جنيه في الشهر. كان يعمل سائق شاحنة فى هيئة حكومية.
وليكفى كل هذه الأعباء،إنخرط أحمد فى العمل الشاق، أو

كما يقال، عمل حتى الموت، . كان يحشر أنفه في الباب بعد ساعات العمل الرسمى ، و يبتلع غداء سريع، ومن ثم يخرج لقيادة سيارة أجرة كعمل إضافى في الليل. بهذه الطريقة ، استطاع أن يكسب اثنين جنيها أخرين يوميا.

هو نادرا ما يكون في الفراش قبل منتصف الليل ويصحوفي السادسة من صباح اليوم التالي لإعادة الكرة مرة اخرى. ولا عجب من غضبه الجم حين حاولت أميرة هزه ليستيقظ ، أوحين ترى الأطفال يمشون على أطراف اصابعهم تجنباً لإيقاظة وخوفا من غضبه. تبدوا المشاكل دائما قريبة و في متناول اليد. أتذكر حلقة على وجه الخصوص:

تجمعت العائلة لتناول الغداء. كانت الغرفة بالكاد تسعنا جميعا ، ولذلك جلسنا "محشورين " بالغرفة ، وضعت أميرة الرضيع على حجرها. فجأة لوح الطفل بذراعيه حتى اسقط نظارة أحمد، انزلقت وانكسرت، صرخ أحمد فى الطفل: "هقتلك يا أبن العاهرة، إنت فاكرنى بدُق فلوس يا روح أمك ؟ "..

مع ذلك يعتبر احمد راع ومسؤل مثالى كأب ،وزوج ، وأخ ،ووصي. على النقيض من معظم الرجال ،يهتم بشراء ملابس لجميع الطفال بنفسه، ودائما ما يتفقدهم بنفسه للتأكد من انهم يرتدون ملابس جيدة، لديهم ما يكفى من الطعام .. وباقى شؤونهم.. هو أيضا واحد من الرجال

القليلون فى هذا الوسط، الذين يهتمون بأخذ العائلة للتنزه.

عندما كان يساهم احمد مع والده فى المنزل،قبل وفاته، يدفع (فقط) إثنان جنيه ونصف، كانت أم على واميرة تعترضان بشدة، معتبرين المبلغ ضخم، لكن أحمد ألزم نفسه بالمساهمة ،بالرغم من غنه فى بادىء الأمر إعترض على فكرة "المساهمية الإلزامية أو المفروضة" ، عن تلك الواقعة تعلق أم على " أصل أحمد حنين وبيدى بقلب جامد"

.حين تزوج والد أحمد للمرة الثانية، كا تقريبا فى السبعين من عمره، وتزوج إمرأة أربعينية ، أصبح المعاش الذى كان يحصل عليه الوالد من الشرطة(حيث كان يعمل) ضئيل لدرجة كبيرة، فى الوقت الذى زادت فيه الأعباء المادية بولادة أربع أطفال،لذلك طلب الوالد من أحمد المساندة والمشاركة فى مصاريف المنزل،غحتج احمد قائلا أن إذا كان على أحد ان يساعد، فالأولى ان يكون أحد ابناء زوجة الأب(احد الأبناء الذكور)، لكن والده أوصل الأمر للمحكمة، وحكم على احمد بالدفع لهم، لكن قلب أحمد الأبيض ظهر باحسن ما فيه، وقرر احمد دفع اكثر مما قررته المحكمة، لكن للأسف ما فعلى احمد كلفه الكثير بعدها، فى بعد الأوقات، حين كانت تزوره اخته من أبيه(إبنة زوجة أبيه) أم على ، كان ينفجر فيها قائلاً:" إياكى تقولى لأمك إنك قابلتينى هنا، أحسن تيجى هيا كمان وتطلب فلوس، وأنا مش ناقص ومقدرش أدفع اكتر من كده"

ومع ذلك، ببداية عام ١٩٧٩ تحسنت الحياة بالنسبة لأحمد كثيراً، علماً بأنه إذا إستمر فى محاولة إطعام ال ١٣ فم المسؤل عنهم سينهار حرفياً، الأجور الهزيلة فى مصر، جعلته يفكر فى العمل بالخارج، سافر ليبيا عام ١٩٧٧ وجنى أكثر من ٣٠٠ جنيه شهرياً(خمسة أضعاف ما يجنيه من العمل فى وظيفيتن فى مصر)، لكنه كان يشعر بالحنين للوطن، كل شرائط الكاسيت التى كان يرسلها كانت تدل على مدى إشتياقة للوطن، لذلك قالت اميره أن علية الرجوع للمنزل، فالمال لن يعوضها احمد ولن يعوض أحمد صحته، عندما عاد احمد، بعد قضاءه عام واحد فى ليبيا،رجع أحمد للبيت، أنقص قليلا فى الوزن، بدأ وظيفة جديدة، كان قد وصل لأسوأ حالاته المادية، و شعر ان ظهرة إرتطم بالجدار، ولا مفر، لكنه راى ضوء فى أخر النفق، ورغم إعتراض النساء، قرر شراء تاكسى للعمل عليه،و إستقال من العمل الرسمى، ليعمل لحسابه فقط، شجعه مصطفى معترضا على رفض النساء قائلاً: " هو اللى هيعيش، وهو اللى هيموت، وكل حاجه بإيد ربنا"..

زيارات أحمد لأخته أم على، لا هى منتظمة ولا هى متقطعة، فأحيانا يزورها بصفة أسبوعية، وأحيان أخرى مرة كل شهرين، حسب حالته النفسية وظروفة الأسرية، فحين يضج بيته بالصخب والمشاكل يكون بيت أم على هو الملجأ، ليس لهدوءه، لكن مقارنة بصخب والدة أميرة وقدرتها على إختلاق المشاكل يعتبر بيت أم على هادىء كالمقبرة، علاوة على ذلك، أم على تبدوا دائما على إستعداد

تام لتكون السند المعنوى والسلوان الذى يحتاجه أخيها، فى العادة تكون ام على ساخطة على أميرة فهى ترى أن أميرة لا تهتم باحمد بالقدر الكافى ولا تضمن له الإحترام لكن يتوجب على ام على الحرص على اختيار عبارات الإنتقاد وأن تحافظ على هدوء وتهذيب ألفاظها فبعد كل شىء أحمد هو سيد منزله وهو الوحيد المخول بإدارة أسرته وضمان وضعه وإحترامه فى الأسرة.

وعموما احمد فى الغالب يصر أن أميرة لم تخطئ وأن سبب المشاكل أمها أو أختها فتضطر أم على الموافقة على كلام أحمد بعد القليل من الجدال والتعنيف لأميرة لينهى أحمد الجدال ب(خلاص) أو يكفى فتغير أم على موضوع الحديث.

يثور أحمد حين تنتقد أميرة أخته أم على فولاءه الأول والأخير لأخته.

تغلب على علاقة أحمد بام على صبغة الأمومة لكن عاملى السن والجنس أيضا يلعبان دور هام فى تشكيل العلاقة فالعلاقة بين الأخت الكبرى والأخ الأصغر تكون فى غاية الحميمية والقرب فى حال أن العكس غير صحيح فمثلا علاقة احمد نفسه بأخته الصغرى شادية لم تكن بنفس الحميمية لكن شابها التحفظ فأحمد كذكر تتحكم المادة فى شكل علاقاته بل حياته فكم عانى أحمد من أختيه الأكبر منه لكثرة طلباتهم وضغوطهم المستمرة عليه أما أم على فنادرا ماتفعل ففى المرات القليلة التى هربت فيها أم على من المنزل لم تلجأ لأحمد بل لجأت لبعض الأقرباء من جهة أمها .

أحيانا تطلب أم على من أحمد إقراضها بعض المال يستجيب تارة وتارة يرفض ويجرحها بطريقة الرفض أخر مرة رأيت فيها ام على ظلت تقسم أنها لن تطلب من أحمد أى شيء مستقبلا "عشان أخر مرة طلبت منه يسلفنى ١٥ جنيه نرفزنى وقاللى (الناس هيقولوا بس هو فقير) ماشى فقير إحنا فقرا وهو ده عيب" هى شعرت أنه يهتم بمظهره أمام الناس أكثر منها فى حين انها حين تتاح لها الفرصة لمساعدته تساعده بغض النظر عن أى شيء.

معظم العلاقات فى هذا الوسط .

معظم العلاقات فى هذا الوسط تعانى من حقيقة أن كل طرف يشعر بداخلة أن الطرف الآخر فشل فى تحقيق التزاماته، الرغبة فى تقديم الدعم الكامل تجعل من المستحيل تقريبا أن ترقى إلى مستوى التوقعات، حقيقة أن كل فرد ملتزم تجاه العديد من الأشخاص تعنى أن لا أحد يستطيع إعطاء الولوية كاملة لشخص واحد، والأمر هنا لا يقتصر على الموارد المادية فقط، لكن على الحب والدعم العاطفى..

لتتجنب الجرح أو الإحباط، لا تلجا أم على لخيها احمد إلا فى حالة عدم وجود بديل، هذا فى حالات الإحتياج المادى فقط، اما المعنوى لإاحمد من أقرب الناس إليها، فعلى مر السنين، كانت هناك أحداث ومناسبات هامة لجات فيها أم على لأحمد كأقرب أقرباءها الذكور، على سبيل المثال، فى المرات التى أصرت فيها ام على على الطلاق، أحيانا يقف أحمد فى صفها، واحيان اخرى يرد:" غنتوا كبار وعندكوا بنات على وش جواز، أنا عمرى ما هشارك فى اللى انتوا

هتعملوه ده"، وكم آلمها رد احمد ..

حين عارض مصطفى خبة منى لفؤاد، وكلت أم على أخيها احمد فرد أحمد على مصطفى" انا خال البنت، وأنا اللى همشى الجوازة دى"، أحمد هو السلطة الذكورية الثانية على أطفال أم على بعد أبيهم مصطفى، البنات أحيانا يشتكين من تحفظه الدائم على لبسهن وقصات شعرهن حتى أكثر من أبيهم، وهذا المتوقع أكثر، فعلاقة البنات بأبيهم غالبا ما تكون أكثر رسمية، فى حين أن علاقتهن بلخو الأم(الخال) تكون أقرب وأكثر حميمية، ولذلك، حين يضيق الأب على البنات، أحيانا يقترحن طلب الذهاب للسينما مع خالهم، لكن ام على تعترضهن قائلة:"وتفتكروا أميرة هتقول إيه؟"..أميرة دائما ما تحول بين ام على وأخيها، الحادث التالى حدث بعد عودة أحمد من ليبيا عام ١٩٧٩.. تحكيه لنا ام على:

"دول حتى ما نادونيش، تخيلى، مبعتوش يقولولى تعالى!! انا اخته قاعده هنا ومعرفش إنه رجع!، ده أنا كنت بتمنى يرجع وأجرى اروحله وأقوله" حمد الله على سلامتك، بركة إنك رجعت بالسلامة"، أعرف بعد ما رجع بتلات أيام، بقاله ٣ أيام فى مصر وانا مش عارفه، وعرفت بالصدفه كمان، أنا كنت رايحة للدكتور، فجأة لقيت أحمد وأميرة والعيال فى وشين فى الشارعن كانوا رايحين لسامية أخت اميرة، أنا تقريبا أغمى عليا، أحمد كان مكسوف جدا وفى نص هدومة مش عارف يقوللى إيه، وقعد يقوللى إنه قد إيه كان تعبان ومقدرش يعدى يسلم عليا!،وقاللى" انا قلت للعيال يروحوا يقولوك، بعتهوملك، بس هما كسلوا

ومسمعوش الكلام"، انا حسيت بالإهانة، قلتله "وأنا مش أختك، مش من حقى أشوفك، مهما كنت تعبانه، لو مكسحة ورجلى مش شايلانى، أزحف ع الأرض وأجيلك أشوفك ... يا أخويا .. بس.." ووجهت الكلام لأميرة " بس أنا عارفه إنك فاكرانى مستنيه منه هدايا عشان راجع م السفر، بس أنا بقى هقولك، إنتى لو جيتيلى وعلى راسك تاج، انا برده أحسن منك".. احمد حاول يدافع عن اميرة، بس أنا كنت متعصبة جدا ومدتلوش فرصة، خلصت الكلام وسبتهم ومشيت..

أنا عارفه إن أميره السبب، تفتكرى أحمد عايز يزور سامية اختها؟، هى اللى سحباه معاها .. بليل جم علطول من عند سامية عليا، أنا قابلتهم كويس، وبعت العيال يجبولهم بيبس، وحضرتلهم عشا بس هما مكالوش، الواد عاطف كان عمال يزن عشان جعان، قلتله" طب ما يقعد ياكل، عندنا أكل كتير" أحمد قال لأ هو مبيحبش ياكل غير أكل امه، شفتى العيال، لو هنتكلم عن الإسلوب، العيال مش متربيين، ده انا لما بروحلهم محدش فيهم بيجى يسلم عليا..

تانى يوم، روحت لأحمد ومعايا إتنين كيلو سكر، وخمس صابونات، ونص كيلو زبدة، وكيلو سكر، كان مكسوف منى وكلامنا كان مقفل ومحسوب، قاللى غنهم خدوا منه شنطة مليانه حاجات ب ٣٢٠ جنيه فى الجمارك، قلتله مش مهم ، .ز انا مكنتش مستنيه منه حاجه، انا بس كنت عايزة أقعد معاه عشان اطمن عليه ..

المهم قعد يعتذرلى، وجابلى حاجات وقاللى دول اللى

إتبقوا بعد ما خدوا الشنطة، مترين قماش من نوع رخيص، مش زى اللى بيجبهولى من ليبيا كل مرة، وبنطلون ضيق جدا قاللى ده لنور، قلتله إبقى إديه لبنتك!..

جاب شراب لمصطفى، مصطفى طبعا كان عايزه يجيب لكل واحد هديه كبيرة، أنا عموما إديت لأحمد إتنين جنيه، وقلتله إبقى هات بنطلون لأنور لما تسافر او أى حد من صحابك يسافروا تانى ..

"هو مش راجل".. تشتكى ام على .." بيمشى كلامهم عليه" فاكرة المرة الى وعد فيها فريدة إنه هيحميها ومحدش هيدوسلها على طرف وهتعيش معاه، تانى يوم طردوها ومفتحش بقه بكلمه ولا دافع عنها!، هو ضعيف، وهما عارفين ده (زوجته وحماته)، وبيمشوا كلامهم عليه، فاكرة لما كنت بشتغل، أحمد كان بيقول زيهم، زى الناس الغرب، إنى بشتغل عشان أبنى الأرض، وكانه مش عارف الحال، بس الستات دول بيزنوا على ودانه، أهو دلوقتى بينصحنى أبيع الأرض وأشترى بتمنها بيت فى حته فقيرةن زى ما مراته عملت، بس انا قلتله مستحيل أسيب أرض فى الهرم، قاللى:" يعنى إنتى هتعملى بيها إيه، قل يعنى عمرك هتقدرى تبنيها!"، قلتله" يمكن ولادى يقدؤوا يبنوها، اهى الأرض كده كده هتبقى بتاعتهم" ..

أحمد برده مش عاجبه إنى بساعد مصطفى وبعمله جمعيات، أنا دايما بقوله إنى مش بساعد مصطفى أن بساعد العيال، فيقوللى" بس متجيش بعد كدة تستلفى وتقوليلى "مديونة" أو "معذورة" ..."، قلتله لو معندكش حاجه حلوه تتقال يبقى إسكت احسن... انا مبعملش حاجه

غلط لما بعمل عشان مصلحة العيال، لو مش عايز يساعدنى ممكن يوفر نصايحه لنفسه، أنا لما حد بيبقى فى ضيقة بحاول أخفف عنه وادعيله ربنا يسهلله ، لما احمد يبقى عنده مشاكل بقول له : " معلش"، "بكرة هيبقى احسن" ،"طول بالك" ، "ربنا موجود"، "أصبر"، "إستحمل"،إنما أحمد بقى عكسى بيقول كلام زى السم : "سيب العيال يتفلقوا"، "خليهم يموتوا م الجوع" ، "سيبيهم فى ستين داهية".. بس كل ده عشان الستات دول لاعبين فى دماغه..

٢٥

فريدة: الأخت ذات الحياة المُرهِقة

لأنى عرفت أميرة عن طريق أم على، التى إعتادت ان تنادى اختها بإسمها الحقيقى، أصبحت أنا الأخرى أناديها بأميرة، المفروض أن تنادى أم على أميرة بإسم " أم نادية" كما هو الحال، لكن العادات القديمة صعب أن تتغير، صحيح أن أميرة تغلبت على ذلك، وتنادى أختها "زينب" ب "أم على"، لكن هناك عدة أسباب لذلك.

الأول، أن ام على تتعامل ببراعة كأنها الأخت الأكبر من إثنتيهم، هى التى تقدم النصح والمشورة ، وتتحمل المسؤلية وتعتنى بهن، عادة تلجأ لها فريدة، فى حين أنها نادرا ما تلجأ لأميرة، تتجمع الأخوات دائما فى منزل ام على، لذلك عليهم أيضاً إرضاء مصطفى وإظهار الإحترام له، مصطفى يرغب فى تأكيد أن زوجته، اختهن، صفتها

الأولى والأهم أنها أم اولاده.

ومع ذلك، أم على توبخ اختها دائما بدعوى أنها لا تتعامل مع مصطفى بالإحترام الكافى، فمثلا، مرة جلست أميرة فى الغرفة المقابلة للغرفة التى يجلس بها مصطفى لتقوم بإزالة شعر سيقانها، من الوارد أن يدخل مصطفى الغرفة ليحضر شيء أو لأى سبب أخر، إستشاطت أم على غضبا من تصرف أختها، إظهار ساقيك بهذه الصورة لرجل غريب منتهى عدم الإحتشام واللياقة، وكأنها تعرض عليه معاشرتها..

ام على دائمة السخط على أختيها، وأسبابها مقنعة إلى حد كبير، فمثلا المرة التى طلبت فريدة من الأطفال إحضار الفاكهة التى خبأتها ام على أعلى رف المطبخ لضمان عدالة التقسيم، تعديها على هذا المكان غير مريح، إذا لإاى مكان أخر تستطيع ام على الإحتفاظ بأشياءها لضمان الخصوصية، لم يعد مكان سوى تحت المرتبة ! لكن فريدة تجاهلت مبدأ المساواة، و إبتلعت الفاكهة ببساطة غير مبالية...

أم على أيضا تنتقد فريدة لكونها بوجهين " بتلبس وش قدامك، ووش تانى من ورا ضهرك"، وسطحية " بتحس الحاجات بوشها بس، مش بقلبها" تعتقد ام على ان هذا هو سبب أنها تبدوا أصغرهم سناً، بالرغم من كونها اكبر منهن بخمس سنوات، لكن الحياة لم تؤثر فيها بعد..

لكن الحياة،بلاشك، لم تتركها هكذا بسلام، أخذت الضريبة منها،فريدة، ورثت من أمها جمالها، لونها الأبيض

الفاتح، وشعرها البنى المفرود الناعم، عينان بنيتان جميلتان، بياض جلدها ونعومة شعرها صفات كفيلة لوصف إمرأة بالجميلة، أتخيل فريدة فى شبابها، كم كانت تبدوا جميلة، لكن، فمها تهدل، ونظرتها جاحظة جامدة، وذقنها وبطنها ترهلا.. وكأنها تتوقع الأسوأ من الحياة..وبالطبع، هكذا عاملتها الحياة بمنتهى القسوة..

فريدة إعتادت أن تتغطى بالعديد من طبقات مساحيق التجميل، وأن تبدوا أصغر بطريقة مكياجها وقصات شعرها، شفتيها دائمة الحمرة، و خدودها وردية ، بالماكياج، ودائما ما تترك شعرها المفرود ينسدل عل ظهرها، كما الفتيات الصغيرات، أم على وبناتها ينكرن تصرفها، الطبيعى أن تغطى المرأة المتزوجة شعرها حين الخروج من المنزل، لكن فريدة لا تفعل، وكل ما تفعله لأجل إشعال غيرة زوجها، ترتدى فساتين قصيرة جدا، وضيقة..

فريدة على ،عكس معظم النساء فى الحى، نحيفة، (بروز بطنها نتيجة تناول الكثير من السعرات الحراية بنسبة قليلة من البروتين، بالإضافة إلى تسع ولادات وإنحناءة بسيطة فى مشيتها) ترى فريدة أن نحافتها هى سبب أن زوجها تزوج بأخرى، كما قالت:"عايز حد يقدر يستحمله، حد ينام معاه كل يوم" ، وتولول ملتاعة " كنت فهمت انا لما كان بينادينى من المطبخ بليل فى عز ما أنا مشغولة إنه كان عايز ينام معايا؟ أدينى فهمت، بس متأخر، لو كنت فهمت ساعتها! "..

مسكينة فريدة، لها الحق ان تحزن، بعد خمس وعشرون عام من الزواج، وستة أطفال، طلب منها زوجها أن تستريح

قليلاً، إقترح عليها زيارة أقاربها فى الريف، فريدة كانت سعيدة جداً وقتها، فزوجها أحضر لها سرير جديد ودولاب جديد، بالطبع هذا تعبير عن مدى حبه لها، فرحلت وهى مبتهجة! بعد قضاء إسبوع أجازة مع أقاربها عادت أميرة لتجد تفسير فموجة الحب المفاجئة تلك، زوجة جديدة فى غرفة من غرف فريدة الإثنتين، الغرفة المفروشة بالسرير والدولاب الجديدان، الهدية!! كل هذا ما كان سوى فخ، سقطت فيه فريدة..

لم تتمالك فريدة نفسها وثارت منطلقة خارج المنزل هى وأصغر أطفالها، عشر سنوات وثلاثة عشر عام، ولم تفكر فى أخذ أغراضها ولا حتى ملابسها،الشيء الذى ندمت عليه فيما بعد، أول من فكرت فيه هى أختها أم على، ذهبت لتقيم معها، إستقبلتها ام على بترحاب شديد، بطبيعة الحال، ووفرت لها وأطفالها مكان للنوم وطعام وملابس، بجانب الدعم المعنوى والنفسى والحماية لمدة تسعين يوماً، بعدها هدد مصطفى بالرحيل للمكوث بفندق، لكن ام على إقترحت ان تغادر أختها لتمكث هى بفندق بدلا من مصطفى..

لا عجب فى أن يمل مصطفى، رغم مجاملته، فأم على أيضا لم تحتمل الحالة هكذا، فالشقة المزدحمة أصبحت الآن ممتلئة لحد الإنفجار، كان على فريدة أن تحشر نفسها فى سرير بين هدى ومنى وعفاف وأنور، وعلى ولديها أن يناما تحت السرير، على الأرض، ملابس النوم التى هى فى الأصل غير متوفرة بالقدر الكافى، أصبحت توزع على ثلاثة أفراد أكثر، الأكل الذى هو فى العادى سبب صراع

ونزاع الأطفال، الآن يمتد لثلاثة أفواه أكثر، الملابس يجب ان توزع على الجميع بما فيهم فريدة وأطفالها، كل أغراض المنزل والأغراض الشخصية الآن يجب أن يتشارك فيها الجميع، أمشاط الشعر، الأحذية، فرش الأسنان ..وهكذا، إعتاد الناس هنا على مشاركة بعضهم القليل القليل لكن بزيادة الحمل أصبح الجميع فى توتر وعصبية مستمرة..

وفريدة ليست من النوع الحريص على أغراض الغير، ذات مرة قصرت أكمامٍ وحافة فستان يخص هدى ومنى!! أم على إستشاطت غضباً، لدرجة تحول وجهها للون الأحمر من الغضب، لكنها لم تنطق بكلمة، لم تستطع!

ثلاث أشهر مع فريدة، حتى فى أحسن الأحوال، فى ظل حالتها تلك/ الحياة ما هى إلا توتر وعصبية ..

زوجها كان على تم الإستعداد لفعل أى شىء لإستردادها، وهكذا الأبناء، لكن فريدة أكدت أن لا قوة على الأرض تستطيع إرجاعها عن قرارها، أردات "أشياءها" ممتلكاتها الخاصة، التى كانت: قميص نوم، فستان، ثلاث بنطلونات، كيس مخدة وألبوم صور بالى، تلك هى أشياءها فقط، أما أى شىء أخر فكان شراكة بينها وبين شخص أخر، مثلا معظم الملابس تتشاركها مع إبنتها الكبرى، والأثاث كان/ سرير، دولاب، كنبة، "وابور جاز" وثلاث حلل ألومنيوم، لكن فى الواقع، الأثاث ملكها، لكن لا شىء يثبت ذلك، لأن زوجها هو إبن عم والدتها، رفضت الأم كتابة "قايمة" لضمان حقوق فريدة، معللة بذلك أن لا مشاكل بين الأهل، فعلت للك كدليل على القة التامة، لكن فى النهاية فريدة هى من تدفع ثمن تلك

الثقة الآن..

لكى تحصل فريدة على حقوقها عليها اللجوء للمحكمة والإدعاء بأنها كانت تمتكل قائمة لكن زوجها سرقها وأحرقها، ليصل الصراع لأقصى حدوده.

ليست معركة واحدة بل الكثير والكثير كتوابع لترك فريدة المنزل خصوصا فى أول شهرين، مشاهد مروعة أحيانا يتخللها العنف، بداية من إبنها الأكبر عبد الله الذى كلفه أبوه بإحضار أمه بأى طريقة، أتذكر بشدة أحد تلك المشاهد حين جاء عبد الله لمنزل أم على طالباً امه فرفضت، فأمسك عبد الله بأخيه الأصغر وعلقه فى سور البلكونه مهددا بتركة يسقط إن لم يسلمه على أمه واخيه فى الحال!، موقف أخر يحضرنى حين ذهبت فريدة والأطفال للنيل لإستنشاق القليل من الهواء العليل، فتسلل عبد الله وربط يدى امه وحاول شدها أو جرها بالقوة وأخها للمنزل، الكثير من الناس إجتمعوا لمشاهدة الموقف فإستطاعت فريدة بطريقة ما إرسال رسالة مع أحدهم لأم على لتأتى مع على وأنور وتنقذ أختها.

فى أول صدمتها حين كانت فريدة تغادر المنزل، ولولت قائلة لزوجها أنه لو أردا أى شيء فيستطيع أن يحضر لبيت زوجة أبيها حيث ستذهب..(أخو زوجة أليها كان متزوج من أخت ضرة فريدة.. لذا فهو حكم مناسب)، زوج فريدة ذهب لزوجة أبيها وكان المشهد كالتالى كما تحكيه فريدة:

قلتله "إنت عايز إيه؟؟"

- "أنا عايز ولادى"

"خدهم، فيه حاجه تانى؟؟"

- "وهدومهم"
" إتفضل روح خدهم من بيت ام على، لو تقدر"
جذب زوجها الطفلين بشدة ليأخذهم معه لكن الصغير، عشر سنوات' ظل يصرخ ويصرخ، فقالت زوجة أبى فريدة " سيبه مافيش فايدة، هيهرب منك" ، وكذا فعل الأكبر، ثلاثة عشر عام، هرب بعد يوم واحد فقط وذهب لبيت أم على، واحضره أبيه، فهرب وأحضره وهكذا خمس مرات إلى أن يأس الأب فتركه..
أم على تقول أن الأب غير معنى بالأطفال ولا يهتم بوجودهم من عدمه، لكن منذ سمع بان فريدة تنوى مقاضاته طالب بهم خوفا من تكليفه بدفع نفقه لهم..
بالنسبة للملابس، بالفعل حضر الأب لأخذهم لكن فريدة كانت قد قامت بإخفاءهم حتى تضمن بقاء الأطفال معها، كما تعتقد، فأبوهم لن يشترى لهم ملابس جديدة، هى تعلم انه لن يتكلف شيء للحصول عليهم، وهى من ناحية أخرى لن تستطيع أيضا شراء ملابس جديدة لهم فى حالة إحتفاظها بالأولاد، لذلك اخفت الملابس.. ورحل الأب مهزوماً..

obeikandl.com